أَكبرُ دُكّانٍ في العالَم

دُكّانُ جَدّي

. شرمين يشار .

DAR AL MAAREF Publishers
بساطة: ليس مجرد كتاب

مكتبة ٦٤٥

هدية إلى زائر الصباح .. جالب النور

أَكبرُ دُكّانٍ في العالَم

دُكّانُ جَدّي

تأليف: شرمين يشار

ترجمة: نورا يمق

رسومات: مرت توغان

مراجعة لغوية: د. رحاب عكاوي

DAR AL MAAREF
Publishers
بساطة ليس مجرد كتاب

مكتبة | 645

مكتبة | 645

بَقّالَةُ قايا

كلُّ الوَقائعِ المَذكورَةِ في هٰذهِ الرِّوايةِ حَقيقِيَّة...

وَرُبَّما لَيْسَتْ كذٰلِكَ...

ربَّما بَعضُها حَقيقِيٌّ وَبعضُها خَياليّ...

جميعُ شَخصِيّاتِ أَبطالِ هٰذِهِ الرِّوايةِ مِنْ وَحْيِ الخَيال...

وربَّما لَيْستْ كذٰلِكَ...

أَعْني... أَنَّ بعضَها حَقيقيٌّ، وَبعضَها مِمّا رسمْتُه في خَيالي.

وَربَّما خشيتُ أَنْ يَقرأَ الأبطالُ الحَقيقِيونَ هٰذِهِ الرِّوايةَ

وَيَسْتاؤوا مِنَ الحَقيقةِ.

لذٰلِكَ أقولُ إنَّ الشَّخصياتِ غيرُ حَقيقيَّة...

أظنُّ أنَّكم فهِمتُمْ قَصْدي... سَيَسْتاؤونَ منِّي ويُوجِّهونَ إليَّ

الكثيرَ مِنَ الألفاظِ والأسئِلةِ... لِمٰاذا تحدَّثْتِ عنِّي بِهٰذِهِ

الشَّخصيَّةِ؟ هَلْ قُمتُ بِهٰذا الأمرِ تِجاهَكِ؟

هَلْ قلتُ لكِ هٰذِا؟ وهٰكَذا...

لِذٰلِكَ توخِّيًا للّوم أقولُ: الشَّخصياتُ كلُّها خَياليَّة.

نعمْ... نعمْ... ابتكرْتُها مِنْ خيالي، ولا علاقةَ لَهُمْ بِها أبداً...

حقًّا... هٰذِهِ هيَ الحَقيقَةُ...

كُلُّها خياليَّة...

أنا جادَّةٌ في قَوْلي!

ثمَّ... هلْ مِنَ المعقولِ أنْ يَكونَ هناكَ عامِلٌ كهٰذا في دُكّانٍ؟

أَلَيْسَ كذٰلِكَ؟

بِالتَّأْكيدِ!

تأليف: شرمين يشار

رسوم داخلية: مرت توغان

ترجمة: نورا يمق

مراجعة لغوية: د. رحاب عكاوي

جميع الحقوق محفوظة

لشركة دار مكتبة المعارف ـ ناشرون، بيروت ـ لبنان

مكتبة ٢٠٢١١٨

t.me/t_pdf

الطبعة الأولى: 2020م

ISBN: 978-9953-69-860-1

© Şermin Yaşhar

© 2020 TazeKitap - Istanbul - Turkey

© النسخة العربية: شركة دار مكتبة المعارف ـ ناشرون

الطبعة الأولى 2020م ـ شركة دار مكتبة المعارف ـ ناشرون

بيروت ـ لبنان، ص.ب:11/1761 تلفاكس: 01 ـ 653857/2

E-mail: al_maaref@hotmail.com / www.daralmaaref.com

Dar Al Maaref Bookshop Co. Publishers dar_al_maaref_

DAR AL MAAREF Publishers

بساطة، ليس مجرد كتاب

Books Factory For Publishing & Distribution

Tel.: +971 50 582 5874

E-mail: booksfactoryfpd@gmail.com

booksfactoryuae

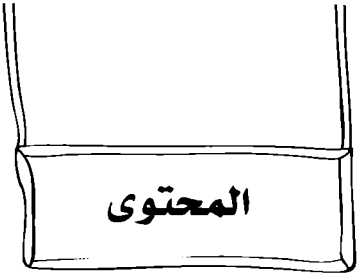

المحتوى

إلى جَدِّي • 7 •

ماذا ستُصبِحينَ عِندَما تكبُرينَ؟ • 9 •

أَفضلُ مِهنةٍ في العالَم • 13 •

جَدِّي البَقّال • 19 •

ساعاتُ عَمَلي • 27 •

مِياهٌ مَعدِنيَّةٌ بِطَعْمِ الكَرَزِ الحامِض • 33 •

الأَخُ مُصْطَفى • 48 •

مُرادُ الطَّويل • 63 •

اللِّصُّ • 84 •

المُنْتَجاتُ المَحلِّيَّة • 93 •

شُكْرِيَّةُ اللّامِعَة • 106 •

أُحِبُّكَ • 116 •

الفاصولِياءُ الجافَّةُ • 125 •

الإفريقِيّون • 140 •

العَمُّ وَهْبي • 159 •

سَيّارَةُ البَضائِع • 177 •

الشَّيْخُ العَجوز • 189 •

الأَلمانِيّون • 200 •

خالي القُبْطان • 210 •

البَحْثُ البَديل • 220 •

بَعْدَ سَنَواتٍ • 237 •

مؤلِّفةُ هٰذا الكتابِ مِنْ مواليدِ 1982م. إلّا أنَّها لَمْ تكبُرْ حتّى الآنَ.

كأَنَّها ما زالَتْ تَعيشُ طفولَتَها.

أكثرُ الأَشياءِ الَّتي تُحِبُّها: اللَّعِبُ، الاسْتِماعُ إلى الحِكاياتِ، تَلْفيقُ القِصصِ، التجوُّلُ في الحيِّ، والقيامُ بالحَـركاتِ الَّتي تُزعِجُ الكِبارَ البالِغين...

الأَشياءُ الَّتي لا تحِبُّها: نَفادُ الشّوكولاتَةِ، أَنْ يقولَ أحدُهُم لَها الْبَسي قَميصًا داخِليًّا، أَنْ يَدْعوها أحدُهُم إلى الطَّعامِ بينَما تَكونُ مُنهمِكةً في أَمرٍ ما، أَنْ يَسـتطيعَ الجميعُ وَضعَ قوانينَ تافِهةٍ مَتى شاءوا، أَنْ يَكونَ كلُّ شيءٍ مِنَ الكِبارِ، وَأَنْ يَكونَ الكبارُ مُحِقِّينَ دائمًا...

مَخاوِفُها: الصَّراصيرُ، البالِغونَ عاقِدو الحَواجبِ...

أَحلامُها: أووووه كَثيرةٌ لا تَكْفي الكِتابةُ عنْها...

بناتُها: تونا، ماتة، نغمة، وَهِيَ معهُنَّ...

كتُبُها: نَجاحاتي الآنَ لِلأُمومـةِ، الأُمُّ اللّاعِبةُ، الطفلُ ذو الأحلامِ الكَثيرةِ، نصائِحُ جيِّدةٌ لِنَبْذِ العاداتِ السيِّئةِ، العصا السِّحريَّةُ مِنْ صُنعِ اليدِ، دُكّان جدّي ـ الصانِع.

إِلى جَدِّي

عام
1992

ماذا ستُصبِحينَ عِندَما تكبُرينَ؟

مكتبة
t.me/t_pdf

صديقي... هٰذا السؤالُ هُوَ سؤالُ البالِغينَ. إذا كانَ حَولَك الكثيرُ مِنَ البالِغينَ، الَّذين لا يُجيدونَ الحَديثَ مَعَ مَنْ هوَ أَصغَرُ مِنْهُم، عليْكَ إذًا أَنْ تَعْتادَ عَلى مِثلِ هٰذِهِ الأسئِلةِ لأَنَّهُم لَنْ يَرحَلوا حتّى يَحْصُلوا عَلى الجوابِ...

إنَّ هٰؤلاءِ البالِغينَ لَيْستْ لديهِمْ أيَّةُ فِكرَةٍ عنْ طَريقَةِ التَّحدُّثِ مَعَ الصِّغار. فَهُمْ لا يَعرِفونَ كيفَ يَبْدؤونَ الحَديثَ معَهُم أَوْ ما الَّذي سيقولونَه لهُم.

إنَّهُـــم يظُنّـــونَ أنَّهُم أذكيـــاءُ جِدًّا، وأنَّنـــا صِغارٌ مُغفَّلونَ لا نفهَمُ شَيئاً! حتّى إنَّهُم لا يَسألونَنا «**كيفَ حالُكُم**»؟ لا يَبْدؤونَ الحديثَ معَنـــا بِقولِهِمْ: «الجوُّ بارِدٌ جِدًّا اليومَ، لقدْ حلَّ الشِّتاء». لا يُحدِّثونَكَ عنْ مشـــاكِلِهِمْ وهُمومِهِمْ، ولا عنْ أحلامِهِـــمْ وأَمانِيِّهِم وَنجاحاتِهِم. فهُمْ يظُنّونَ أنَّنا لـــنْ نفهَمَ. كمْ هٰذا أمرٌ غريبٌ! ولِهٰذا يَســـألونَنا أسئِلةً تُناسِـــبُنا ـ في ظنِّهِم. مَضى وقتٌ طويلٌ مُذْ عَرفْتُ أنَّه يَجِبُ علينا مداراةُ البالِغينَ، وعَلى هٰذا نُجيبُ عَلى أَســـئِلتِهِمْ بِأَلْسِنَتِنا بِإجاباتٍ تُخالِفُ ما في قلوبِنا.

السُّؤالُ: كيفَ هِيَ المَدرسَة؟

الجوابُ الَّذي أُجيبُهُ بِلِساني: جَيِّدة.

الجوابُ الَّذي أُجيبُهُ في داخِلي: المَدْرَسَةُ بِناءٌ جميلٌ ذو أربعَةِ طَوابِقَ، فيهِ كلُّ أَســـبابِ الرَّفاهِيةِ، وَيُغطّي كلَّ احْتِياجاتِ الطُّلابِ. لٰكنَّ الممرّاتِ ضيِّقةٌ قَليلاً...

السُّؤالُ: إلى أَيِّ صفٍّ تذهَبُ؟

الجوابُ بِلِساني: الثّاني.

الجوابُ فـــي داخِلي: الصفُّ الثّانـــي في الطابقِ الرابعِ مِنْ مدرسةٍ حُكوميَّة. لا ندفَعُ أَيَّ نُقودٍ، فهُناكَ مَنْ دفعَ مبالِغَ طائِلةً لِلْمدرسة...

السُّـــؤالُ: لقدْ كبرتِ كَثيرًا، هـــلْ تناوَلْتِ طعامًا مُغذِّيًا؟

الجوابُ بِلِساني: لا...

الجوابُ في داخِلي: نعمْ، تَناولْتُ طعامًا مُغذِّيًا. وكُلَّما أكلْتُ كُلَّما كبُرتُ، لأنَّ الكِبَرَ مُتعلِّقٌ بِالطَّعامِ فَحسْبُ. وسأَكبُرُ كُلَّما تناولْتُ طَعامًا أكثَر...

السُّوالُ: ماذا ستصْبِحُ عندَما تَكبُر؟

الجوابُ بِلِساني: سأُصبحُ طَبيبًا.

الجوابُ في داخِلـــي: ومِنْ أَيْنَ لـــي أَنْ أَعرِفَ؟ فَالتَّفكيـــرُ في المِهنَـــةِ والمَكانةِ المِهَنِيَّـــةِ يكونُ في المرحلَةِ الثّانويَّة. عَلى الإِنسانِ أَنْ يَمتهِنَ المِهنةَ الَّتي يُحبُّهـــا. وأَنا لـــمْ أفكِّـــرْ بِها بعـــدُ. ســـنَرى خلالَ سَنواتٍ...

هٰذا هُوَ السُّؤالُ الأَخيرُ الَّذي يُمكِنُ لِلبالِغينَ أَنْ

يَطْرحوه. إنَّهُم لا يَستطيعونَ التعمُّقَ بِالأَسئِلةِ أكثَرَ، لذٰلِكَ يَنقطِعُ التَّواصلُ معَ الأَطْفالِ وقتَئذٍ: غيرَ أَنَّ السُّؤالَ الأخيرَ هٰذا يترُكُ أثرًا كبيرًا في النَّفسِ.

هلْ أُصبِحُ طبيبًا؟ أوْ مُهندِسًا؟ إلّا أنَّني لا أعرِفُ ما الَّذي يقومُ بهِ المُهندسُ حتّى...

هلْ أُصبِحُ معلِّمًا؟ أَوْ شرطِيًّا؟ أَوْ أُصبِحُ صُحُفِيًّا؟ أَوْ لاعِبَ كرةِ قَدَمٍ؟!

مطرِبٌ؟ يا إلٰهي! إنَّها فكرةٌ رائِعةٌ!!! أَمْ أُمَثِّلُ أدْوارًا في الأَفْلامِ؟ الأفضلُ أَنْ أُصْبِحَ ممثِّلًا مسرحيًّا... أَمْ أُصبِحُ حلّاقًا يا تُرى؟

حَقًّا!!! ماذا سأُصْبِحُ عندَما أكبُرُ

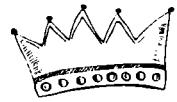

أَفضلُ مِهنةٍ في العالَم

إنَّ هٰذا السُّــؤالَ: «ماذا ســتُصبِحُ في المُستقبلِ» ســؤالٌ مُهِمٌّ جدًّا لِلبالِغينَ. فَكلُّ تِســعةٍ مِنْ عشْــرَةٍ بالِغينَ أقابِلهُمْ يَسْــألونَني السُّــؤالَ ذاتَه، وعَليَّ أَنْ أُعطِيَهُمُ الجوابَ الشّافي.

إِذًا... أفضلُ ما أَقومُ بهِ هوَ اخْتيارُ مِهْنَتي.

بدأْتُ أُراقِبُ البالِغينَ حَوْلــي. أَنْظُرُ في مِهَنِهِم، في مدى اسْــتِمْتاعِهِمْ بِها أوْ لا، وفي نِسبةِ الأَموالِ الَّتي يَكْسِبونَها، فَكلُّ هٰذِهِ الأُمورِ سَتُلْهِمُني فِكرةً ما. لِذا قمتُ بتَجهيزِ قائِمةٍ:

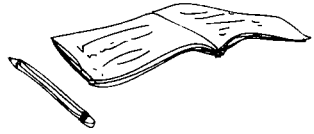

الشّخصُ	مِهنَتُه	حالَتُه
أُمّي	ربّةُ بيتٍ	في البيتِ طَوالَ اليومِ... **مَلولةٌ جِدًّا.**
أَبي	عامِلٌ	يُغادرُ البيتَ ويعودُ إليهِ كلَّ يومٍ في الوقتِ عينِه... **مَلولٌ جِدًّا.**
خالي	معلِّمٌ	يُدرِّسُ الموادَّ ذاتَها في كلِّ سنةٍ، **لَيسَ هناكَ أيُّ تَغيير.**
عمّي فِكْرَت	شُرطِيٌّ	مُحاطٌ بِالمُغامراتِ... **حياتُهُ في خَطَر.**
جَدّي	صاحِبُ مَقْهى	حالتُه حسَنَةٌ، إنَّه يقومُ بِالعملِ في مَكانٍ يجتمِعُ فيه النّاسُ لِيتحدَّثوا وَيَتَسامَروا فيهِ، عملٌ مُمْتِع.

صاحِبُ دُكّانِ جَدّي الآخرُ

ليسَ مَلولًا أبَدًا. يَأتي الناسُ ويذهَبونَ بِاستِمرارٍ. يُمكِنُكَ أَنْ تأكُلَ وتشرَبَ كلَّ ما ترغَبُ فيهِ في أيِّ وقتٍ كانَ. يمكِنُكَ اللعِبُ بِالألعابِ الَّتي تُباعُ في الدُّكانِ. لنْ يطلُبَ أحدٌ منكَ ثمنَها، فكلُّها مُتاحَةٌ لكَ، تستطيعُ أن تَبيعَ مَنْ أَرَدْتَ مِنَ النّاسِ وأنْ تمتنِعَ عن بيعِ الآخرينَ. وهكذا يعامِلُكَ الجميعُ مُعاملةً حسنةً. كما يمكِنُكَ أَنْ تغلِقَ بابَ دكانِكَ متى أردْتَ وتذهَبَ. فلا أحَدَ يسأَلُكَ إلى أَيْنَ ذَهَبْتَ. تقرَأُ الصَّحيفةَ طَوالَ النهارِ وأنتَ جالسٌ في دكانِكَ. والجميعُ يسألونَكَ عنِ الأخبارِ والوقائِع.

هل يحبُّ عملَه

الأرباحُ

بِما أنَّها تقولُ: «لَقدْ مَلَلْتُ مِنَ الأعمالِ». هٰذا يَعني أنَّها لا تُحبُّ عملَها.

صِفرٌ، فهي تَعْمَلُ دونَ أيَّةِ أُجرَة.

مُتعَبٌ جدًّا. فكثيرًا ما يقولُ: «لقدْ أُرهِقتُ في العمل هٰذا اليومَ». إذًا لا يُحِبُّ عملَه.

بِالكادِ يَكفينا.

كلَّما تَحدَّثْنا عنِ النُّقودِ يقولُ: «أنا مُوظَّف». هٰذا يَعني أنَّ وضعَهُ الماديَّ ليسَ جيِّدًا.

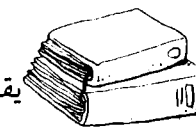

كثيرُ التَّذمُّر.

يقولُ دائمًا: «مِنَ الصعبِ الانْشِغالُ بِالطلّاب».

وضعُهُ الماديُّ مِثلُ وضعٍ خالي.

يُحِبُّ عَملَهُ، ولكنَّه لا يحبُّ زِيَّ العملِ.

الشّايُ رخيصٌ جدًّا. ولِكَي يَكسِبَ كثيرًا فإنَّه يُحبُّ أن يَصبُّ مِئاتِ الأَقْداحِ مِنَ الشّايِ كلَّ يوم. لِهٰذا السببِ هِيَ مِهنةٌ لَيستْ مُربِحَةً.

لا... الأجيرُ عندَه هو مَنْ يقومُ بكلِّ الأعمالِ، وما يقومُ بهِ هو أنْ يحمِلَ قدَحَ الشّاي الَّذي يَحْتَسي منْهُ، ولا يوصلُ الشّايَ لِأَيِّ واحِدٍ.

يُحِبُّ عَملَه. وإلّا لَما فَتَحَ بابَ دكانِهِ مِنَ السّاعةِ السّادسةِ صَباحًا، وَلَوْ أَنَّهُ لا يُحبُّ عملَهُ لَبَقِيَ نائِمًا.

بِشكْلٍ مدهِشٍ. النُّقودُ مَوجودةٌ، وصندوقُ النقودِ مُمْتلِئٌ دائِمًا.

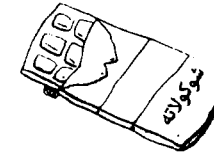

أروع المهن في العالم!

مَرحٰى!.... عَملٌ رائِعٌ....

اسْـتَطعْتُ أَنْ أَتَّخِذَ قراري بفضْـلِ هٰذِهِ القائمةِ. المِهْنةُ الوحيدَةُ الَّتي يُمكِنُ أنْ أمتَهِنَها.

البِقالَة!

بعدَ خمسِ دَقائِقَ كنتُ واقِفةً أمامَ جَدِّي البَقّال. لَمْ يكُنْ هُناكَ أيُّ مَعْنـى لِلانتظارِ. كانَ مِنَ المُمكِنِ أَنْ يُصبِحَ جَدِّي بقّالًا عندَما يكبُرُ أَيْضًا. لٰكنَّ المهارَةَ أَنْ تُصبِحَ بَقّالًا مُنذُ الصِّغَر.

سألتُ جَدِّي:

«أريدُ أَنْ أَكـونَ بَقّالًا أَنا أَيْضًـا. هَلْ تحتاجُ إلى عامِلٍ؟»

أجابَني:

«نَعَمْ، يلزَمُنا عاملٌ، لٰكنْ هَـلْ يُمكِنُ أَنْ تَكوني عامِلًا؟ لِنَرَ ذٰلِك».

«يُمْكِنُنـي أَنْ أقومَ بكلِّ مـا تَقومُ بِهِ، فَأَسـعارُ البَضائِعِ مَكْتوبةٌ عَليْها، أَسْـأَلُ الزَّبـونَ عمّا يُريدُهُ،

أَضَعُ طلبَهُ في الكيسِ وأُقدِّمُه لَهُ، آخُذُ الثَّمَنَ وأُعيدُ إِلَيْهِ الباقـــي، وأُعطيكَ فاتورةً في ذٰلِـــكَ. أَهٰذا ما لا يُمْكِنُني القيامُ بهِ؟».

«إنَّ هٰذا الأمرَ بســـيطٌ جِدًّا. فَبِرأْيي لا داعِيَ إِلى أَنْ تُصْبِحـــي عامِـــلًا، الأَفْضَـــلُ أَنْ تُصْبِحـــي بَقّالًا مُباشَرَة».

«هَلْ أَنتَ جادٌّ؟! هَلْ هٰذا مُمكِنٌ؟ عَلى الفورِ... ما الَّذي عَليَّ القيامُ بهِ؟»

«كَنِّسي الفُسْحَةَ أمامَ الدُّكانِ».

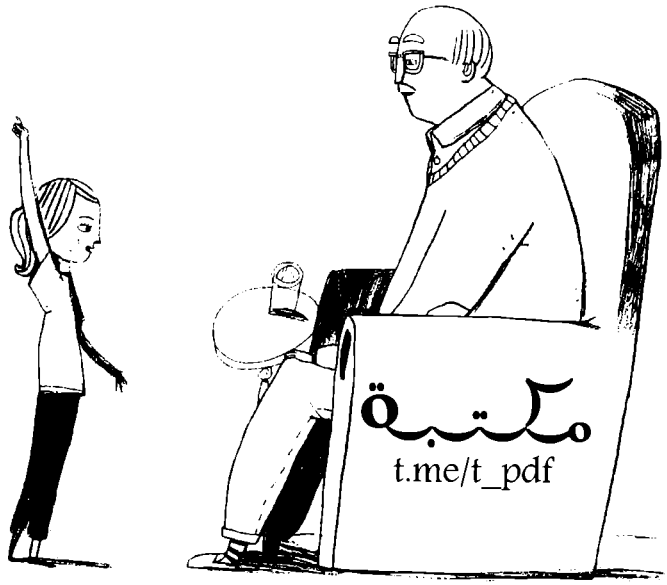

مكتبة
t.me/t_pdf

كُنتُ أنتظِرُ منْهُ أنْ يَقومَ مِنْ عَلى كرسِيِّه وَيقولَ: «تَفضَّلي يا بُنَيَّتي، كنتُ أَنتَظِرُكِ، لقدْ تَعِبْتُ مِنْ هٰذِهِ المِهنَةِ. سَأَنسحِبُ إِلى رُكْني، وَأَنتِ قومي بِأعمالِ البِقالَةِ».

لقدْ أَوْكَلَ إِليَّ مُهِمَّةَ تَنْظيفِ الفُسْحَةِ أَمامَ بابِ الدُّكان.

لِيَكُنْ. لقدْ عزَمْتُ عَلى هٰذا الأمرِ.

ولَوْ أَنَّني سأَبْدأُ مِنَ الصِّفْرِ.

جَدِّي البَقّال

إنَّ هٰذا المكانَ دُكّانٌ في قَرْيةٍ صَغيرةٍ، ولَيْسَ مِثْلَ الأَسواقِ المركَزِيَّةِ الكَبيرَةِ، تِلكَ الَّتي تتجوَّلُ فيها بِعَرَبةِ التَّسوُّقِ، وَإنَّما دُكّانُ قَرْيةٍ صَغيرٌ مُكوَّنٌ مِنْ غُرفةٍ واحِدةٍ فَقَطْ. في الحَقيقةِ أُفَكِّرُ في تَوْسِعَةِ هٰذا المكانِ. طَبْعًا، إذا سارَتِ الأمورُ كما أُخطِّطُ لَها، يَعْني لِعِدَّةِ سَنواتٍ بعدُ. سَأجْعلُ لَهُ طابِقًا عُلْوِيًّا آخَرَ وأقومُ بِتجْهيزِه.

تَدخُلُ الدُّكّانَ بعدَ صُعودِ سُلَّمٍ ذي ثَلاثِ دَرَجاتٍ تَبدَأُ مِنَ الزُّقــاقِ وتَنْتَهي في الدُّكّانِ، ثُــمَّ تَطَأُ قِطعَةَ كَرتونٍ مسطَّحةً، وذٰلِكَ كَيْ تَمْســحَ بِها حذاءَكَ مِنَ الأَوساخِ والطِّينِ العالِقِ فيهِ قبلَ دُخولِكَ.

قَدْ يَخطُرُ في بالِكَ سُؤالٌ: لِمٰاذا لا توجَدُ مِمْسَحَةُ أَرْجُلٍ عَلى الأَرضِ بَدَلًا مِنْ قِطعةِ الكَرتونِ هٰذِهِ؟!

أَوَّلًا: مِنَ الصَّعــبِ أَنْ تَجِدَ مِمْســحةَ أَرجُلٍ في القَريةِ. ثانِيًا: علَيْنا أَنْ نَقومَ بِتنْظيفِ المِمْســحةِ كلَّ يومٍ. ثالِثًا: يقومُ البَقّالُ كلَّ يــومٍ بِتَفريغِ ثَلاثَ عُلَبٍ كرتونِيَّةٍ جَديدَةٍ على الأَقَلِّ، ولا بُدَّ مِنَ الاِستِفادَةِ مِنْ هٰذِهِ العُلبِ. تُوضَعُ هٰذِهِ العُلــبُ في الكيسِ الكَبيرِ المُعلَّقِ عَلى الجدارِ في الحَديقَــةِ الخلْفِيَّةِ للدُّكّانِ، وهٰكذا نَستخدِمُها كمِمْسحةِ أَرجُل.

كَما أَنَّ هُناكَ عُلبًا غيرَ صالِحةٍ لِلاســتِخدامِ كعُلَبِ عِلكَةِ اللِّبانِ والبَسْكَويتِ وَالشّوكولاتَةِ وَغَيْرِها. هٰذِهِ العُلبُ صغيرةٌ جِدًّا وَكَثيــرَةٌ، وَلا يُمكِنُ الاِسْــتفادَةُ

مِنْها، لِذٰلِكَ تُقطَّــعُ قِطعًا صَغيرةً وتُحرَقُ ويتِمُّ التخلُّصُ مِنْها.

في إِحْدى المَــرّاتِ، وَبَيْنَما كنتُ أَقومُ بِتَمزيقِ عُلــبِ الكَرتونِ الصَّغيــرةِ هٰذِهِ، وَجَدْتُ فيها ثَــلاثَ ليراتٍ مَعدِنيَّــةٍ.. **ثَلاثَ ليراتٍ كامِلةٍ**... أَخْبَرني جَــدِّي أَنَّ بِإِمْكاني الاِحتفاظَ بِها. لَقَدْ سَقطتْ سَهوًا بينَ تِلكَ العُلبِ، وقدْ تَحدُثُ أُمورٌ كهٰذِهِ في الدُّكانِ. لَكَمْ شَعَرْتُ بِالسَّعادَةِ حينَها!

مُنذُ ذٰلِكَ اليَومِ أَصبَحْتُ أَقومُ بِهٰذا العمَلِ المُمِلِّ **بِكلِّ مُتْعةٍ ونَشــاطٍ** على أَمَلِ أَنْ أَجِدَ نُقــودًا بَيْنَها. لٰكِنَّني لَمْ أَجِــدْ نُقودًا غيرَها أَبَــدًا. لا أَعرِفُ لِمَ لَمْ يُحالِفْني الحظُّ! أَمْ أَنَّني لَمْ أَنْتَبِهْ جيِّــدًا؟ أَمْ أَنَّ أَمْرَ النقودِ هٰذا إِنَّما هُوَ حيلةٌ مِــنْ حِيَلِ جَدِّي؟ لعلَّه قالَ في نفسِــهِ: ضَعْ نُقودًا في الكيسِ الكبيــرِ في المرَّةِ الأُولى، سَتَجِدُها الفتاةُ عَلى وجْهِ المُصادَفَةِ وتَفْرَحُ بِها، وسَــتقومُ فيما بَعدُ بِهٰذا العمــلِ دونَ مَلَلٍ على أَملِ أَنْ تَجِدَ نقودًا مرةً أُخرى! **يا لَها مِنْ فِكرةٍ ذَكِيَّة**.

نَعَمْ، عقــلُ البالِغينَ يعمَــلُ هٰكَذا فــي ابْتِكارِ الحِيَلِ. أَعرِفُ أَنَّه كانَ يَنظرُ إليَّ ويضْحكُ مِنْ تَحتِ شــاربَيْهِ ويُتمْتِمُ: هههه، لقدْ انْطَلَتْ عليْها الحيلةُ، وَها هِيَ الآنَ تعمَلُ مُتأَمِّلةً أَنْ تجِدَ نقودًا مرَّةً أُخْرى. لقــدْ أدرَكْــتُ ذٰلِــكَ، لٰكِنْ بِســببِ حُبِّــي لِجدِّي وَاحْتِرامي لِمُديري فــي العَملِ، لَمْ أُفصِــحْ لَهُ أَنِّي فَهِمْتُ الحيلةَ... كانَ لا بُدَّ لي مِنْ أَنْ أتعلَّمَ التَّعامُلَ مَعَ البالِغينَ هٰكَذا.

أَخذْتُ دَفترًا مِنَ الدُّكّانِ في ذٰلِكَ اليومِ، وَكتبْتُ فيهِ:

المواضيعُ الحَسّاســةُ الَّتي يَجِــبُ عَلى الصِّغارِ التَّنبُّهُ إِلَيْها خِلالَ تواصُلِهِمْ مَعَ الكِبار.

دَوَّنتُ العُنوانَ ثمَّ كتبْتُ المادَّةَ الأُولى:

1 ـ المادَّةُ الأُولى

يُمْكِنكَ أَنْ تُلاحِظَ الأَخطاءَ الَّتي يَرتكِبُها البالِغونَ في حَقِّ الصِّغار.

رَغْمَ ذٰلِكَ إِيّاكَ أَنْ تَبوحَ لَهُمْ بِذٰلِكَ.

إِنَّهُم لَنْ يُصَدِّقوكَ.

أَنتَ طِفلٌ... تجاهَلِ الأمرَ...

دَعْهُم يَظُنّونَ أَنَّهُمْ أَذْكَى مَنْ في العالَم...

سـأُعَرِّفُكُم **بِجَدِّي البَقّالِ**. قَدْ يَأتي يومٌ يَقَعُ هٰذا الكِتابُ بيدِ جَدِّي، لِذٰلِك لَنْ أكتُبَ كلَّ ما أعرِفُه. هُوَ مُتوسِّطُ القامَةِ، ذو شاربيْنِ، مُكرِشٌ قَليلًا، مَحبوبٌ جِدًّا، بلْ أكثرَ مِنْ ذٰلِكَ، طيِّبُ القلبِ، وهوَ جدٌّ رائعٌ أَيْضًا. إِنَّه جدٌّ متفهِّمٌ جدًّا، حتّى إِنَّني محظوظَةٌ جِدًّا كَونُهُ جَدِّي. أَرجـو أَنْ تَقَعَ هٰـذِهِ الصفحاتُ في يدِ جَدِّي ويَقرَأَ ما كتبْتُ، وهٰكَذا يُدرِكُ مدٰى حُبِّي لَه.

رُبَّما، إِنْ قرَأَ هٰذِهِ الصَّفحاتِ، يَـرى أَنَّني لمْ أذكُرْ أَبدًا كَمْ هوَ عَصَبِيُّ المِزاجِ وفَظٌّ. كَما أَنَّني لمْ أتحدَّثْ

عنْهُ كيفَ ينظُرُ إِلـــيَّ بحِدَّةٍ وَيصرُخُ قائِـلًا: «يا ابْنَتي! لِماذا أَنتِ هٰكذا؟ مَنْ تُشْبِهينَ بِتصرُّفاتِكِ هٰذِهِ؟»...

وَكَذٰلِـــكَ مُحاوَلَتُهُ إِسْـــكاتي وهُوَ يُحـــرِّكُ عينَيْهِ وحاجِبَيْه.

وَإِلـــى جانـــبِ كلِّ صِفاتِه هٰـــذِهِ لديْـــهِ حاجِبانِ وَشارِبانِ كَثَّةٌ. وَتَراهُ بينَ الحينِ والآخَرِ يُخرِجُ مِشْطًا مِنْ جيبِهِ فَيَمشِطُ حاجبَيْهِ وشارِبيْهِ. يَعْتَريني الضَّحِكُ عندَما أراهُ يَفعلُ ذٰلِـــكَ، وَلٰكِنِّي لا أُبدي لَهُ ضَحِكي طبعًا.

وَإِلى ذٰلِكَ كلِّهِ لهُ ميـــزَةٌ خارِقَةٌ فـــي رَأْيي. فهُوَ يعرِفُ كلَّ ما أقومُ بِهِ، وكُلَّ مَـــنْ يدخلُ ويخرُجُ مِنَ

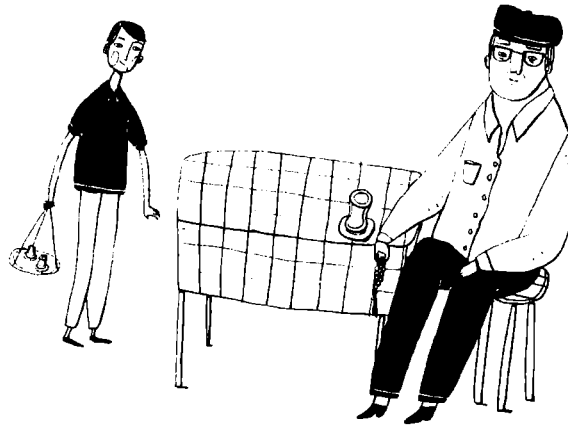

الدّكانِ، وهُــوَ يقرَأُ الصَّحيفةَ، وحتّــى دونَ أَنْ يَزيحَ الصَّحيفَةَ عَنْ وَجهِه.

هَلْ هُوَ جَدٌّ خارِقٌ أَمْ ماذا؟!

هُنــاكَ جَدِّي الآخَــرُ **صاحِــبُ المَقْهــى** أَيْضًا. سَــأَتحدَّثُ عنْهُ بينَ الفَيْنة والأُخْــرى. إِنَّهُ يَعملُ في مَقهى القَريَةِ. بَيْنَ الدُّكّانِ وَمَقْهــى القريَةِ 90 خُطوةً جَرْيًــا، و120 خُطوةً سَــيْرًا. يَمْضي يَوْمــي بينَ هُنا وهُناك. جَــدِّي القَهْوَجي رجلٌ غريــبُ الأَطوارِ، لا يُبالي وَلوِ انتشَــرَ الحريقُ في العالَــمِ أَجمَع. أمّا ما يقومُ بهِ طَوالَ اليومِ فهُوَ أَنْ يَحْتســي قهوتَهُ وسُبْحتُهُ في يدِهِ، يُلْقي السَّــلامَ ضاحِكًا عَلى كلِّ مَنْ يَمرُّ مِنْ أمامِ المَقْهى. أُحِبُّ طَبعَهُ هٰــذا كثيرًا. فكُلَّما أَغْضَبُ مِنْ جَدِّي البَقّالِ أذهبُ إِلى جَــدِّي القَهْوَجي. وَفي

كُلِّ مَرَّةٍ أَبدَأُ بالتذمُّرِ والشِّـكايَةِ مِنْ جَـدِّي البقّالِ، وَبَينَما أَقولُ في حُزنٍ: هَلْ تعرِفُ ماذا فَعَل؟ وقَبلَ أَنْ أُكْمِلَ كلامي يُقاطِعُني قائِلًا: «**لا تُباليييييييي... هيّا، هاتِ قَدَحًا مِن شـايِ الفاكِهَة**». وكأَنَّ شايَ الفاكِهةِ هٰذا يَقْضي على كُلِّ هُمومي. إِنَّهُ يُؤمِنُ بِذٰلِكَ حَقًّا...

وإِنَّـهُ كَذٰلِكَ في الحَقيقةِ. بَيْنَما أشـربُ شـايَ الفاكِهةِ يَتلاشى غَضَبي فَأَعودُ مُسـرِعةً إِلى الدُّكّانِ. وحينَما أَغضَبُ أَعودُ إِلـى المَقْهى وَهٰكذا... كنتُ قلِقةً جدًّا مِنْ أَنْ أَقْضي حَياتي بِهٰذا الشَّكل.

ساعاتُ عَمَلي

يَفتحُ جَدّي البقّالُ بابَ دُكّانِهِ في السّاعَةِ السّادِسةِ صَباحًا. في البِدايةِ، كنتُ أَظنُّ أَنَّــه يقومُ بِذٰلِكَ لِأَنَّه يُحِبُّ عملَهُ كَثيرًا... **ولٰكِنّي كنتُ مخطِئَة.**

يُوزِّعُ الخبّازُ الخُبــزَ في السّادســةِ صَباحًا، لِذا يُضطَرُّ جَدّي إِلــى فَتحِ دُكّانِه في تِلكَ السّــاعةِ. في الأُســبوعِ الأَوَّلِ مِنْ بِدايَةِ العملِ في الــدُّكّانِ كُنتُ حاضِرَةً في السّاعةِ السّادسةِ صَباحًا، فلَمّا رَآني جَدّي قالَ مُتعجِّبًا: «ما الَّذي جاءَ بِكِ الآنَ؟»

أَجبْتُهُ: «ماذا تَعْني بِـ«ما الَّذي جاءَ بي؟» أَلَسْــتُ عامِلًا لَدَيْكَ؟ ما إِنْ يَبــدأَ العملُ في الدكّانِ حتّى يبدَأَ عَمَلي».

وَفيما بعدُ، تَخلَّيْتُ عَنْ أَفكارِيَ السَّــخيفَةِ تِلكَ؛ إِذْ حَتّى السّاعةِ الثامِنةِ لا يَدخلُ أَيُّ زبونٍ الدُّكّانَ. أمّا جَدّي فَيَقْضي ساعتَيْنِ عَلى كرسِيِّهِ وَهُوَ يَشْخِر.

يوجَدُ في الدكّانِ صُندوقٌ كبيرٌ فيهِ كيسٌ ضَخمٌ رَمادِيُّ اللَّــونِ ممتلِئٌ بِالسُّــكّرِ، نُســمِّيهِ: **صُندوقُ السُّكَّرِ**، عندَما يَطلبُ الزَّبائِنُ سكَّرًا نَمْلأُ لَهُمُ السُّكَّرَ مِنْ هٰــذا الكيسِ الكَبيــرِ. أَجْلِسُ أَحيانًــا عَلى هٰذا الصُّندوقِ، وَأَحْيانًا أُحلِّقُ في أَحْلامي إِلى البَعيدِ وَأَنا جالِســةٌ عليْهِ. أَتخيَّلُ أَنَّهُ صُندوقٌ ســحرِيٌّ، أَرُشُّ مَسحوقَ الضَّحِكِ عَلى السُّكَّرِ، فُيصِيبُ الضَّحِكُ كلَّ مَنِ اشْــتَرى السُّــكَّرَ، يَصْنَعونَ مِنْهُ المُربّى، وَتَعْلو الضَّحِكاتُ بينَ أهــلِ القَرْيةِ. غيرَ أنَّ شــخيرَ جَدِّي يُعيقُ أَحْلامي هٰذِهِ، يا إِلٰهي، إِنَّهُمْ يَمْنعونَ الإِنســانَ حتّى مِنَ التَّحليقِ في أَحْلامِه.

في الأُسبوعِ الأَوَّلِ حضَرْتُ باكِرًا، لٰكِنَّني تَراجعْتُ عَنْ هٰذا القرارِ، وصِرْتُ أَبدَأُ عَملي في السّاعةِ التّاسعَةِ، فَالمُوظَّفــونَ لَــدى الدَّوائِــرِ الحُكومِيَّةِ يَبــدَؤونَ أَيْضًا أَعمالَهُم في السّاعَةِ التاسعَةِ.

أَجلِسُ مَعَ جَدِّي في الــدُّكّانِ حَتّى يَحينَ وَقتُ الظُّهــرِ. وَفي ســاعاتِ الظَّهيرَةِ يَخْتَفي جَــدِّي فترَةً وَيقولُ: إِنْ حَدَثَ أَيُّ شَيْءٍ فَأَنا في البيتِ.

لِماذا يَرغَبُ أحدُهُمْ في الذَّهابِ إلى البيتِ؟! أَنا شَخْصِيًّا... لا أَرغَبُ في ذٰلِكَ. إنَّ هُناكَ التجوُّلَ في الحَيِّ، واللَّعِبَ في أَزِقَّتِه، فَما السَّببُ وراءَ شَغَفِ البالِغينَ بِالذَّهابِ إلى البَيتِ؟!

في إِحْدٰى المَرّاتِ أَغلقْتُ بابَ الدُّكّانِ وَذهبتُ لِأَرى ما الَّذي يَقومُ بهِ في البيتِ لِساعةٍ كامِلةٍ مِنَ الظَّهيرَةِ... إنَّه يَنامُ في هٰذِهِ السّاعةِ!!! لَمْ أُصَدِّقْ عَيْنَيَّ...

لقَدِ استَيْقَظْتَ في السّاعةِ السّادِسةِ، وَنِمْتَ حَتّى الثامِنةِ في الدّكانِ. كيفَ تخرُجُ مِنَ الدُّكّانِ في السّاعةِ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ لِتَنامَ في البيتِ؟!! أكادُ أُجَنُّ مِنْ عاداتِ النَّومِ هٰذِهِ الَّتي يتَمَسَّكُ بِها البالِغونَ. لَوْ نترُكُهُمْ على حالِهِمْ فإِنَّهُم يَنامونَ طَوالَ النَّهارِ... بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ لَوْلا أَنَّ أُمّي تُجْبِرُني عَلى النَّومِ كُلُّ مساءٍ لَما نِمتُ أَبَدًا.

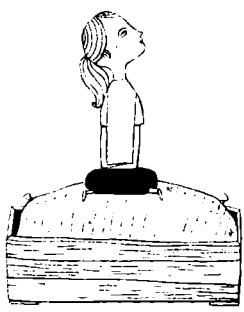

يَسْتَيْقِظُ جَدّي في السّاعةِ

الواحِدَةِ بَعدَ الظهرِ، ويذهَبُ إلى المسْـجِدِ لِيُصلِّي، وَبَعدَ المَسْـجِدِ يذهَبُ إلى المَقْهى، وفيما بعدُ يمُرُّ بِالدُّكّانِ لِيَتَذَمَّرَ وَيَغْضَبَ عَليَّ، ثُمَّ يَذهَبُ مَرَّةً أُخْرى إلى المَسْجِدِ لِأَداءِ صلاةِ العَصرِ، ثُمَّ إلى المَقْهى مِنْ جديدٍ، وَكالعـادَةِ يَعودُ إلى الـدُّكّانِ لِيَتَذَمَّرَ ويَقولَ: «لِمٰاذا فعلتِ هٰذا؟»... وَأَخيرًا في السّاعَةِ الخامِسةِ مساءً يقولُ لي: «يُمكِنُكِ الذهابُ الآنَ». لقدْ تعوَّدْتُ عَلى سـاعاتِ العمـلِ، إلّا أَنَّنـي آكلُ الكَثيـرَ مِنَ المَأْكولاتِ فـي الدُّكّانِ، وَلَنْ يَكونَ مِنَ السَّـهلِ أَنْ تَتَعوَّدَ مَعِدَتي عَلى ذٰلِكَ. أُحاوِلُ مَنْعَ نَفْسـي قائِلةً: «على رِسْـلِكِ...كلُّها لكِ... لَنْ يَأْخُذوها مِنكِ... وَلَـنْ تُحْرَمي مِنْهـا». رَغْمَ ذٰلِـكَ لا أَنْجَحُ في هٰذا الأَمْرِ. وَطَالَما أَنا جالِسـةٌ فوقَ صُندوقِ السُّكَّرِ ذاكَ أحلُمُ فيما سأَتناولُهُ في السّاعاتِ القادِمةِ... وَلِأَنَّني أعيشُ علـى هٰـذِهِ الأَحْـلامِ فَإِنَّنـي أَهجُـمُ عَلى المَأْكولاتِ في الدُّكّانِ بِمجرَّدِ خُروجِ جَدِّي مِنْه. آكُلُ الحَلْـوى مِنْها أَوَّلًا، فَأَشْـعُرُ بِالغَثَيـانِ، لِذٰلِكَ أَقومُ بِتَناوُلِ المأْكولاتِ المالِحَةِ في هٰذِهِ المرَّةِ لِيزولَ أَثَرُ

الغَثَيانِ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ أَشْـعرُ بِالعَطَشِ، فأَشْرَبُ المِياهَ الغازِيَّة. ثُمَّ أُعيدُ الكَرّةَ مِنَ المُحَلّاةِ إِلى المُمَلَّحَةِ إِلى المِياهِ الغازِيَّة.

أَظُنُّ أَنَّ جَدّي حَذَّرَ أُمّي قائِلًا: «إِنَّها تَأْكُلُ الكثيرَ مِنَ المأْكُولاتِ في الدُّكّانِ، وإِنِ استمرَّتْ على هٰذِهِ الحالةِ فَلَنْ تَسـتطيعَ تَناوُلَ الطَّعامِ في البيتِ». لَقَدْ أَخْبرتُكُمْ مِنْ قَبْلُ أَنَّهُ يَمْلِكُ مَزايا خارِقَة. فَأَنا أَتَناوَلُ كُلَّ هٰذِهِ المآكِلِ في غيابِهِ، وَمِنَ المُستَحيلِ أَنْ يعرِفَ أَنَّني آكُلُ هٰذا الكَمَّ الكَبيرَ مِنْهـا. كُنْتُ أَرْمي أَغْلِفةَ الشّوكولاتَةِ والبَسْكويتِ الَّتي آكُلُها في سَلَّةِ القُمامَةِ المَوجودَةِ في الـدُّكّانِ. وَفي أَحَدِ الأَيّامِ ـ جاءَ خالي وَلِأَنَّهُ ابنُ جَدّي فَقَدْ كانَتْ كلمتُهُ مسموعةً في الدُّكّانِ ـ دَخَلَ وَجَلَسَ عَلى كرسِيِّ جَدّي. وَعَلى الفورِ لفتَتِ انتِباهَهُ سلَّةُ القُمامةِ وَبَدأَ بِعَدِّ الأَغْلِفَةِ:

نَحْنُ **الأطفالُ** أَشخاصٌ صادِقونَ لِلْغايةِ.
لٰكِنْ هُمُ الَّذينَ يَدْفَعونَنا إِلى إِخفاءِ ما نقومُ بِهِ،
أَوِ القِيامِ بِأمورٍ خِفْيَةً.
وَفي النِّهايَةِ يَجْعَلونَنا نَمْتَثِلُ لَهُمْ...

«لَقَدْ تناولْتِ أَطْعِمَةً كَثيرةً: بَطاطا، شــوكولاتَةُ، بَسْكويتٌ، مياهٌ غازِيَّةٌ، عِلكَةُ اللِّبانِ وَمُكَسَّرات...».

يا إِلٰهي! لقدْ تَركْتُ خَلْفي الكَثيرَ مِنَ الآثارِ دونَ أَنْ أُلاحِظَ... هٰذا يَعْني أَنَّ جَدِّي كانَ يَتَعَقَّبُني! بعدَ ذٰلِكَ اليومِ رُحْتُ أَرْمــي كُلَّ أَغْلِفَةِ المَأْكولاتِ الَّتي آكُلُها في سَــلَّةِ المُهْمَلاتِ المَوْجودَةِ خارِجَ الدُّكّانِ. مِنَ الآنَ فَصاعِدًا لَنْ يَعْلَمَ أَحدٌ ما الَّذي أَكَلْتُه.

أَخْرَجْتُ دَفْتَري وَكَتَبْــتُ مُلاحظةً صَغيرةً، رُبَّما هِيَ غَيْرُ كافِيَةٍ لِتَكونَ مادَّةً عَلى حِدَةٍ، لِيَكُنْ...

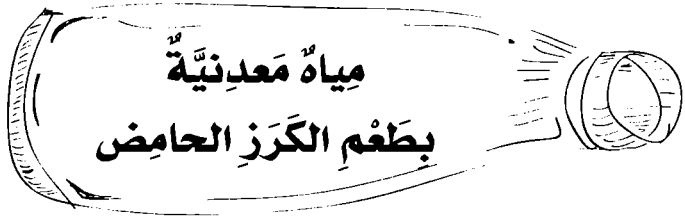

مِياهٌ مَعدِنيَّةٌ بِطَعْمِ الكَرَزِ الحامِض

دُكّانُ القَرْيَـةِ... يَنْبَغي أَنْ يَحْتَـوي هٰذا الدُّكّانُ عَلى **كُلِّ شَـيْءٍ**، يَعْني عَلى كُلِّ ما يُمْكِنُ الاِحْتياجُ إِلَيْهِ. كُلَّما كانَتْ بِضاعَتُكَ كثيرةً مُتوفِّرةً، كُلَّما رَدَدْتَ عدَدًا أَقَلَّ مِنَ الزَّبائِنِ، وَهٰكذا تَكونُ قد قدَّمْتَ خِدمةً **أَفْضل**. لِذٰلِكَ يَنْبَغي عَلَيْكَ أَنْ تَعرِفَ جَيِّدًا ما الَّذي تَحتاجُ إِلَيْهِ، وَتُحاوِلَ سَدَّ كُلِّ هٰذِهِ النَّواقِص.

عِنْدَما تدخُـلُ الدُّكّانَ تَجِدُ عَلـى الجِهةِ اليُمْنَى خِزانَةً كَبيرَةً فيهـا أَنواعٌ كَثيرَةٌ مِـنْ رُقاقاتِ البَطاطا المُقَرْمِشَة، وَكانَ في مكانِها مَقعدٌ طَويلٌ قبلَ أَنْ تُنْتَجَ هٰذِهِ البَطاطا وتُعْرضَ لِلْبَيْع. كانَ الزَّبائِنُ يَجلِسونَ عَلى المَقْعدِ لِساعاتٍ طَويلَةٍ وَيَتَجاذَبونَ أَطرافَ الحَديثِ... حَتّى إِنَّ بَعـضَ الزَّبائنِ

كانوا يُطيلونَ الجُلوسَ إلى دَرجةِ أَنَّنا كُنّا نُكرِمُهُمْ بِبَعْضِ المَشروبات.

لَحظةً مِنْ فَضلِكَ، هَلِ اسْتَغْرَبْتَ؟!

نَعمْ، هٰذا في الزَّمَنِ الَّذي لَمْ تَكُنْ رُقاقاتُ البَطاطا المُقرمِشَةُ عُرِفَتْ بَعدُ. لَمْ يَكُنِ الأَطفالُ في الماضي يَعْرِفونَ أَيَّ شَيْءٍ عَنِ البَطاطا المُقرمِشَةِ، إِذْ كلُّ ما كانوا يَعرِفونَه مِنَ الأَكلاتِ الَّتي يَشْتَرونَها مِنَ الدُّكّانِ إِنَّما هِيَ عِدَّةُ أَنْواعٍ مِنَ البَسْكويتِ، وَعِلكَةِ اللِّبانِ وَالمُكسَّرات.

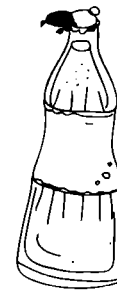

فيما بَعدُ بَدَأَ إِنتاجُ رُقاقاتِ البَطاطا المُقرمِشَة، وَكَثُرَتْ أَنواعُها إِلى أَنِ احْتَجْنا إِلى خِزانةٍ خاصَّةٍ بِها. وَلِهٰذا السَّببِ أَزَلْنا المَقعدَ، الَّذي كانَ يجلِسُ عَلَيْهِ الزَّبائِنُ، وَوَضَعْنا مكانَهُ خِزانةَ البَطاطا. بِهٰذا الشَّكلِ تَخَلَّصْنا مِنْ إِكرامِ الزَّبائِنِ بِالمَشْروبات.

وَعَلى الجِهةِ اليُسْرى مِنَ البابِ ثَلّاجةُ المَشروباتِ، تَجِدُ فيها القَواريرَ مَصْفوفةً بِشكلٍ

مُنظَّمٍ، وَلا تجِدُها فارِغةً أَبدًا، لِأَنَّ النّاسَ كُلَّما رَأَوْا عدَدًا أَكبرَ مِنَ المَشروباتِ كلَّما ازدادَتْ رَغبتُهُمْ في شِرائها، وَهٰذا يَعْني مَبيعَ عددٍ كبيرٍ مِنْها.

في تِلكَ السَّنواتِ لمْ نَكُنْ نَبيعُ المِياهَ في تِلكَ الثَّلّاجةِ، لِأَنَّنا كُنّا نَشرَبُ الماءَ مِنَ الصُّنْبور. وَإِذا ما جاءَ أَحدٌ إِلى الدُّكّانِ وَطَلَبَ الماءَ كنّا نُقدِّمُ لَهُ كوبًا مِنَ الماءِ لا غَير. حَتّى إِنَّ ثَلّاجَةَ المَشروباتِ لَمْ يكُنْ فيها أَنواعٌ كثيرَةٌ مِنَ القوارير، فقَط المِياهُ الغازِيَّةُ والمِياهُ المعدِنيَّةُ والعَصيرُ. **هذا لا أَكثَر!...**

الشَّبابُ هُمُ الَّذينَ يَشربونَ المِياهَ الغازِيَّةَ، وَالأَطفالُ العَصيرَ، أمّا كِبارُ السِّنِّ فيَشرَبونَ المِياهَ المعدِنِيَّة.

كانَ هٰذا الأُسبوعَ الأَوَّلَ مِنْ عَمَلي. الفَصلُ صيفٌ والحَرُّ شَديدٌ في الخارجِ. الجَميعُ يَخْتَنِقُ مِنْ

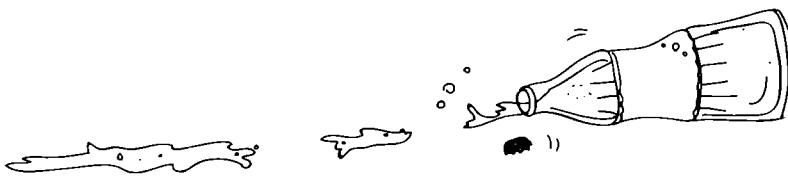

شِدَّةِ الحَرِّ. أَمْلأُ الثَّلّاجةَ بِقواريرِ المَشروباتِ المَليئَةِ، وَأَضَعُ الفارِغةَ منْها في صَنادِيقِها. جاءَ طِفلٌ وَطَلَبَ عصيرَ فاكهةٍ، سأَلْتُه:

«بِالدُّرّاقِ أَمِ الكَرَزِ الحامِضِ أَمِ المِشْمِش؟»

أجابَني:

«لا فَرقَ».

أَرَدْتُ أَنْ أَقولَ لَهُ:

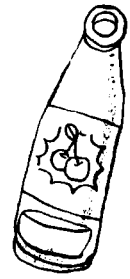

«كيفَ لا فـرقَ!... أَلَيْـسَ لَديْكَ طَعمٌ مُفضَّل؟!». لٰكِنْ لا يُمْكِنُكَ مُخاطَبَةُ الزَّبونِ بِهٰذا الشَّكْل.

قُلتُ لَه:

«اشْـرَبْ عَصيرَ الـدُّرّاقِ إِذًا». وَناوَلْتُـهُ عَصيرَ الدُّرّاق.

جاءَ العمُّ صالِحٌ فيما بَعْدُ، وقالَ:

أَعْطِيني قارورَةً مِنْ مِياهِ المَعْدِن.

ناوَلْتُه قارورةَ مِياهٍ مَعدِنِيَّةٍ وَأَنا أَضحَكُ.

لا يُمكِنُكَ أَن تَرُدَّ عَلى مَزْحِ الزَّبائِنِ السَّخيفِ بِمِثْلِهِ، وَلا يُمكِنُكَ القولُ: «ما هٰذا المُزاحُ السَّخيفُ يا عمُّ صالِح! لا أُريدُ سَماعَ ذٰلِكَ مرَّةً أُخْرى». وَإِنَّما عليْكَ أَنْ تَبتسِمَ فَقط. رُبَّما تَتَساءَلُ: «مِياهُ المَعدِنِ؟!» ثُمَّ تُكرِّرُ «مِياهٌ معدِنيَّةٌ ـ مِياهُ المعدِنِ...» ثُمَّ تُتْبِعُها بِكلماتٍ تُلامِسُ مشاعِرَه: «يا لَها مِنْ لُعبةٍ كَلِماتٍ جَميلةٍ يا عمُّ صالِح».

لٰكِنْ... أَنا لا أُحِبُّ المُزاحَ المُفرِطَ! إِذا كانَ المُزاحُ مَقبولًا اضْحَكْ، وَإِنْ لم يكُنْ كَذٰلِكَ ابتسِمْ وكَفى.

جاءَ الأَخُ مَتينٌ بعدَ العمِّ صالحٍ، اشْترى قارورةَ مياهٍ غازيَّة، نَزَعَ سِدادَتَها وذهَبَ. الزَّبائِنُ الشُّبّانُ جَيِّدونَ يَخدِمونَ أَنفُسَهُمْ بِأَنْفُسِهِم. هُناكَ فَتّاحةُ قواريرَ بِجانِبِ ثَلّاجَةِ المَشروبات. يَأْتونَ، يَأْخُذونَ ما يُريدونَ، يَدفعونَ ثَمنَها، يَفتحونَها وَيشربونَها، ثُمَّ يَضعونَ القَواريرَ الفارِغةَ في الصُّندوقِ وَيخرجونَ. **زَبائنُ رائِعونَ!**

ذهَبَ الأَخُ مَتينٌ، وبعدَ نِصفِ ساعَةٍ جاءَتِ السيِّدةُ خديجَةُ، وقالَتْ:

«أَشعُرُ بِحرارَةٍ في داخِلي، ماذا يُمْكِنُني أَنْ أَشْربَ؟»

الزَّبائِنُ المُتردِّدونَ!! أَنتَ لا تعرِفُ ماذا يَطلبونَ! كيفَ لي أَنْ أَعرِفَ ما الَّذي تُريدُهُ؟!

قلتُ لَها:

«مِياهٌ غازِيَّة»

«لا... لا أَستَطيعُ شُرْبَ المِياهِ الغازِيَّة».

قلتُ لَها:

«مِياهٌ مَعدِنِيَّة».

«لا أُحِبُّها، وَهَلْ أَنا عَجوزٌ لِأَشْرَبَها؟».

أَجَبْتُها:

«وَما دَخْلُ السِّــنِّ بِالمشــروبِ؟، اشْرَبي عَصيرَ الفاكِهةِ إذًا».

«لَوْ أَرَدْتُ شُرْبَ عَصيرِ الفاكِهةِ فَهُناكَ الكَثيرُ مِنْ عَصائِرِ الفاكِهةِ المُجَفَّفةِ في البيتِ».

نَظَرَتْ إِلى الثَّلّاجةِ، وَأَطالَتِ النَّظَرَ، ثُمَّ قالَتْ:

«أَعْطيني كيلو مِنَ السُّكَّرِ، وكيلو طَحين».

«تَقولينَ إِنَّكِ تَشعُرينَ بِحرارَةٍ في داخِلِكِ وتُريدينَ صُنْعَ الحَلْوى؟!».

ضَحِكَتْ وَقالَتْ:

«لا طبْعًا، كنتُ سَأَشْتريها أَصْلًا. يا لَكِ مِنْ فتاةٍ نَبيهة!».

لَمْ أَعرِفْ ما المُضْحِكُ في الأَمرِ! لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُسْعِدَ السيِّدةَ خديجةَ الَّتي يَشْتَعِلُ صَدرُها بِفِعْلِ الحرارَةِ وَلمْ يُعجِبْها شيْءٌ في ذٰلِكَ اليَوم.

جَلَسْتُ عَلى صُندوقِ السُّكَّرِ بعدَ أَنْ ذَهَبَتْ، وَبَدَأْتُ التَّفكيرَ: **إِرضاءُ الزَّبائِنِ مِنْ أُصولِ التِّجارَة.** لٰكِنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ إِرضاءَ السيِّدةِ خَديجَة. هُناكَ زبائِنُ لا يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ شبابًا لِيشْرَبوا المِياهَ الغازيَّة، وَلا عَجائِزَ لِيشْرَبوا المِياهَ المَعدِنيَّة. هَلْ عَلَيْنا أَنْ نَرُدَّ الزِّبائِنَ أَمثالَ السيِّدةِ خَديجَة؟

لا بُدَّ أَنْ يَكونَ هُناكَ مَشروبٌ خاصٌّ بِهِم.

بَدأْتُ في ذٰلِكَ اليومِ بِتَجهيزِ مَزيجٍ خاصٍّ بِهِمْ.

كانَ عليَّ أَنْ أَسْتَهْلِكَ عدَّةَ قواريرَ مِنَ المَشروباتِ المُختلِفَةِ الطُّعومِ لِأَجِدَ المَشْروبَ المُناسِبَ لَهُمْ. إِذًا، عليَّ أَنْ أَنتظِرَ ذهابَ جَدِّي إِلى المَسْجِدِ. بِمُجرَّدِ خُروجِهِ وَضَعْتُ القواريرَ أَمامي. مَزَجْتُ المِياهَ الغازِيَّةَ بِعَصيرِ الفاكِهَةِ، وَالمِياهَ المَعدِنِيَّةَ بِالمِياهِ الغازِيَّة. وَكانَتِ النَّتيجَةُ هِيَ أَنَّكَ لَوْ تَذوَّقْتَ مزيجَ المِشْمِشِ بِالمياهِ الغازِيَّةِ فَلَنْ تَطَأَ أَرضَ الدُّكّانِ مَرَّةً أُخرى. لَمْ يَكُنْ هُناكَ أيُّ طَعمٍ لِأَيِّ مَزيجٍ مِنْها، بِاستِثْناءِ مَزيجِ المِياهِ المَعدِنِيَّةِ بِعَصيرِ الكَرَزِ الحامِضِ الَّذي كانَ رائِعًا. سُكَّرُهُ قَليلٌ لِذٰلِكَ أَضَفْتُ مُكَعَّبَيْنِ مِنَ السُّكَّر.

رااااائعٌ! عَظيمٌ! شيْءٌ لا يُصدَّقُ!

لَقَدْ أَعْجَبَني طَعمُهُ كثيرًا، وهٰذا يعني أَنَّه سيُعجِبُ الجَميعَ، هٰذا رأْيي طبْعًا. كانَ يُمكِنُنا أَنْ نبيعَ مِنْهُ طَوالَ الصَّيْفِ وَنَضْرِبَ ضَرْبَةَ العُمْرِ. إِنْ بِعْنا الكَثيرَ، وَكَسَبْنا الكَثيرَ مِنَ النُّقودِ، يُمْكِنُنا توسِعةُ الدُّكّانِ. كُنتُ سَأُخَلِّصُ جَدِّي مِنْ هٰذا الدُّكّانِ الصَّغيرِ، وأُصبِحُ أُسْطورَة.

مِياهٌ مَعدِنِيَّةٌ بِطَعمِ الكَرَزِ الحامِضِ!

سَنَكتُبُ عَلى غِلافِ القارورَةِ «مِياهٌ مَعدِنِيَّةٌ بِطَعمِ الكَرَزِ الحامِضِ».

لَكَمْ تُعْجِبُني مُشاهَدةُ الإِعلاناتِ، وَقِراءةُ الإِعلاناتِ الورقِيَّةِ، وَأَغلِفَةُ المُنْتَجاتِ. وأَكثرُ شِعارٍ أُحِبُّه هُوَ المَكتوبُ عَلى عُلَبِ الزَّيْتِ لِشَرِكةِ «تْراكيا المُتَّحِدَة»:

«شَرِكةُ تْراكيا المُتَّحِدَةُ، خِدمةُ المُنتَجِ والمُستهلِك...»

يا لَهُ مِنْ مُنتَجٍ، ويا لَهُ مِنْ شِعارٍ، «خِدمةُ المُنتَجِ والمُستهلِك» مَعًا... ما الَّذي نُريدُهُ أَكثرَ مِنْ ذٰلِكَ؟! كانَ مِنَ المُمكِنِ لِمُنتَجي أَيْضًا أَنْ يُصبِحَ كَذٰلِكَ. سَيُعْجَبُ المُتوسِّطونَ في العُمْرِ بِطَعْمِ صودا الكَرَزِ الحامِضِ، وَسَيَشْرَبُهُ الشِّيبُ والشَّبابُ.

انتظَرْتُ عَودَةَ جَدِّي مِنْ صَلاةِ الجُمُعَةِ بِفارِغِ الصَّبرِ. لَمْ يَعُدْ... طالَ الِانْتِظارُ. شرِبْتُ ثلاثَةَ أَكوابٍ مِنْ صودا الكَرَزِ الحامِض. سيَتَذوَّقُها هُوَ أَيْضًا عِندَما يَعودُ، وَسَيُهَنِّئُني عَلى هٰذا الِاكْتِشافِ. أَخيرًا خَرَجَ مِنَ المَسْجِدِ، وَأَشارَ إِلَيَّ مِنْ بعيدٍ إِشارَةَ «أَنَّني ذاهِبٌ إِلى المَقْهى».

وَدَدْتُ لَوْ أَقولُ لَهُ: «أَيُّ مَقهًى هٰذا؟ هَيّا عُدْ إِلى رَأْسِ عَمَلِكَ». لٰكِنْ مِنَ العَيبِ أَنْ تُقالَ كَلِماتٌ كَهٰذِهِ لِلجدِّ. كُنتُ مُتَحَمِّسةً جدًّا، وَلَم أَعُدْ أَسْتَطيعُ الاِنْتِظارَ أَكثَرَ. وَكُنتُ ذَكرْتُ مِنْ قَبلُ أَنَّ صاحِبَ المَقهى هُوَ جَدِّي الآخَر. أَعمَلُ هُناكَ أَيْضًا بَيْنَ الحينِ وَالحين.

مَقْهى جَدِّي هُوَ أَكثرُ مَكانٍ ازْدِحامًا في القَريةِ. هُناكَ الكَثيرُ مِنَ الرِّجالِ المُتَعَطِّلينَ عَنِ العَملِ. خَطَرَتْ في بالي فِكرةٌ رائِعةٌ: سَأَسْقي جَدِّي مِنِ اكْتِشافي هٰذا، وَأُعَرِّفُ الكَثيرَ مِنَ النّاسِ عَلى هٰذا المَشروبِ الرّائِعِ. وَعَلى الفَورِ تَخَيَّلْتُ قواريرَ صودا الكَرَزِ الحامِضِ عَلى الطّاوِلاتِ يَستَمْتِعُ النّاسُ بِطَعْمِها اللَّذيذِ. إِنَّها فِكرةٌ ذَكِيَّة. حَمَلتُ الكُوبَ وَانْطَلقْتُ نَحْوَ المَقْهى.

رَآني جَدِّي القَهْوَجي وَفي يَدي كوبُ المَشروبِ، فَقَالَ لي: «أَيَّتُها الفَتاةُ... يُمنَعُ إِدْخالُ المَشروبِ مِنْ خارِجِ المَقْهى».

مَزوح!

قُلتُ لَه: «أَنا حَفيدَتُكَ، هَلْ نَسيتَ هٰذا؟... في الصَّباحِ أَحْضَرْتُ لَكَ صَحيفتَكَ وَنَظّارَتَكَ وَالماءَ! لَقدْ أَرْسَلْتَني ثلاثَ مَرّاتٍ إِلى الدُّكّانِ، وَجَعَلْتَني أُغْلِقُ لَكَ النَّوافِذَ مَرَّتَيْن».

حَدَّقَ إِليَّ بِعَيْنَيْهِ مُتَعَجِّبًا:

«أَتَعُدِّينَ ما قُمتِ بِهِ لِأَجْلي يا بُنَيَّتي؟»

«أَعُدُّها طبْعًا، وَأُريدُ شايَ الفاكِهةِ مُقابِلَ ذٰلِكَ».

حينَها قالَ:

«كَمْ أَنتِ **ماكِرةٌ**». وَدَخَل.

تَوجَّهْتُ إِلى جَدِّي البقّالِ، كانَ يَقرَأُ الصَّحيفَةَ مَعَ الخالِ كَمالٍ تَحتَ الشَّجرَةِ... لا يُبالي بِشيْءٍ...

وَكَأَنَّ الدُّكّانَ دُكّاني... وَماذا في ذٰلِكَ!! وَجَدَ مُساعِدًا مِثْلي، يُؤدّي صلاتَهُ عَلى أَقلِّ مِنْ مَهْلِهِ، يذهَبُ إِلى المَقهى، يقرَأُ صحيفتَهُ! راحَةٌ في راحَةٍ!! كِدْتُ أَواجِهُهُ بِالأَمْرِ، لٰكِنْ لَمْ يَكُنِ المَكانُ مُناسِبًا. ثُمَّ هُناكَ مَوضوعٌ أَكثرُ أَهميَّةً لِلحديثِ عَنْه. دَعَوْتُ جَدِّي القَهْوجي أَيْضًا. كانا يَنْظُرانِ إِليَّ.

قُلتُ لِجَدِّي البقّالِ:

«لَدَيَّ فِكرةٌ رائِعةٌ. لقَدْ مَزَجْتُ المِياهَ المَعدِنِيَّةَ بِعَصيرِ الكَرزِ الحامِضِ. كانَتِ النَّتيجةُ مُدهِشةً. لِنَقُمْ بِبَيْعِها طَوالَ الصَّيفِ، وَسنُحَقِّقُ أَرْباحًا طائِلة».

نَظَرَ إِلى الكُوبِ أَوَّلًا، ثُمَّ قالَ:

«وَهَلْ نَحْنُ نَعمَلُ في مقْهًى؟! نَحنُ نَبيعُ المَشروباتِ في قواريرَ مخْتومة، وَلا نَبيعُ الزَّبائِنَ المَشروبَ بِالكوبِ؟ لِيَقُمْ بِبَيْعِها جَدُّكِ القَهْوجي».

هٰذا صَحيحٌ، لَمْ أُفكِّرْ بِهٰذا الأَمرِ. لَوْ أَنَّنا قُمْنا بِبَيْعِها في الأَكوابِ لَتَحَوَّلَ الدُّكّانُ إِلى مقهًى... التَفَتَ إِلى جَدِّي القَهْوجي. وَقُلتُ لَهُ: «**قُمْ بِبَيْعِها أَنتَ. سَتُصْبِحُ مِنْ أَثْرى الأَثرياء**».

أَجابَني كَالعادةِ بِطَبْعِهِ اللّامُبالي واضِعًا يَدَيْهِ في جَيْبَيْهِ: «إِنْ أَنا بِعْتُ كُلَّ واحِدةٍ مِنْها عَلى حِدَةٍ لأَصْبَحْتُ غنيًّا أَكثرَ مِنْ ذٰلِك». رُحْتُ أَتَنفَّسُ مِنْ أَنْفِي غضَبًا، وَصَرَخْتُ بِهِما بِكُلِّ حَماسةٍ: «**يا إِلٰهي!**... لِماذا لا تَعْرِفانِ شَيْئًا عَنِ التِّجارَة؟!».

قامَ جَدِّي البَقّالُ بِحَمْلةٍ مُضادةٍ، وَسَـأَلَني سُؤالًا بَسيطًا جدًّا: «مَنْ يوجَدُ في الدُّكّانِ؟»

أَجَبْتُهُ:

«لا أَحـدَ». لٰكِنَّ جَوابـي هٰذا جـاءَ وَأَنا أَجْري مُسرِعةً نَحوَ الدُّكّانِ.

كُنْتُ قَـدْ تَرَكْتُ بابَ الـدُّكّانِ مَفْتوحًا، وَكَذٰلِكَ الصُّنْدوقَ وَخَرَجْتُ، وها أَنا أَتَّهِمُ جَدِّيَ بِـ«**جَهْلِهِما في التِّجارَة**».

بَقِيَ مَشـروبِيَ الرّائعُ فوقَ الطّاوِلةِ يَوْمَذاكَ، وَلا أَعرِفُ إِنْ شَرِباهُ أَمْ رَمَياه.

عنْدَما عُدتُ إِلى الدُّكّانِ وَبَّخْتُ نَفْسي كثيرًا. ما كانَ عليَّ أَنْ أَخرُجَ تارِكةً البابَ مَفْتوحًا.

لٰكِنَّ الخَطَأَ الحَقيقِـيَّ كانَ **تَفْكيـري بِمَصْلَحَةِ النّاسِ أَجْمَعين**.

حينَها قُلتُ في نَفْسـي: «ما لَكِ أَنـتِ؟!. لِيَرُدَّ جَـدِّي البقّالُ الزَّبونَ فـارِغَ اليَدَيْنِ، وَلْتَعُدِ السـيِّدةُ خديجَةُ دونَ أَنْ تَجِدَ مَشـروبًا مُناسِـبًا لَهـا، وَلْيَبِعْ جَدِّي القَهْوَجي الشّايَ وَشايَ الفاكِهةِ...»

«ما دَخلُكِ أَنــتِ؟! إنَّ ما عليْكِ القِيــامَ بِهِ هُوَ صَفُّ البَضائعِ عَلى الرُّفوفِ لا أكثرَ. لِماذا تَتَدخَّلينَ في أَعمالِهِما؟!».

في ثَوْرَةِ الغَضَــبِ تِلْكَ أَخْرَجْــتُ دَفْتري الَّذي سمَّيْتُهُ «**المَواضيعُ الحسّاسةُ الَّتي يَجِبُ عَلى الصِّغارِ الإنْتِباهُ إِلَيْها في أَثناءِ تَواصُلِهِمْ مَعَ الكِبار**». وَوَضَعْتُ المادَّةَ الثّانِيَةَ.

2 ـ المادَّةُ الثّانيةُ:

لا تُعْطِ رَأْيًا لِلْكِبار...

فَهُمْ يَعرِفونَ الأفضلَ في كلِّ شَيْءٍ...

لا تَتدَخَّلْ في أَعْمالِهِمْ...

سَيَأْتي يومٌ يُصْبِحُ فيهِ صودا الكَرَزِ الحامِضِ مِنْ أَكثَرِ المَشروباتِ مَبيعًا...

حينَها سيعرِفونَ قيمَتَك...

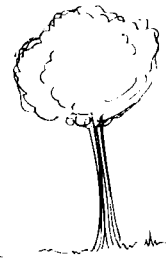

الأَخُ مُصْطَفى

بعدَ ثَلّاجةِ المَشــروباتِ تبدَأُ الرُّفوفُ. عَلى هٰذِهِ الرُّفوفِ مَعجونُ الطَّماطِمِ، المُرَبَّياتُ، العَسلُ، وَقِشْدَةُ الشّــوكولاتَةِ الَّتي نَمُدُّها عَلى الخُبْــز. وَبِمُجَرَّدِ نَزْعِ غِطاءِ القارورَةِ تَجِدُ الشّوكولاتَة...

في أَحَدِ الأَيّامِ، وَبَيْنَما كُنتُ أَصُفُّ قواريرَ قِشدَةِ الشّوكولاتَة عَلى الرُّفوفِ، جاءَتْني فِكرةٌ عَبقَرِيَّة. إِنَّ النّاسَ عندَما يَرفَعونَ أَغطيةَ قواريرالشّــوكولاتَةِ هٰذِهِ يَشْعُرونَ بِسعادَةٍ غامِرةٍ. فَإِذا وَجَدوا جُمَلًا لَطيفةً بعدَ نَزْعِ الغِطاءِ سَتَتضاعَفُ سعادَتُهُم. وَهٰكَذا سَيَشْتَرونَ المَزيدَ مِنْ قِشْدَةِ الشّــوكولاتةِ لِتَزْدادَ سعادَتُهُم، أَمّا نحنُ فَنُصبِحُ أَغنياءَ وَبِذٰلِكَ نَستطيعُ تَوْسِعَةَ الدُّكّان.

أَخَذْتُ قواريرَ الشّــوكولاتةِ مِنْ عَلــى الرُّفوفِ مُجَدَّدًا، رَفَعْــتُ أَغْطِيَتَها وَكَتَبْتُ عَلى الشّــوكولاتةِ بِأَسْفَلِ عودِ الثِّقابِ «**بِالصِّحَّةِ والهَناء**».

كانـــتْ مُهِمَّـــةً مُمْتِعـــةً بِالنِّســـبةِ إِلـــيَّ. أَكمَلْتُ مُهِمَّتي... سَتُرسَـــمُ الِابتســـامَةُ عَلى وَجْـــهِ كُلِّ مَنْ سيَشْتري مِنْ قِشْدَةِ الشّوكولاتةِ هٰذِهِ، وسَيَضَعُها عَلى مائِدَةِ الفُطورِ غَدًا، وَسَتَنْتَشِـــرُ موجاتُ السَّعادةِ هٰذِهِ في القَريَة.

في اليومِ التّالي أَخذْتُ مكاني إِلى جانبِ جَدِّي بكُلِّ فَخرٍ. كُنْتُ أَسْـــتَحِقُّ مِنْهُ تَهنِئةً حارَّةً، لٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعرِفُ بِالأَمْرِ بَعدُ. لَيسَ مُهِمًّـــا، فَعِنْدَما يدخُلُ

النّاسُ الدُّكّانَ، وَفـي وُجوهِهِمْ عَلاماتُ السَّـعادَةِ، سَيعْرِفُ بِالأَمرِ. في هٰذِهِ الأَثْناءِ دَخَلَ الزَّبونُ الأَوَّلُ، وَفي يدِهِ قارورَةُ شوكولاتةٍ مُمتلِئةٌ حتّى النِّصْف.

قلتُ في نَفْسـي: «يا لَهُ مِنْ رَجُـلٍ أَصيلٍ، جاءَ لِيُهَنِّئَنا، وَلَمْ يَكتَفِ بذٰلِكَ، بَلْ جاءَ بِقارورَتِهِ لِيُثبِتَ ذٰلِكَ لِجَدِّي وَيَشكُرَه...».

مكتبة
t.me/t_pdf

«ما هٰذا يا عَمِّي؟»

«ماذا تَعْني؟!»

«هٰذِهِ القارورةُ مَفتوحةٌ، وَعِلاوةً عَلى ذٰلِكَ كَتَبْتُمْ عَلَيْها مُلاحَظَة».

«ما هٰذا الهُراءُ! هَلْ مِنَ المُمكِنِ هٰذا؟ لَقَدْ أَكَلْتُمْ أَنْتُمْ نِصْفَهـا، وجِئْتُمْ إِليَّ بِنِصْفِها الآخَر؟! أَلَيْسَـتْ لَديْكُمْ حُجَّةٌ أُخْرى؟!»

نَظَرْتُ إِلى الرَّجلِ وَكَأَنَّني أَنظُرُ إِلى شَـبكةِ كُرَةِ السَّلَّةِ، والْتَفَتُّ بِرَأْسـي يَمْنةً وَيسرَةً، ثُمَّ إِلى الرَّجلِ تارَةً وَإِلى جَدِّي تارةً أُخـرى. وَإِذْ بِرَجُلٍ آخرَ يدخلُ الدُّكّانَ وفي يَدِهِ قارورةُ شوكولاتةٍ أَيْضًا، وَقالَ:

«ما هٰذا يا عَمّي؟»

أَجابَ جَدّي:

«ما الَّذي أَسـمَعُهُ مِنْكُما؟!» وَاحْتَدَّ النِّقاشُ بينَ الثلاثةِ.

أَدْرَكْتُ أَنْ لا مَهْرَبَ، فَتَقَدَّمْتُ مِنْهُمْ وَاسْتَجْمَعْتُ قِوايَ وَقُلتُ بِكُلِّ ثِقَةٍ «**أَنا فَعَلْتُ ذٰلِكَ**».

لَقَدْ أَنْهَيْتُ النِّقاشَ كَيْ لا تكْبُرَ المُشـكِلةُ. نَظَرَ جَدّي إِلَيَّ نَظـرةً حادَّةً وَكأَنَّهُ يَقولُ لـي فيها: «لِمٰاذا قُمْتِ بِهٰذا أَيَّتُها الحَمْقاءُ؟ مَنْ تُشْـبِهينَ بِتَصرُّفاتِكِ هٰذِهِ؟».

«هٰذا تَصَرُّفٌ جَيِّدٌ. أَرَدْتُ أَنْ أُدْخِلَ السُّرورَ عَلى قُلوبِهِمْ، وَكَتَبْتُ بِالصِّحَّةِ وَالهناءِ. هَلْ كانَ يَجِبُ أَنْ أَكتُبَ سِبابًا أَو شَتْمًا مَثَلًا؟».

«مٰاذا؟! هٰذا ما كانَ يَنقَصُنا... أَنْ تكتُبي سِبابًا».

لَمْ يُطِلِ التَّوبيخَ، وَلٰكِنَّهُ بَـدَأَ يُهَمهِمُ مُتذمِّرًا مِنْ تَصرُّفي:

«لا تَقومي بِأَفْعالٍ كَهٰذِهِ مَرَّةً أُخْرى».

أَجَبْتُهُ: «حَسنًا... لَنْ أُكرِّرَها».

وَعَلى هٰذِهِ الحادِثةِ أَخْرَجْتُ دَفْتري الَّذي سمَّيْتُهُ «**المَواضيعُ الحسّاسةُ الَّتي يَجِبُ عَلى الصِّغارِ الإِنْتِباهُ إِلَيْها في أَثناءِ تَواصُلِهِمْ مَــعَ الكِبار**». وكتبْتُ المادَّةَ الثّالِثَة.

المادَّةُ الثّالِثةُ:

لا تُعامِلِ الكِبارَ بِلُطفٍ.

فَهُمْ لا يَفْهَمونَ مَعنى اللُّطفِ أَبدًا.

حقِّقْ رَغَباتِهِمْ وَدَعْكَ مِنْهُم. وَلْيَأْكُلوا طَعامَهُم بِالصِّحَّةِ وَالهَناءِ.

أَوْ يَبْقى في حُلوقِهِم وَيَخْتَنِقونَ بِهِ.

هُمْ أَدْرى بِذٰلِكَ.

سَيأْتي يومٌ يَجِدونَ أَوراقًا في قواريرِ «كْريمَةِ» الشّوكولاتَةِ وقَدْ كُتِبَ عَلَيْها بِالصِّحَّةِ وَالهَناءِ.

سَيَعْرِفون قَدْرَكِ حينَئِذٍ.

عَلى الرُّفــوفِ، فَــوقَ رَفِّ «كْريمَــةِ» الشّــوكولاتَةِ، يوضَعُ الصَّابونُ وغَسولُ الشَّعْر. أَعْتَقِدُ أَنَّ هُناكَ ما يجِبُ عَليَّ الإِعْتِرافُ بِــهِ؛ أَحْيانًا عِندَما تَتَّسِــخُ يَدايَ أَفْتَحُ غِطاءَ عُبُوَّةِ غَســولِ الشَّعرِ وآخُذُ القليلَ مِنْها، ثُمَّ أَغسِــلُ يَدَيَّ بِالماءِ. وهــا أَنا أُفكِّر الآنَ، لَيسَ مِنَ اللّائِقِ أَنْ آخُــذَ وَلوِ القَليلَ مِنْ مِلْكِ غَيْري. لٰكِنَّني في كُلِّ مرَّةٍ أَفْتَحُ عُبُوَّةً جَديدةٍ، وَهٰكذا لا يَكونُ هُنــاكَ فَــرقٌ بَيْــنَ كَمِّيّاتِ الغَســولِ في العُبُوّاتِ. يا إِلٰهــي!.. حتّى في التَّصــرُّفِ الخاطِئِ أَتصرَّفُ بِالعَدْلِ. هٰذا لا يَعْني أَنَّني أُســامِحُ نَفْسي. عَلى كُلِّ حالٍ، ودونَ أَنْ أُطيــلَ في الكَلامِ، **لا أَحَدَ مَعصومٌ مِنَ الخَطَإِ.**

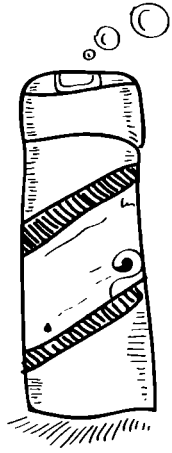

وتوجــدُ قواريــرُ الزَّيــتِ فــوقَ غَسولاتِ الشَّعرِ. وَفي القِسمِ السُّفليِّ تحتَ قواريرِ الزَّيتِ وغَسولاتِ الشَّعرِ وَالمُربَّياتِ؛ هُناكَ الزَّيْتونُ، والزَّيْتونُ مَوجودٌ في تَنَــكاتٍ مَعدِنِيَّــةٍ كبيرَةٍ

نَمْلَأُها بوساطةِ مِجرَفةٍ خاصَّة. وطبْعًا لَمْ تَكُنْ هُناكَ أَنواعٌ كَثيرةٌ مِنَ الزَّيتونِ كَما هُوَ الحالُ اليومَ في مَراكِزِ التسوُّقِ. كانَ هُناكَ نوعٌ واحِدٌ فقطْ مِنَ الزَّيتونِ. هَلْ تَتخَيَّلونَ ذٰلِكَ؟ هُناكَ 300 شَخصٍ في القَريَةِ، وكُلُّ هٰؤُلاءِ الأَشخاصِ يَتَناوَلونَ النَّوعَ ذاتَهُ مِنَ الزَّيتونِ، **شَيْءٌ غَريب!**

كَيْ تَكونَ عامِلًا مُفيدًا في دُكّانٍ ما عَلَيْكَ أَنْ تقومَ بِإِجادَةِ الكَيْلِ وَالميزانِ بِشكْلٍ جَيِّد. أَقْصِدُ بِكَلامي، إِذا كُنتَ، مَثَلًا، تُريدُ أَنْ تَزِنَ كيلوغرامًا مِنَ السُّكَّرِ فَعليْكَ أَنْ تَتأَكَّدَ مِنْ ضَبطِ الميزانِ ودِقَّتِهِ. إِنْ أَنتَ وَزَنْتَ 100 غرامٍ فائِضةً فَستُلحِقُ الضَّررَ بِميزانيَّتِك. أَمّا إِنْ وَزَنْتَها أَقَلَّ مِمّا يَجِبُ فَحينَها تَكونُ قَدْ غَبَنْتَ الزَّبونَ. لِهٰذا السَّببِ يُعتبَرُ اسْتِخدامُ الميزانِ عَمَلًا حسّاسًا لِلغايةِ، لِذا أَسْمَوْهُ «**الميزانُ الحَسّاسُ**».

الجَميعُ هُنا يشْتَرونَ البَضائِعَ بِالكيلو ـ عُمومًا ـ يطْلُبونَ كيلوغرامًا مِنَ السُّكَّرِ، كيلوَيْنِ مِنَ البُرغُلِ، نِصْفَ كيلو مِنَ الجُبْنِ، كيلو مِنَ اللَّبنِ وهٰكَذا... إِلّا

الأَخَ مُصْطَفٰى الَّذي لا يَفعــلُ هٰذا! في كُلِّ مَرَّةٍ يَأْتي يَطلُبُ 50 غرامًا مِنَ الجُبنِ، و50 غرامًا مِنَ الزَّيتونِ، وَرَغيفَ خُبزٍ... وَيطلُبُ أَيضًــا صفحةً مِنَ الجَريدةِ مَعَ الخبزِ.

أَخْبَرني جَدِّي أَنَّــه يَعيشُ وحــدَهُ، وأَنْ لَيسَ لَهُ أَحَدٌ، وأَنَّه لا يَمْلِكُ مــا يَكفي مِنَ النُّقودِ... وهُوَ لا يَعمَلُ لأَنَّهُ خَفيفُ العَقْلِ... لِهٰــذا تَجِدُهُ يَذهَبُ هُنا وهُنــاكَ وَيَعمَلُ في الحُقولِ والبَســاتينِ، ويَكْسِــبُ القَليلَ مِنَ الدَّراهِمِ.

قالَ لي جَدِّي في إِحْدى المَرّاتِ: «عِندَما يَطلُبُ مِنْكِ 50 غرامًا زِني لهُ 100 غرامٍ، وأَعْطيهِ القليلَ مِنَ الحَلاوَةِ، خُذي ثَمَنَ مُشترَياتِهِ مِنْهُ ولا تَأْخُذي ثَمنَ الحَلاوةِ».

قلتُ لَهُ حينَها: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَفعَلَ الخَيْرَ فافْعَلِ الخَيْرَ جُمْلَةً وأَعْطِهِ المُشتَرياتِ مَجّانًا».

أَجابَني جَوابًا شوَّشَ أَفْكاري: «سَيَشعُرُ بِالِاسْتِياءِ إِنْ نحنُ فَعلْنا ذٰلِكَ، وَلَنْ يَعودَ إِلَيْنا مُجدَّدًا، دَعيهِ يَدفَعُ الثَّمَنَ».

كلُّ مَرَّةٍ يَأْتي فيها الأَخُ مُصْطفٰى إِلى الدُّكّانِ تَبْدو كارِثةً بِالنِّسبةِ إِليَّ:

• الأَخُ مُصْطَفٰى فقيرٌ، وَلٰكِنْ لا يَنْبَغي أَنْ نُعامِلَهُ كَفقيرٍ.

• الأَخُ مُصْطَفٰى يطلُبُ 50 غرامًا، وَلٰكِنْ عليَّ أَنْ أَزِنَ لَهُ 100 غرامٍ، وَيَظُنُّ هُوَ أَنَّها 50 غرامًا.

• الأَخُ مُصْطَفٰى لا يطلُبُ الحَلاوةَ، وَلٰكِنْ عليَّ أَنْ أَضَعَ له قليلًا منْها، لٰكِنْ لَيسَ دائمًا. حسنًا، مَتَى عَلَيَّ أَنْ أُعْطيهِ ومَتَى علَيَّ ألّا أُعطيهِ؟!

• أنا أَعْلَمُ أَنَّ الأَخَ مُصْطَفٰى فقيرٌ، ولٰكِنّي آخُذُ مِنْهُ ثَمَنَ المُشْتَرياتِ كَيْ لا يَسْتاءَ إنْ لَمْ آخُذْ مِنْه الثَّمَنَ.

عِندَما أَلْمَحُ دُخولَ الأَخِ مُصْطَفٰى إلى الدُّكّانِ أَشْعُرُ بِارْتِباكٍ شَديدٍ، تَتجمَّدُ يدايَ ولا أَعرِفُ كيفَ أَتَصرَّف. وحينَما يَنصرِفُ أَجلِسُ عَلى صُندوقِ السُّكَّرِ وَأَتَخَيَّلُ كيفَ يَتناولُ ما اشْتَراه.

يَتجَسَّدُ الآنَ أمامَ عينيَّ جلوسُ الأَخِ مُصْطفٰى وَحْدَهُ تَحتَ شَجرةٍ ما: يَفْرُشُ الجَريدةَ عَلى الأَرضِ، يَأْكُلُ الزَّيتونَ والجُبنَ اللَّذيْنِ اشْتَراهُما، ويُشْبِعُ بَطنَهُ. أَتَصوَّرُهُ على هٰذا الحالِ ثُمَّ أَبدَأُ بِالبكاءِ، وفي اليومِ التّالي يَأْتي الأَخُ مُصْطَفٰى مِنْ جَديد.

في أَحَدِ الأَيّامِ بَيْنَما كُنْتُ جالِسةً عَلى صُندوقِ السُّكَّرِ أَبْكي، خَطَرَتْ في بالي فِكرةٌ مُدهِشةٌ: إذا كانَ روبن هود يأْخُذُ مِنَ الأَغنياءِ ويُعْطي الفُقراءَ فَهَلْ يُمكِنُني أَنْ أَفْعَلَ هٰذا أَنا أَيْضًا؟ كلُّ الإمكانِيّاتِ كانَتْ بينَ يَدَيَّ، الفقيرُ موجودٌ، ومِنَ السَّهلِ أَنْ أَجِدَ الغنِيَّ، ودَفترُ البقّالِ بينَ يديَّ...

قُلتُ في نَفْسي: **هٰذا العملُ جاهِزٌ.**

في اليــومِ التّالي جاءَ الأَخُ مُصْطَفٰــى، وَكالعادةِ طلَبَ 50 غرامًا مِنَ الزَّيْتــونِ و50 غرامًا مِنَ الجُبنِ ورَغيفَ خُبزٍ.

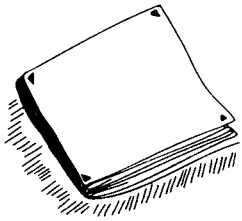

قُلتُ لَهُ: «أَخُ مُصْطَفٰى! لَقَدْ طَلَبَ مِنِّــي جَــدِّي أَنْ أُعطيكَ كيلوغرامًا مِنَ الجُبنِ وَكيلوغرامًا مِنَ الزَّيتونِ، وَيُخبِرُكَ بِأَنَّكُما تَتحاسَــبانِ فيما بعدُ». أَجابَنــي: «خيــرًا... وَهَــلِ الشَّــيخُ رَمْــزي يُوزِّعُ إِعاناتٍ؟!». كنتُ أُحِبُّ هٰذِهِ الجُملةَ كثيرًا، فَقَدْ كانَ يَأْتي أَحَدُهُم إِلى جَدّي يتَحدَّثانِ ثُمَّ يقولُ: «**نَتَحاسَبُ فيما بعدُ**». هٰذا يَعْني أَنَّهُ أَمرٌ جيِّد. لَنْ يحدُثَ ســوءٌ إِنْ قلتُهُ أَنا أَيْضًا.

السيِّدُ رَمزي غَنيٌّ جدًّا، فإِنْ كتبْتُ في دفْترِ البقّالِ كيلو مِنَ الزَّيتونِ وَكيلو مِنَ الجُبْــنِ لَنْ يُلاحِظَ هٰذا أَبدًا. هٰذا صَحيحٌ، إِذا كانَ هٰذا الرَّجلُ يَقومُ بِأَعمالِ الخَيرِ، ويُوزِّعُ الإِعاناتِ، فَلِــمَ لا يَكونُ عملُهُ الخيِّرُ هٰذا بِكيلو مِنَ الجُبنِ وكيلو مِــنَ الزَّيتونِ مِنْ طريقِ

البقّالِ؟ لَمْ أَكتـرِثْ كَثيـرًا بِالأَمـرِ، وكذٰلِكَ الأَخُ مُصْطَفٰى لَمْ يَسأَلْ، أَخَذَ الأَغْراضَ وَذَهَب.

في الأَيّامِ التّالِيةِ لَمْ يطلُبْ إِلّا الخُبزَ. لَكَمْ كُنْتُ سَعيدةً وَفَخورَةً بِنَفسـي. وبَعدَ عِشرينَ يومًا، عِندَما جاءَ لِيشْـتري الزَّيتونَ وَالجُبنَ، فَعَلْتُ الشَّيْءَ ذاتَه، أَعْطَيْتُهُ كيلو مِنَ الجُبنِ وَكيلو مِنَ الزَّيتونِ وَسَجَّلْتُهُما في حِسـابِ الشَّـيْخِ رَمزي. حَتّى إِنَّني بالَغْتُ هٰذِهِ المرَّةَ وَأَعْطَيْتُهُ كيلو مِنَ الحَلاوةِ وَسَجَّلْتُها أَيضًا. نَظَرَ الأَخُ مُصْطَفٰى مُسْتَغْرِبًا، أَنْقَذْتُ المَوقِفَ بِقَوْلي:

«إِنَّ السـيِّدَ رَمزي رُزِقَ بِحفيدٍ فَقالَ لَنا: «أَعْطوا الأَخَ مُصْطَفٰى الْحَلاوةَ أَيْضًا إِكرامًا لِهٰذِهِ المُناسَـبةِ السَّعيدة».

ابْتَسَـمَ الأَخُ مُصْطَفٰى، وابْتَسَمْتُ أَنا أَيْضًا لِأَنَّني ذَكِيَّةٌ جِدًّا.

وَفي أَحَدِ الأَيّامِ لاحَظْتُ أَنَّ جَـدِّي يَتناقَشُ مَعَ السـيِّدِ رَمزي، وَقَدْ فَتَحا دَفترَ البقّالِ (دَفترَ الدُّيونِ). رَمزي يَقولُ ما اشْتَريْتُها، وَجَدِّي يُؤَكِّدُ أَنَّه اشْتَراها، والسيِّدُ رَمزي يقولُ:

«لَمْ أَشْتَرِها مِنكَ، فَنَحْنُ نُحْضِرُ الجُبنَ وَالزَّيتونَ مِنْ مَدينَةِ بورصةَ»، وَجَدِّي يُجيبُهُ:

«يا رَمزي... لِماذا قُمْنا بِتَسجيلِها إِنْ لَمْ تَشْتَرِها أَنْتَ؟!».

كنتُ قَدْ غَضِبْتُ كثيرًا عِندَما سَمِعْتُ كَلامَ السيِّدِ رَمزي، الَّذي لا يُعجِبُـهُ الزَّيتونُ وَالجُبنُ الموْجودانِ لَدَيْنا في الـدُّكّانِ؛ لِأَنَّه غَنِيٌّ فَيَشْـتريهما مِنْ خارجِ القَريةِ. وَبيْنَما كُنتُ أَنْظُرُ إِليْهِ بِغَضبٍ لاحَظَني جَدِّي، وَعَلى الفَورِ وَجَّهَ إِليَّ السُّؤالَ التّالي:

«**هَلْ هٰذا خَطُّكِ؟**»

لَكَـمْ وَدَدْتُ لَـوْ أُجيبُهُ: «لا... إِنَّـهُ خَطُّ روبنْ هود». لٰكِنَّني اكْتَفَيْتُ بِهزِّ رَأْسي.

ما حَدَثَ بَعدَ ذٰلِكَ هُوَ كَالآتي.

«هَلْ أَنتِ كَتَبْتِ هٰذا؟»

«نَعمْ».

«هَلِ اشْـتَرى السـيِّدُ رَمزي الجُبـنَ وَالزَّيتونَ وَالحلاوَةَ أَمْ لا؟»

«لَمْ يشْترِها».

«لِماذا سَجَّلْتِها إِذًا؟»

«لِأَنَّه غنيٌّ».

«وَما لَكِ وغِناهُ أَنتِ؟ هَلْ أَنتِ وريثَتُه؟»

«لا... لَستُ وَريثَتَه. لَمْ أُسجِّلْها عَنْ رَغبةٍ طبْعًا... لَقَدْ أَعْطَيْتُ الجُبنَ والزَّيتونَ لِلأَخِ مُصْطَفى».

«أَيُّ مُصْطَفى؟»

«مُصْطَفى الفقيرُ الَّذي يَطلُبُ 50 غرامًا، 50 غرامًا دائمًا! إِنَّني أُعاني كثيرًا وَأَنا أَزِنُ له ما يُريدُ. أَعطيْتُهُ كيلو مِنْ كلٍّ مِنهُما وَذهَبَ، وَلِأَنَّ هٰذا الرَّجلَ غنيٌّ فَقَدْ سَجَّلتُهُما عَلَى حِسابِهِ. لَقَدْ فَعلْتُ الخَيرَ لِيَكْسِبَ هُوَ الثَّوابَ».

«حَسَنٌ... فَلْتَقومي بِعَمَلِ الخَيرِ لٰكِنْ مِنْ مالِكِ الخاصِّ لا مِنْ مالِ غيرِك».

«امْسَحِ المَبْلَغَ مِنْ حِسابِ السيِّدِ رَمزي وَسَجِّلْهُ في حِسابي. سَأَذْهَبُ إِلى جَدِّي القَهْوجي وَآخُذُ مِنْهُ المَبْلَغَ ثُمَّ أَدْفَعُهُ لَك». قُلتُ كَلامي هٰذا وانْطَلَقْتُ باكِيةً.

كنتُ أَعْرِفُ، منــذُ فترةٍ طَويلةٍ، أَنَّنــي أوقِعُ بَيْنَ جَدَّيَّ اللَّذيْنِ كانا يَغْضَبانِ سَريعًا.

في الأَعيادِ، مَثــلًا، كُنتُ أَقــولُ لِأَحَدِهِما: «هَلْ تُعْطيني هٰذا القدْرَ فَقَطْ! جَدِّي الآخَرُ أَعطاني أَكثرَ». وهٰكذا كانا يَزيدانِ في مَصْروفِ العيدِ.

«تَعالَيْ، عودي إِلى هُنا... واعتَذِري مِنَ الســيِّدِ رَمزي، وأَعْطي جُبْنًا وَزَيتونًا لِلأَخِ مُصْطَفٰى، لَقَدْ تَعَوَّدَ عَلى الأَمرِ، وَلا تَلْمَسي دَفترَ الدُّيونِ مَرَّةً أُخرى».

أَجَبْتُهُ: «لَنْ أَلمسَــهُ». وَأَخْرَجْــتُ دَفتري، الَّذي سَمَّيْتُهُ «**المَواضيعُ الحسّاسةُ الَّتي يَجِبُ عَلى الصِّغارِ الِانْتِباهُ إِلَيْها في أَثناءِ تَواصُلِهِمْ مَعَ الكِبار**». وَوَضَعْتُ المادَّةَ الرّابعةَ.

المادَّةُ الرّابعةُ:

لا تُعَلِّمِ الكِبارَ المُشارَكةَ.

بَيْنَما يَأْكلُ الفُقراءُ 50 غرامًا مِنَ الزَّيتونِ تَحتَ الشَّجرةِ... دَعوا الأَغنياءَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِأَجْلِ النُّقودِ.

مُرادُ الطَّويل

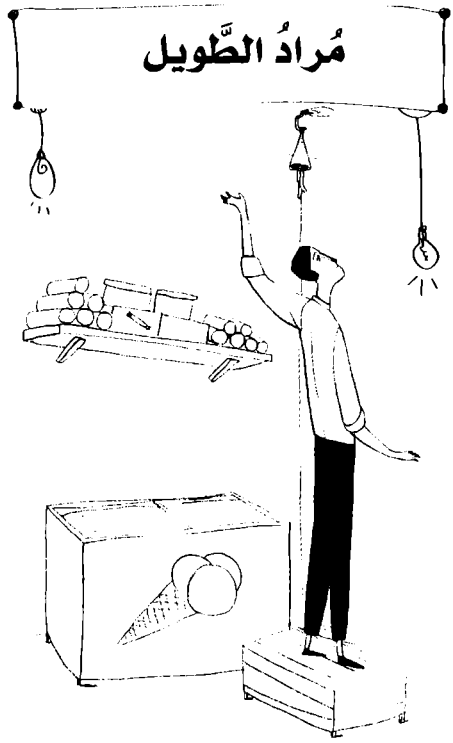

أَعترِفُ أَنَّ مَشروعَ المِياهِ المَعدِنِيَّةِ بِطَعمِ الصّودا لَمْ يُثْمِرْ نَجاحًا، لٰكِنَّ أَمْرَ المَشروباتِ، في فَصلِ الصَّيفِ، كانَ يَسيرُ بِشكلٍ جيِّد. لٰكِنِ الأَهَمُّ في الأَمرِ هُوَ أَنَّ القُنبُلَةَ كانتْ تَنْفَجِرُ عِندَما يُفْتَتَحُ مَوسِمُ **المُثَلَّجاتِ**. يَرفَعُ جَدّي المِدْفأَةَ الَّتي يَضَعُها في فَصلِ الشِّتاءِ، وَيَضعُ مكانَها ثَلّاجةَ مُثلَّجاتٍ كَبيرَةً، ثُمَّ يُرتِّبُ الأَقْماعَ عَلى جانبِ الثَّلّاجةِ ويُحْضِرُ المُثلَّجاتِ بِطَعْمِ الشّوكولاتةِ والقِشْدَة.

صَحيحٌ أَنَّ المَـكانَ قَدْ يَكـونُ دُكّانَ البِقالَةِ في القَريَةِ، ولٰكِنْ إِنِ اضطُرَّ الأَمْرُ يُمكِنُ أَنْ يُصبِحَ البقّالُ بائِعَ مُثلَّجاتٍ أَيْضًا.

ذاعَتِ الجُملَةُ السِّـحريَّةُ بينَ الأَطفالِ في اليومِ الَّذي وَصَلَتْ فيهِ المُثلَّجاتُ إِلى الدُّكّانِ...

«**لَقَدْ أَحضَرَ البَقّالُ المثلَّجاااااااات...**».

كانَ الـدُّكانُ يَمْتلِئُ عَلـى الفَـوْرِ، وكُنّا نُعطي الجَميعَ مُثلَّجاتٍ مُشـكَّلةً (بِنَوْعيْها). لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُ تَناوُلَ الأَولادِ لِلمثلَّجاتِ بِجُنون. لٰكِنَّ شـعورَكَ أَنْ تَكونَ في القِسـمِ الخَلْفِيِّ لِطاوِلَةِ البَقّالِ شُـعورٌ لا يوصَفُ. بَعـدَ أَنْ أَمْلأَ القِمْـعَ بِالمُثلَّجـاتِ أُناوِلُه للصَّغيرِ وَأَسْـتَلِمُ ثمنَهُ، ولا أَنْسـى تَنبيهَهُ بِضرورةِ شُـربِ الماءِ «اذْهبْ واشـرَبِ الماءَ، لا تَنْسَ شُربَ الماءِ». وَكُنتُ مَعَ ذٰلِكَ أَتذَمَّرُ في داخِلي: «يا لَهُ مِن أمرٍ غَريبٍ! هَلْ نحنُ في دُكّانٍ أو في دارِ رِعايةٍ؟ أَمْ أَنَّني أُمٌّ؟ لِماذا أُنبِّهُهُم هٰكذا؟!».

في الأُسـبوعِ الأَوَّلِ كانوا يَتَناوَلـونَ الكَثيرَ مِنَ

المثلَّجاتِ، وَفيما بعدُ قلَّ توافُدُهُم إلى الدُّكّانِ! أَظنُّ أَنَّهُم شَبِعوا مِنْها.

كانتْ ثَلّاجةُ المثلَّجاتِ تعمَلُ بِالكَهرَباءِ، وهٰذا يَعني أَنَّ انقِطاعَ التيّارِ الكَهرَبائيِّ، لِمدَّةِ ساعتَيْنِ فقطْ، سَيُذيبُ المثلَّجاتِ وتَخْتَفي ولَنْ يَبقى لها أَثر. لِهٰذا السَّببِ كانَ انْقِطاعُ الكَهرباءِ، الَّذي يحدُثُ في الصَّيفِ، يُغضِبُ جَدِّي إلى درجةٍ كبيرةٍ. طبعُهُ في الأَصلِ عَصَبِيٌّ يَبدو وكأَنَّه يبحَثُ عنْ شَيءٍ يُغضِبُهُ طَوالَ اليومِ، فإِنْ حَدَثَ وانقطَعَ التيّارُ الكهربائيُّ كانَ يَتحوَّلُ إلى قُنبُلةٍ موقَّتةٍ.

ما إِنْ تَنْقَطِعُ الكهرَباءُ حتّى يمْلَأَ جَدِّي سَيّارتَهُ بِعُلَبِ المُثلَّجاتِ وينطَلِقَ إلى أَقربِ مِنْطَقَةٍ حيثُ يضَعُ المثلَّجاتِ في إِحْدى الثلّاجاتِ فيها ويَنْتَظِرُ هُناكَ إلى أَنْ يَعودَ التيّارُ. وَعِندما يعودُ التيّارُ نَتَّصِلُ بِجَدِّي في المَكانِ المَوجودِ فيهِ وَنُخْبِرُهُ بِأَنْ يعودَ. يَطْغى القَلَقُ عَلى جَدِّي في هٰذِهِ الأَوقاتِ. يَعْتَريني الحُزنُ لِما يُصيبُ جَدِّي، وَأَحْيانًا يَخطُرُ في بالي أَنْ أَذْهَبَ إلى جميعِ أَولادِ القَريةِ وَأَقولَ لَهُم: «انْظُروا

إلى ما يُعانيهِ هٰذا الرَّجلُ مُقابِلَ إسعادِكُم بِالقليلِ مِنَ المُثلَّجاتِ الَّتــي تَرغَبونَ فيها، هَيّا اذْهَبوا وَاشْــتَروا المثلَّجــاتِ وَقَبِّلوا يَدَيَّ جَــدِّي». وَطَبْعًا لا يُمكِنُني القيامُ بذٰلــك فالزَّبونُ مُحِــقٌّ دائمًا. يا لَــهُ مِن أَمرٍ غريبٍ! إنَّه على حقٍّ دائمًا!.

في أَحَدِ أَيّــامِ الصَّيفِ اصْطَحَبَنــي والِدايَ إلى مَدينةِ المَلاهي. مَنَحاني يومَها فُرصةَ اللَّعبِ بِثلاثِ ألعابٍ فقطْ. لَكَمْ أَغضَبُ مِنْ تَصرُّفاتِ البالِغينَ ومِنْ قوانينِ التَّقْييدِ هٰذِهِ. إنَّني آتي مــرَّةً واحِدةً إلى هُنا، فَدَعاني أَســتمْتِعُ بِكلِّ ما أَرغَبُ فيهِ مِنْ أَلعابٍ! ما هٰذا التَّقْييدُ؟ ثلاثُ أَلْعابٍ فقط؟!

رَكِبْتُ السَّــيّاراتِ، وأُرْجوحَةَ ســفينةِ نوحٍ عليه السلام، وَلَمْ أُرِدْ لَعِبَ اللُّعْبَةِ الثّالِثة. لَيْسَ لِأَنَّني غَضِبْتُ، بَلْ لِأَنَّني لَمْ أُرِدْ فَحَســبُ. بِما أَنَّهُما حَــدَّدا لي ثلاثَ ألعابٍ كَحَدٍّ أَقْصى، تَرَكْتُ الثّالِثةَ. أُريدُ أَنْ أُظهِرَ لَهُما أَنَّني أكرمُ مِنهما. كُنتُ أُحــاولُ أَنْ أُعْطي أَبي وَأُمّي درسًا في الإِنســانِيَّة. لٰكِنَّهما لم يَكْتَرِثا حتّى، إِذْ ما

كانَ جَوابُهُما إلَّا أَنْ قالا: حَسَنًا، إنْ كانتْ هٰذِهِ رَغبتَكِ لا بأسَ إذًا. وَخَرَجْنا.

هُناكَ عَرضٌ وَليسَ هُناكَ أَيُّ إِصرارٍ! يا إلٰهي! أَظُنُّ أَنَّني ابنةُ أَقلِّ العائِلاتِ إصرارًا في العالَم.

قالَتْ أُمِّي: «لِنَشْترِ بَعضَ المُثلَّجاتِ»، وعِندَما سألْتُها: «كَمْ كُرةً مِنْ حَقِّي أَنْ آكُلَ؟» لَمْ تَفْهَمْ قَصْدي طبْعًا. بائعُ المثلَّجاتِ هُوَ بائعُ مُثلَّجاتِ مَرْعَش (نوعٌ مِنْ أَفخَرِ أَنْواعِ المثلَّجاتِ في تُرْكِيا). اشْتَرَيْنا مثلَّجاتِ مَرْعَشٍ مِنْ رَجُلٍ بورصويٍّ يَبعُدُ عَنْ مَدينةِ قَهْرمانَ مَرْعَشَ ما يُقارِبُ 900كم. يَمُدُّ الرَّجلُ قِمْعَ المثلَّجاتِ بِعَصًا معدِنِيَّةٍ طويلةٍ خاصَّةٍ بِالمُثلَّجاتِ، ويضْرِبُها بِجرسٍ مُعلَّقٍ في الأَعْلى، تُحاوِلُ أَنْتَ أَخْذَهُ لٰكِنَّكَ تَعْجَزُ، فَيَمُدَّ الرَّجُلُ القِمْعَ مُجدَّدًا فَتأْخُذُهُ في هٰذِهِ المَرَّةِ وَلٰكِنْ فارِغًا، إذْ يَبقى القِمعُ المَليءُ مَعَ البائِعِ، فَيَبدو وكَأَنَّه يَقومُ بِعرضِ مُهرِّجٍ يَعتمِرُ قُبَّعتَهُ القُرَوِيَّةَ، وَيَرْتَدي سُترةً ومَلابِسَ فُلْكلورِيَّة.

قُلتُ لَهُمـا: «إِنَّي أُريدُ أَنْ أُشـاهِدَ هٰـذا الرَّجلَ قليلًا».

أَجابَتْني أُمِّي: «هيّا يا ابْنَتي لِنُغادِرِ المَكانَ وَأَنتِ تَتَناوَلينَ المثلَّجاتِ لِتُشـاهديهِ فـي مدينَةِ الألعابِ الكَبيـرةِ هٰـذِهِ؟ تَعالَـيْ وانْظُـري، هُنـاكَ المَرايا المُضحِكةُ، هيّا تَعالَيْ نُشاهِدُها.

لَقدْ لَبَّيْتُ كُلَّ رَغباتِهِمـا لِأَنَّهُما والِدايَ لا أكثرَ. كانَ عليَّ أَنْ أَقِفَ أَمامَ المَرايا غَيْرِ المُضحِكةِ وَأقولَ ضاحِكةً: «يـا إلٰهي كمْ أَصبَحـتُ مضحِكةً». فعلْتُ ذٰلِكَ حقًّا... وعُدْنا.

في الطَّريقِ... جاءَتْني فكرةٌ مُدْهِشـةٌ: سَـنبيعُ المثلَّجاتِ بِهٰذِهِ الطَّريقَةِ في جَذْبِ الاهتِمامِ الشَّديدِ، فَيَأْتـي الأَولادُ، كمـا دَفعَتْهُم حماسَـتُهم في اليومِ الأَوَّلِ، وَيَشْتَرونَ المثلَّجاتِ. سيَزْدادُ البيعُ ونَكسَبُ الكَثيرَ، وهٰكذا نَستطيعُ تَوْسِعةَ الدُّكان.

شـرَعْتُ في تَطبيقِ خُطَّتـي الجَديـدةِ بِمُجَرَّدِ عَوْدَتي. وَجَدْتُ قُبَّعةً لِجَدِّي، وَسُترةً. وكنتُ نشرتُ الفَوْضى في خِزانَةِ جَدَّتي إلى أَنْ وَجَدْتُها. ليَكُنْ...

كُنتُ بِحاجَةٍ إِلى الجَرسِ أَيْضًـا، وَبِالطَّبْعِ كنتُ أَعْرِفُ تَمامًـا أَيْنَ أَجِـدُه. كانَ لِجَدَّتـي خِرافٌ في الماضي، وكانَـتْ قدْ عَلَّقَـتْ عَلى رِقـابِ بَعضِها أَجْراسًا. لَقَدْ باعوا الخِرافَ لٰكِنَّني أَظُنُّ أَنَّهُمُ احْتَفَظوا بِالأَجْراسِ. دَخَلْتُ الحَظيرةَ الَّتي كانوا يَزرُبونَ فيها الحَيواناتِ. كانَتْ مُظلِمةً جِـدًّا وَتَفوحُ مِنْها الرَّوائِحُ المُنفِّرةُ، لِذٰلِكَ أَخَذْتُ مَعي المِصباحَ اليَدوِيَّ. كانَتِ الرّائحَةُ والعَتْمَةُ شَـديدَتَيْنِ لٰكِنَّني بِحاجَةٍ ماسَّةٍ إِلى جَـرَسٍ. بَحَثْتُ عَنِ الأَجْـراسِ وَوَجَدْتُها. غَسَـلْتُ واحِدًا مِنْها وَرَبَطْتُ طَرَفَهُ بِشَـريطٍ، ثُـمَّ عَلَّقْتُهُ عَلى ثلّاجَةِ المُثلَّجاتِ. وكنتُ ذكرْتُ مِـنْ قبلُ أَنَّنا نضعُ المِدفأةَ مـكانَ الثَّلّاجةِ فـي الشِّـتاءِ، وتُرْبَطُ عَلى السَّـقْفِ أَنابيبُ المِدْفأَةِ. كانَ عليَّ أَنْ أُعَلِّقَ الجَرَسَ بِالمِسْمارِ المُثَبَّتِ في السَّـقْفِ. لَمْ تسمَحْ لي قامَتي بِذٰلِكَ، فَقَرَّرْتُ أَنْ أَطْلُبَ المُساعدةَ مِنْ أَوَّلِ شَخْصٍ يدخُلُ الدُّكّان.

كانَتِ **الخالةُ رُقيَّةُ الصَّغيرةُ** أَوَّلَ مَنْ دَخلَ الدُّكّان. كانَتْ قَصيرةَ القامةِ حَتّى إِنَّها تَبْدو أَقصرَ منِّي، وَلِهٰذا

السـببِ كانوا يَدْعونها رُقيَّةَ الصَّغيرة. طبْعًا لَمْ يَكُنْ هُناكَ رُقيَّةٌ أطولُ مِنْها، وَلِأَنَّ الخالةَ رُقيَّةَ هِيَ الوحيدةُ في القَريَةِ فَقَدْ لَقَّبُوها بِالصَّغيرةِ لِشـدَّةِ قِصرِ قامتِها. وَبَيْنَما كُنْتُ أَنْدُبُ حَظِّي السيِّئَ كانَ الشَّخصَ الثَّاني الَّذي دَخَلَ الـدُّكانَ هُوَ مُرادُ الطَّويـلُ. مُرادُ الطَّويلُ كانَ طويلًا جدًّا، حتّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَحتاجُ إِلى سُـلَّمٍ لِهٰذا العَمَلِ.

صَعِدَ عَلى صُندوقِ قواريـرِ المِياهِ الغازِيَّةِ وَعلَّقَ الجَرَسَ عَلـى الفَورِ، ثُـمَّ نَقَرَ الجَـرَسَ بِقبضةِ يَدِهِ فَصُعِقْتُ... مَعَ ذٰلِكَ شَكرتُهُ. قالَ:

«أَنا ذاهِبٌ إِلى مدينةِ بورصةَ لِأُصبِحَ لاعِبَ كُرَةِ سَلَّةٍ، وَعِنْدَما أُصبِحُ مُحْتَرِفًا سَأَعودُ إِلى القَريَةِ».

«هٰذا جَيِّدٌ، أَتَمنّى لَكَ التَّوفيقَ، ستُصْبِحُ بِالتَّأكيدِ، وَهَلْ يُمْكِنُهُم أَنْ يَجِدوا مَنْ هُوَ أَطولُ مِنْكَ؟ أَلا تَرى أَنَّكَ تَسـتطيعُ تَثْبيتَ الجَرَسِ عَلى السَّـقْفِ؟ ماذا يُريدونَ أَكثرَ مِن ذٰلِكَ...».

ثُمَّ جاءَ جَدِّي وَرأى الجَرَسَ مُعلَّقًا في السَّقْفِ.

فيما بَعْدُ حَدَثَ التّالي:

«ما هٰذا؟».

«جَرَسٌ».

«جَرَسُ ماذا؟!»

«جَرَسُ الخِرافِ».

«وَلِماذا هُوَ هُنا؟»

«جَدِّي... خُـذِ اعْتَمِرْ هٰذِهِ القُبَّعَـةَ، والبَسْ هٰذِهِ السُّتْرةَ، هَيّا...»

«قُبَّعةُ ماذا وَسُترةُ ماذا يا ابْنَتي؟ وَلِمَ هٰذا الجَرَسُ هُنا؟»

«انْظُرْ، سَوفَ أُريكَ ذٰلِك!، لقدْ رأيتُهُ في بورصةَ. بائِعُ مثلَّجاتِ مَرْعَشَ يبيعُ المثلَّجاتِ بِهٰذِهِ الطَّريقةِ. يضرِبُ بِعصاهُ الجَرَسَ يُقدِّمُ قِمْعًـا فارِغًا. إِنَّهُ عَمَلٌ مُمْتِعٌ جِدًّا. ستَزدادُ مَبيعاتُنا بِشكلٍ عَجيبٍ!».

«قُلْتِ إِنَّهُ عَمَلُ بائِعِ المُثلَّجاتِ، وَهَلْ نَحنُ بائِعو مُثلَّجات؟»

«نَعَمْ، نحنُ نبيعُ المُثلَّجاتِ، أَلَسْنَا كَذٰلِك؟»

«الْتَفِتي إلى أَعمالِكِ، انْظُري، لَقدْ فرغَتْ ثلَّاجةُ المِياهِ الغازِيَّةِ، هيّا املَئيها».

بَيْنَما كِدْتُ أُجَنُّ مِنَ الغَضَـــبِ أَخْرَجْتُ دَفْتَري، الَّذي سمَّيْتُهُ «**المَواضيعُ الحسّاســةُ الَّتي يَجِبُ عَلى الصِّغارِ الِانْتِباهُ إِلَيْها في أَثناءِ تَواصُلِهِمْ مَعَ الكِبار**»، وَكَتَبْتُ المادَّةَ الخامِسَةَ.

المادَّةُ الخامِسَةُ:

إنَّ البالِغينَ يُغيِّرونَ الموضوعَ بِهَدَفِ إبعادِ الأَطفالِ عَنْهُ.

اقْتَنِعْ وَلا تُطِلِ الكَلامَ...

فَلَنْ تَستطيعَ أَنْ تُناقِشَهُم...

مَدَّ جَدِّي يَدَهُ إلى الجَرَسِ لِينْزَعَهُ، لٰكِنْ كانَ مِنَ المُستحيلِ أَنْ يَحُلَّ عقدَتَه. فَقالَ:

«كيفَ علَّقْتِ الجَرَسَ في الأَعْلَى؟»

«أَنا لَمْ أُعَلِّقْهُ، إنَّ مُرادَ الطَّويلَ هُوَ مَنْ عَلَّقه».

«نادِهِ لِيُنْزِلَه».

«لَقَدْ ذَهَبَ، ذَهَبَ لِيُصْبِحَ لاعِبَ كُرَةِ سَلَّةٍ. لَنْ يَعودَ، فَلْيَبْقَ الجَرَسُ في مكانِه».

غَضِبَ جَدِّي عَلَيَّ غَضَبًا شَديدًا. كانَ يُتمتِمُ وَأَنا أَخْرُجُ مِنَ الدُّكّان.

«وهَلِ الدُّكّانُ كَنيسة؟ لَقَدْ عَلَّقَتْ في السَّقْفِ جَرَسًا!! أَسْتَغْفِرُ الله».

كنتُ سَأَدْخُلُ عَلى الفَورِ وَأَقولُ لَهُ: «وَما عَلاقَةُ مُثلَّجاتِ مَرْعَشَ بِالكَنيسة؟» لٰكنّي قَرَّرتُ، قَبلَ خَمْسِ دَقائِقَ، أَنْ لا أُطيلَ الحَديثَ معَهُ وَكَتَبْتُ قَراري في دَفْتَري.

في ذٰلِك الصَّيفِ، وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَضَعَ جَدِّي في ثلّاجةِ المُثلَّجاتِ عُلبةً جَديدَةً أُخْرى، تَحوي مُثلَّجاتٍ مُغلَّفةً، أَعْني تِلْكَ المُثلَّجاتِ الَّتي نأْكُلُها في يومِنا هٰذا... كانَتِ المَرَّةَ الأُولى الَّتي أَراها فيها. عِندَما رأَيْتُها قلتُ لِنَفْسي: «**كيفَ لَمْ أُفَكِّرْ بِهٰذا؟**»

نِهايةُ مُعاناةِ مثلَّجاتِ القَمْع!

كانَتْ يدايَ تَتلطَّخانِ لاإرادِيًّا بِالمُثلَّجاتِ في أَثْناءِ تَعبئةِ القَمْعِ بِها. إضافةً إلى ذٰلِك كانَ الأَولادُ دائِمًا في حَيْرةٍ: أُريدُ بِالڤانيلْيا لا بِالشّوكولاتةِ، أَنا أريدُهُ بِكُلِّ الأَنواعِ، أمّا أَنا فَأُريدُهُ بِالڤانيليا... هٰكذا أَفضلُ، كُلُّ شَيْءٍ جاهِزٌ، لِيحيَ العَقلُ الَّذي ابْتَكَرَهُ...

كنتُ ذَكرتُ سابِقًا أَنَّ جَدِّي، عِندَما يَذهبُ إِلى المَسْجِدِ، يَتْرُكُني وَحْدي في الدُّكّانِ. كنتُ أُديرُ العَمَلَ في غِيابِهِ، وَحينَما يَعودُ يُمكِنُني الخُروجُ. كنتُ بَيْنَ الحينِ والآخرِ آخُذُ اسْتِراحةً بَيْنَما أَراهُ عائِدًا لأَنَّ المَسْجِدَ كانَ مُقابِلَ الدُّكّان.

لاحَ لي جَدِّي مِنْ بَعيدٍ ذاكَ اليومَ، كانَ قادِمًا، وكانَ بَقِيَ القليلُ عَلى وَقْتِ الاِسْتِراحَة. أَخَذْتُ قِطعةً مِنَ المُثلَّجاتِ ونَزَعْتُ غِلافَها... كانَتْ غايَتي أَنْ

أَتجوَّلَ فـي القَريَـةِ وَأَنـا آكُلُ المُثلَّجـاتِ فَيراني الأَطفالُ، وَيشْتَهونَ، حينَها يَأْتُونَ إِلى الدُّكّانِ لِشراءِ المُثلَّجاتِ. ما أَردْتُ قولَهُ هُوَ إِنَّني أَعمَلُ في ساعاتِ الاسْتراحةِ أَيْضًا.

لَعِقْـتُ لَعْقَةً مِنَ المُثلَّجـاتِ، وكنتُ أَرى جدِّي وهُوَ يَتَّجِهُ نَحْوي، وَإِذْ بِهِ يَلتَفِتُ ويَعودُ أَدْراجَه.

مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنَّكَ لا تَسْـتَطيعُ الصُّراخَ قائِلًا: «ما الَّذي حَدَثَ؟ إِلى أَينَ أَنتَ ذاهِبٌ؟ أَإِلى المَسْـجِدِ مُجدَّدًا؟ لَقَدِ انْتَهَتِ الصَّلاةُ!». اضطُرِرْتُ إِلى البقاءِ خَلْفَ طاوِلَةِ البَقَّـالِ. جَيِّدٌ... أَجلِـسُ عَلى أَريكَةِ جَدِّي وَأَتَّكِئُ وَأَسْتَمْتِعُ بِتناوُلِ المُثلَّجاتِ. لٰكِنْ لَيْسَ هٰذا ما حَدَثَ.

جاءَ الزَّبائِنُ تِباعًا. كانَ عليَّ أَنْ أَضَعَ المُثلَّجاتِ مِن يَدي، لٰكِنّي لَمْ أَعْرِفْ أَيْـنَ أَضَعُها. نَظَرْتُ يَمْنةً وَيَسْـرةً. إِنَّها ليستْ قِطعةَ شـوكولاتَةٍ لِأُعيدَها إِلى غِلافِها وَأَضعَها جانِبًا...

دَخَلَ ثَلاثَـةُ زبائِنَ آخريـنَ إِلى الـدُّكّان. عَددُ

الزَّبائِنِ الآنَ في الدُّكّانِ عَشْرةٌ عَلى الأَقَلِّ، وَأَنا أَحمِلُ المُثلَّجاتِ في يَدي أَنْظُرُ إِليهِم. شَعرْتُ بِتوتُّرٍ وارتبَكْتُ. جَمَدَتْ يَداي. كانَ أَشَدَّ ازدِحامٍ أراهُ حَتّى هٰذا اليوم. وَضعْتُ المُثلَّجاتِ في غِلافِها وَأَدخَلْتُها في جَيْبي. لَبَّيْتُ طَلباتِ الزَّبائِنِ. بَدَتْ مُشتَرياتُهُم كثيرةً لا تَنْتَهي! كانَ جَدّي في مِثْلِ هٰذِهِ الأَحوالِ يقولُ بعدَ ذَهابِهِم: **وَكَأَنَّنا أُصِبْنا بِمَجاعةٍ**. إِلّا أَنَّني كنتُ جريئةً أَكثرَ مِنْ جَدّي فَقُلْتُ هٰذا لَهُم:

«ما أَكثرَ الأَشياءَ الَّتي اشتريْتُموها! هلْ هُناكَ مَجاعَةٌ؟» ضَحِكوا وَاسْتَمرّوا في الشِّراءِ. يَخرجُ واحدٌ فَيَدْخُلُ زَبونٌ آخرُ مَكانَه.

كنتُ أَتَذمَّرُ في داخِلي: «أَينَ أَنْتَ يا جَدّي؟ إِلى أَينَ ذَهبْتَ؟ ماذا تَفعلُ في المَسْجِدِ؟ هَلْ أَنْتَ إِمامٌ؟ لا، أَنتَ بقّالٌ... هَيّا عُدْ عَلى رَأْسِ عَمَلِكَ». اخْتَنَقْتُ وَتَعِبْتُ. الجوُّ حارٌّ وَنحنُ حَوالى عَشْرةِ أَشخاصٍ داخِلَ هٰذا الدُّكانِ الصَّغير... ذابَتِ المُثلَّجاتُ في جَيْبي.. لا أَسْتَطيعُ إِخْراجَها... لَقَدْ ذابَتْ وَلَصِقَتْ في قُماشِ جَيْبي. كانَ وَضْعي يَدْعو إِلى الإِزْدِراء.

وَأَخيرًا، بعدَ نِصفِ ســاعةٍ، غادَرَ آخرُ الزّبائنِ. دخلَ جَدّي بِخُروجِ آخرِ زَبون. كنتُ أتصبَّبُ عَرَقًا، وكانَتِ المُثلَّجاتُ تَقطُرُ مِنْ بِنْطالي.

عَقَدَ جَدّي ما بينَ حاجِبَيْهِ وَنَظَرَ إليَّ مِنْ رَأْســي حتّى أَخمَصِ قَدَمي. كانَ يَهتــمُّ بِالمَنْظَرِ كَثيرًا. وكُنّا تَحَدَّثْنا في البِدايَةِ حينَما قالَ لــي: «عليْكِ الاِعْتِناءُ بِنظافَةِ ملابِسِكِ». أَجَبْتُهُ حينَها: «حَسَنًا».

«ما هٰذا الحالُ؟ لِماذا تَمْلَئينَ جَيْبَكِ بِالمُثلَّجاتِ؟ يا لَكِ مِنْ فَتاة!»

لَمْ أَسْــتطِعْ أَنْ أُوضِحَ الأَمْرَ. غَضِبْتُ وَقُلتُ: «ما كانَ عليْكَ أَنْ تتأَخَّرَ!.. ماذا كُنتَ تَفْعَلُ في المَسْجِدِ مُنذُ ساعةٍ؟!

يا إلٰهي! سَــيَفهَمُ مِنْ كَلامي هٰــذا أَنَّني ملَأْتُ جُيوبي بِالمُثلَّجاتِ بِســببِ تأخُّرِهِ! هٰذا غيرُ مَنطِقِيٍّ. **أوفْ!**

في الحَقيقةِ كُنتُ «بَطلةً» ضَحَّتْ بِبِنطالِها لِأَجْلِ تَقديمِ خِدمةٍ أَفْضلَ لِلزَّبائــنِ. لٰكِنَّني في عينِ جَدّي

فتاةٌ مُشاكِسَةٌ مَلأَتْ جُيوبَها بِالمُثلَّجات. خَرَجْتُ مِنَ الدُّكّانِ غَضْبى وانْطلقْتُ إِلى البَيتِ. قابلْتُ أُمِّي في حَديقةِ المَنزِلِ. قالَتْ: «ما هٰذا الحالُ؟!».

كُنتُ سَأَبْكي لَوْ سَأَلني شَخصٌ آخرُ. شَدَدْتُ عَلى أَسْناني. خَرَجَتْ جَدَّتي مِنَ البابِ الجانِبِيِّ:

«انْظُري إِلى حالتِها هٰذِهِ! وَتُريدُ أَنْ تَكونَ عامِلَةً عِنْدَ بَقّال. إِنَّها غارِقةٌ في الوَسخِ... احْذَري أَنْ يَراكِ جَدُّكِ».

لَمْ أَسْتطِعِ التَّحمُّلَ أَكثرَ. أَجْهَشْتُ بِالبكاءِ. دَخَلْتُ البيتَ وَأَنا أَبْكي، وَهُما يَقولانِ: «بِما أَنَّها تَبْكي فَمِنَ المُؤكَّدِ أَنَّها مُذنِبَة».

ماذا تَقْصدان: «تَبْكي لِأَنَّها مُذنِبَة؟» بَيْنَما مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يكونَ الأمرُ «إِنَّها تَبْكي لِأَنَّها عَديمةُ الحيلةِ، تَبْكي لِأَنَّها حَزينَةٌ، تَبكي لأَنَّ لَديْها مُشكِلة». ماذا يَعْني: «تَبْكي لِأَنَّها مُذنِبَة؟» لَقَدْ وُلِدْتُ وَسْطَ أَظلَمِ عائِلةٍ في العالَم.

خرجْتُ مِنَ البابِ مُسرِعةً وَعُدْتُ أَدْراجي عَبْرَ

الطَّريقِ ذاتِــه. دَخَلْتُ الــدُّكّانَ وأَخرَجْتُ دَفْتري مِنْ تَحــتِ الطّاوِلةِ في غَضَــبٍ، دَفْتري الَّــذي عَنْوَنْتُهُ: «**المَواضيعُ الحسّاسةُ الَّتي يَجِبُ عَلى الصِّغارِ الإِنْتِباهُ إِلَيْها في أَثناءِ تَواصُلِهِمْ مَعَ الكِبار**». وَوَضَعْتُ المادَّةَ السّادِسة.

المادَّةُ السّادِسةُ:

«إِنَّ فِئةَ البالِغينَ الَّذينَ يَفْتَخِرونَ بِذَكائِهِمْ،
هُمْ في الحَقيقةِ لا يُشَغِّلونَ عُقولَهُمْ كَثيرًا.
إِنَّهُم يَهْتَمّونَ بِظاهِرِ الأُمورِ في الأَغْلَب،
وَلا يَنْظُرونَ إِلى الأَسْبابِ المَخْفِيَّةِ وراءَها.
لِهٰذا السَّببِ يُخْطِئونَ كثيرًا. لا تُحاوِلْ أَنْ توضِحَ لَهُمُ
الحَقيقَةَ، لَنْ يَفْهَموا.
كَما أَنَّهُمْ يَعشَقونَ الاتِّهامَ.
وَكَما أَنَّني كَرِهْتُ المُثلَّجاتِ المُغلَّفة...»

في اليومِ التّالي ذهبْتُ إلى الـدُّكانِ مُجدَّدًا. في الواقِعِ تَحدُثُ أُمورٌ كَهٰذِهِ عادةً، وَلَيْسَ هُناكَ شَـيْءٌ كاستِقالةٍ مِنْ عَملٍ وَغيرِه، رَجَعتُ عَلى رَأْسِ عَمَلي رَغمَ أَنْفي.

كَثيرًا ما كانَ يَحـدُثُ انقِطاعٌ كَهْرَبائِـيٌّ، لِهٰذا كُنّا نَبيعُ كلَّ المُسـتلزَماتِ الَّتي يَجِبُ أَنْ تُبـاعَ عِنْدَ بائِعِ أَدواتٍ كَهرَبائِيَّةٍ، كَالقابِـسِ، والمُوصِّلِ، والمِصباحِ، وغيْرِها. أمّا أَكثرُ ما يُباعُ فَكانَ الشَّمْعَ، فَفي الأَيّامِ الَّتي تَنْقَطِعُ فيها الكَهرَباءُ يَكونُ الشَّمعُ أَكثرَ المَبيعات.

في أَحَدِ الأَيّـامِ انْقَطَعَ التيّـارُ الكَهرَبائيّ. وَضَعَ جَدّي عُلَبَ المُثلَّجاتِ في السِّـيّارةِ وَانْطَلَقَ، فَبَقِيَتْ

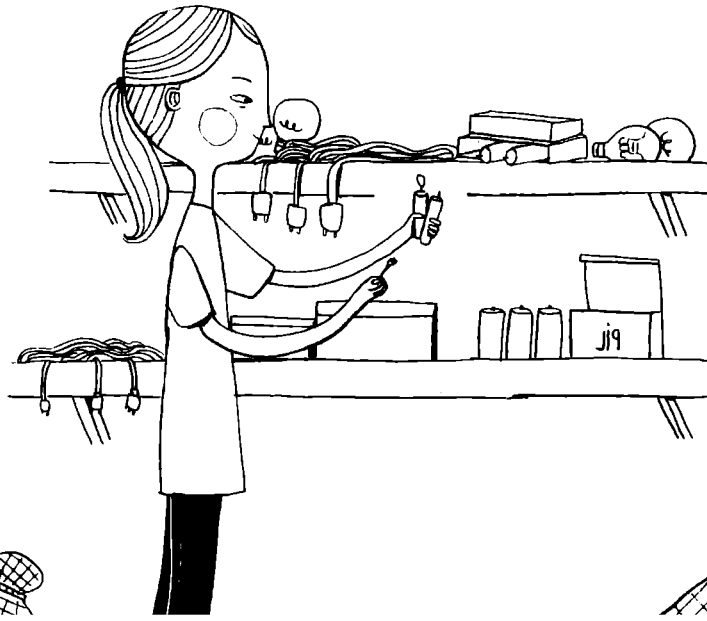

أَعمالُ الدُّكّانِ عليَّ. كانَ المساءُ عَلى وَشْكِ الحُلولِ، وَهٰذا يَعْني:

أَنَّ لَيْلةً مُظْلِمَةً تَنْتَظِرُنا، وأَنَّ الجَميعَ سَيَبْقى في الظُّلْمَةِ، وَكُلُّ مَنْ لا يُريدُ البَقاءَ في الظُّلمَةِ سَيَشْتري الشَّمْع. حَسَـنًا! أَينَ يُباعُ الشَّمعُ؟ لَدى البَقّالِ طبْعًا. مَنِ البَقّالُ؟ نَحنُ. مَنْ صاحِبُ الشَّـمعِ؟ نَحنُ أَيضًا. إِذًا، هَلْ يُمْكِنُنا بَيعُ الشَّـمعِ بِالسِّـعْرِ الَّذي نُريدُهُ؟ بِالتَّأْكيدِ يُمْكِنُنا. لِهٰذا قُمْتُ عَلى الفَورِ بِرَفْعِ أَسْـعارِ الشَّـمعِ، وَدَعَوْتُ رَبِّي أَنْ لا تَعودَ الكَهرَبـاءُ لِمُدَّةٍ طَويلَة. إِنْ بِعْـتُ عددًا كبيرًا مِنَ الشَّـمعِ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ سَنكْسِـبُ الكَثيـرَ. فـي النِّهايـةِ هُناكَ ما يُسـمّى «الاِسْتِفادَةُ مِنْ أَوقاتِ الأَزَماتِ».

أَلْصَقْتُ السِّـعْرَ الجَديـدَ عَلى عُلَبِ الشَّـمعِ، وكَتَبْتُ عَلى إِحْدى العُلَبِ: «اشْتَرِ أَجْوَدَ أَنْواعِ الشَّمعِ كَيْ لا تَبْقى في الظُّلْمَة». ثُمَّ أَشْـعَلْتُ شَمْعَتَيْنِ، لِأَنَّ المُهِمَّ أَنْ يَكونَ الشَّـمعُ مُشْـتَعِلًا. أَحْرَقْتُ شَمْعَتَيْنِ لِيزْدادَ البَيعُ وَلِشَـدِّ انتِباهِ الزَّبائن. كُنتُ أَصرِفُ مِنْ ميزانِيَّةِ الدِّعايَة.

كُنتُ أَتخيَّلُ: بَعدَ قَليلٍ سَيَتَدَفَّقُ الزِّبائنُ إِلى الدُّكّانِ، سَيَأْخُذونَ دَوْرَهُمْ في الطّابورِ لِشراءِ الشَّمعِ، سَيُلاحِظونَ ارْتِفاعَ الأَسعارِ، لٰكِنَّهُمْ سَيَقْرَؤونَ أَنْ جودَتَها عالِيةٌ فَيَشْتَرونَها. لٰكِنْ... أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ الدُّكّانَ كانَ جَدّي.

في الحَقيقةِ، لَمْ أَكُنْ أَنتظِرُهُ! لَقَدْ أَخَذَ المُثلَّجاتِ وَذَهَبَ، وظَنَنْتُ أَنَّهُ لَنْ يَعودَ حتّى تَعودَ الكهرَباءُ. سَأَلْتُهُ وَأَنا أَنْزَلِقُ رويْدًا رويْدًا مِنْ عَلى الأَريكَةِ ـ لا أجلِسُ على أَريكتِهِ في أثناءِ وجودِهِ لِأَنَّه صاحبُ الدُّكّان ـ:

«لِماذا عُدْتَ سريعًا إِلى الدُّكّان؟»

لَمْ يُجِبْني جَدّي. هُوَ البَقّالُ، وَهُوَ صاحِبُ الدُّكّانِ، وَأَنا أَقولُ لَهُ: «لِماذا جِئْتَ». غَيَّرْتُ السُّؤَالَ، وَإِلَيكُمْ ما حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ:

«أَيْنَ المُثلَّجاتُ؟»

«يُجْرونَ صِيانَةً عَلى المُحوِّلِ الكَهرَبائيِّ، يُمكِنُ أَنْ يَحدُثَ انقِطاعٌ مُتكرِّرٌ للتيّارِ. سَنُعيدُ المُثلَّجاتِ غَدًا».

«هممممم».

«لِمٰاذا أَشْعَلْتِ الشَّمعَ في وَضَحِ النِّهارِ؟ ما هٰذا؟»

«هٰذِهِ دِعايَةٌ كاللَّوحاتِ الإِعلانِيَّةِ ذاتِ الإِنارَة. أَشْعَلْتُها لِشدِّ انْتِباهِ القادِمينَ إلى الدُّكّان».

«وَلِمٰاذا أَسعارُها ضِعْفُ سِعرِها الأَصْلِيّ؟»

«لَقَدْ رَفَعْتُ الأَسْعارَ لِأَنَّ النّاسَ يَحْتاجونَ إِلَيْها الآنَ. سَيَشْتَرونَها بِهٰذا السِّعرِ». وقَبْلَ أَنْ أُنهي جُمْلَتي قامَ جَدِّي بِحَمْلَةٍ مُضادَّة:

«يا ابْنَتي! هَلْ أَنْتِ نَصّابَة؟ هَلْ تَنْصُبينَ عَلى الزَّبائِنِ؟ أَتُريدينَ أَنْ تَكسِبي الكَثيرَ دونَ حقٍّ؟»

كانَتِ الأَسئِلَةُ تَنْهالُ عَلَيَّ تِباعًا. نَفَخْتُ عَلى الشَّمْعَتَيْنِ وَخَرَجْتُ مِنَ الدُّكّان. كنتُ ذَكَرْتُ لَكُمْ سابِقًا، أَنَّ جَدِّي يُصْبِحُ عصبِيًّا جِدًّا عِندَ انْقِطاعِ الكَهرَباءِ لِأَنَّهُ يُضطَرُّ إِلى نَقْلِ المُثلَّجاتِ إِلى أَقرَبِ مِنْطَقَة.

اللِّصُّ

لَمْ يَكُنِ الــدُّكّانُ مُزْدَحِمًا في جَميــعِ الأَوْقاتِ، فَأَحْيانًا يَكونُ في غايَةِ الهُدوءِ، بِحَيْثُ أَسْمَيْتُ تِلكَ الأَيّامَ بِاسْــمِ «يَومُ الشَّــبْعِ العالَمِيُّ». لا يَأْتي أَحَدٌ. أَجْلِسُ في ذٰلِكَ اليومِ عَلى صُندوقِ السُّــكَّرِ وأَضَعُ خُطَطًا لِلْمُسْتَقْبَل.

أَكثرُ ما أَخافُ مِنْهُ هُوَ دُخولُ لِصٍّ إِلى الدُّكّانِ. لا

أَعْرِفُ ما الَّـذي عَليَّ القِيـامُ بهِ عِنْـدَ دُخولِ لِصِّ الدُّكّانَ. لَـمْ يَذكُرْ لي جَـدِّي أَيَّ مَعلوماتٍ عَنْ هٰذا الأَمْرِ. في رَأْيي أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا لا يَعرِفُ ذٰلِك. حَسَنٌ، إِنْ دَخَلَ مُلثَّمونَ الدُّكّانَ وَقالـوا لي أَخْرِجي كُلَّ ما في صُندوقِ المالِ، فَماذا سَـأَفْعَلُ؟ لَيْـسَ لَديَّ أَيُّ فِكْرَةٍ. سَأَلْتُ جَدِّي في إِحْدى المَرّاتِ فقالَ لي: «لا تَتَشاءَمي! لا تَحدُثُ أُمورٌ كَهٰذِهِ في القَرْيَة».

لٰكِنْ كَوْني مُسـاعِدَةً في هٰذا الدُّكّانِ عَليَّ اتِّخاذُ كُلِّ التّدابيرِ اللّازِمَة. اتَّخَذْتُ قرارًا بِهٰذا الصَّدَدِ. كانَ في القَرْيَـةِ وَلَدانِ يَذْهبانِ إِلى النّـادي لِتَعَلُّمِ رِياضَةِ «الكاراتيه» في نِهايةِ الأُسـبوع. إِذًا عَلَـيَّ أَنْ أَتَعَلَّمَ الكاراتيه! ذَهَبْتُ إِلى البيْتِ وأَخْبَرتُهُم بِقَراري.

قُلْتُ لِأُمّي: «عَلَـيَّ أَنْ أَتَعَلَّـمَ الكاراتيه لِأَحْمي الدُّكّان. هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تُسَجِّليني في نادي الكاراتيه؟».

يَبْدو أَنَّها فَهِمَتْ مِنّي هاتَيْنِ الكَلِمَتَيْن فَقَطْ: «أَنا جائعةٌ». كثيرًا ما يَحْدُثُ هٰـذا اللَّبْسُ! كانَتِ الجُمَلُ الَّتي تَخـرُجُ مِنْ فَمي تَصِـلُ إِلى أُذُنِ أُمّي بِشَـكْلٍ مُخْتَلِفٍ:

«لا تَخافي، سَيَكونُ الطَّعامُ جاهِزًا بَعدَ قَليلٍ».

غَضِبْتُ:

«هَلْ قُلتُ لَكِ إِنـــي جائِعَة؟! قُلـــتُ لَكِ «نادي الكاراتيه»، قُلتُ سَجِّليني...».

أَجابَتْني أُمِّـــي: «إِنْ تَناوَلْتِ طَعامَـــكِ في وَقْتِ الطَّعامِ شَبِعْتِ... وَإِلّا سَتَبْقَيْنَ جائِعَة».

كُنْتُ مُتأَكِّدَةً مِنْ أَنَّ أَكثرَ ما يُخيفُ الأُمَّهاتِ هُوَ أَنْ يَبْقى أَوْلادُهُم جِياعًا. وأَنا كُلَّما تَحدَّثْتُ مَعَ أُمِّي كُلَّما رَبَطَتِ الحَديثَ بِالطَّعام. وَهٰذِهِ بَعضُ الحِواراتِ الَّتي تَدورُ بَيْنَنا:

«أُمِّي... هَلْ تَعرِفينَ؟ عِندَما أَكبُرُ رُبَّما أُصبِحُ كاتِبَة».

«تَناوَلي طَعامَكِ أَوَّلًا، وَلْيَبْقَ التَّأْلِيفُ لِما بَعدُ».

«أَظنُّ أَنَّني لا أَسْتَطيعُ العَزْفَ عَلى البيانو، لٰكِنَّني أَستطيعُ العَزفَ عَلى الأُورغِ. أَلَيْسَ كَذٰلِكَ يا أُمِّي؟»

«هَيّا أَنْهي فُطورَكِ، لا تتأَخَّري عَنِ المَدرسَة».

«أُمِّي، هَلْ تَعرِفينَ! عائِلَةُ إِســـراءَ سَـــتَذْهَبُ في عُطْلَةٍ».

«إنْ لَمْ تُنْهي طعامَكِ، لا يُمْكِنُكِ الخُروجُ حَتّى إلى الشّارِعِ وَتقولينَ عُطلَة؟»

«أُمّي، بَطْني يُؤْلِمُني».

«هٰذا طبيعِـيٌّ، إنْ لَمْ تَتناوَلي الطَّعامَ سَـيُؤْلِمُكِ بِالتَّأكيد».

طَعام، طَعام، طَعام، طَعام!

في ذٰلِكَ اليومِ أَيْضًـا دارَ الحِـوارُ بَيْنَنا كَذٰلِكَ: كارَتيه، طَعـام، كارَتيـه، طَعام، كارَتيـه، طَعام... جَرَّبْتُ حَظّي بِذِكْـرِ الكاراتيه لِمرّاتٍ عَديدَةٍ أُخْرى، ولمّا رَأَيْـتُ أَنَّني أُدْعى إلى تَنـاولِ الطَّعامِ، في كُلِّ مَرَّةٍ، تَراجعْتُ عَنْ فِكرَتي.

علـيَّ الآن تَطويـرُ أَسـاليبَ أُخْـرى لِمُواجهَةِ اللُّصوص... يُمْكِنُني إقْناعُهُم...

إذا دَخَلَ اللُّصوصُ فَسَأَقولُ لَهُم: «أَهلًا وسهلًا، هُنا دُكّانُ قَرْيةٍ صَغير. نَكْسِبُ في اليومِ هٰذا المِقْدارَ مِنَ المالِ. أَظنُّ أَنَّهُ لا داعِيَ إلى أَنْ تُتْعِبوا أَنْفُسَكُم،

وَتُشَوِّهوا سُمْعَتَكُم. تَفَضَّلوا، سَأُقَدِّمُ لَكُم قارورةَ مياهٍ غازِيَّةٍ، اشْرَبوها وَارْحَلوا».

إذا كانَتِ الكَلِمةُ الحُلوةُ تُخرِجُ الأَفْعى مِنْ جُحْرِها، فَأَظنُّ أَنَّنا يُمْكِنُنا أَنْ نُخْرِجَ اللُّصوصَ مِنَ الدُّكانِ أَيْضًا. إلّا أَنَّ هٰذِهِ الخُطَّةَ يُمكِنُ أَنْ تَنْجَحَ إذا كُنتُ أَنا المَوجودَةَ في الدُّكّان. أمّا إذا كانَ جَدِّي موجودًا في الدُّكّانِ فَمِنَ الصُّعوبَةِ بِمَكانٍ أَنْ يَلْقاهُم بِوجْهٍ بَشوش. إنَّه لا يَلْقاني أَنا بِابْتِسامَةٍ، فَكَيْفَ لَهُ أَنْ يَلْقى اللُّصوصَ بِوجْهٍ حَسَنٍ؟!

قَرَّرتُ أَنْ أَمتلِكَ كلبًا. إنْ وُجِدَ الكَلْبُ أَمامَ البابِ طَوالَ الوَقْتِ فَلَنْ يَتَجَرَّأَ لِصٌّ أو غيرُهُ عَلى الاِقتِرابِ مِنَ الدُّكّان. إنَّها فِكرةٌ رائِعَة. لٰكِنْ مِنَ المُستحيلِ أَنْ يَقْبَلَ جَدِّي بِاقتِناءِ كلبٍ.

إنْ قُلتُ لَهُ: «لِنُحْضِرْ كلبًا لِلحِراسةِ». مِنَ المؤكَّدِ أَنَّهُ سَيَنْظُرُ إلَيَّ بِنَظَراتِهِ الحادَّةِ تِلكَ.

لِذا قَرَّرْتُ أَنْ أَقومَ بِهٰذا الأَمرِ سِرًّا.

كانَ في القَرْيَةِ كَلبٌ لا مالِكَ لَهُ، كَلبٌ أَصْهَبُ وَذَكِيٌّ جِدًّا اسمُهُ صارِم...

لا أَعرِفُ مَنْ سَمّاهُ، لٰكِنَّ القَرْيةَ كُلَّها تُناديهِ باسم «صارِم». أَعتقِدُ أَنَّ هٰذا الاِسمَ يَليقُ بِهِ كثيرًا. جَعلْتُ صارِمًا يَلْحَقُني، وأَحْضَرْتُهُ إِلى الدُّكان.

أَرْخَصُ بِضاعَةٍ في الدُّكّانِ هِيَ قِطَعُ البَسْكَويتِ الَّتي تُباعُ بِالكيلو... كُلُّ أَنواعِ البَسْكويتِ توجَدُ داخِلَ العُلْبَةِ هٰذِهِ. كَما أَنَّ هُناكَ قطعَ بَسكويتٍ مُكسَّرة، وَلا أَحدَ يَشْتَري البَسْكويتَ المُكَسَّر. كُنتُ آكُلُها أَنا. سَيَأْكُلُها صارِمٌ مِنَ الآنَ فَصاعِدًا.

قدَّمْتُ لِصارِم قَليلًا مِنَ البَسْكويتِ كُلَّ يومٍ. وَكانَ كُلَّما يَأْتي يَأْكُلُ البَسكويتَ. لَمْ يَعُدْ يُغادِرُ الدُّكّانَ أَبدًا.

سَأَلَني جَدّي عِدَّةَ مرّاتٍ: «لَقَدْ أَلِفَ هٰذا الحَيوانُ الدُّكّانَ! هَلْ أَنتِ تُقَدِّمينَ لَهُ طَعامًا؟». لٰكِنَّني أَنْكَرْتُ فَقُلْتُ:

«ماذا يُمْكِنُني أَنْ أُقَدِّمَ لِلْكَلبِ يا جَدّي؟ أَنا لا آكُلُ شَيْئًا في الدُّكّانِ. انْظُرْ إِلى سَلَّةِ القُمامةِ، إِنَّها فارِغَة». قلتُ هٰذا وَتَخَلَّصْتُ مِنْ هٰذا الموقِفِ.

أَصْبَحَ صـارِمٌ كَلْبَنا الحـارِسَ، وهٰكـذا تَمَّتِ العَمَلِيَّةُ بِنجاحٍ. يُمْكِنُنـي أَنْ أَفْتَخِرَ بِذَكائي مُجدَّدًا. نَحنُ جاهِزونَ لِأَيِّ عَمَلِيَّةِ سَرِقَة... أَقصِدُ أَنَّ هٰذا ما كُنتُ أَعتَقِدُهُ أَنا.

في إِحْـدى اللَّيالي، الَّتـي قَضَيْناهـا في بيتِ جَدَّتـي، رَنَّ الهاتِفُ عِندَ حُلولِ الفَجـرِ. ردَّتْ أُمِّي عَلى المُتَّصِل:

ماذا؟! كيفَ ذٰلِـكَ؟! يا إِلٰهي! كانَـتْ عِباراتُ الدَّهشَةِ تَزدادُ في حَديثِها. تحلَّقَ الجَميعُ حولَ أُمِّي بِمَلابِسِ النَّومِ. عِنْدَما وَضَعتِ السَّماعَةَ، الْتَفَتَتْ إِلَيْنا وَقالَتْ: «لَقَدْ دَخَلَ لُصوصٌ إِلى الدُّكّان».

وثَبْتُ وقُلْتُ:

«وَهَلْ خَرَجوا؟»

تَعَجَّبَتْ أُمِّي:

«مَنِ الَّذي خَرَج؟»

«اللُّصوصُ، هَلْ ما زالـوا في الـدُّكّانِ لِأَذْهَبَ وَأَتَحدَّثَ إِلَيْهِم؟»

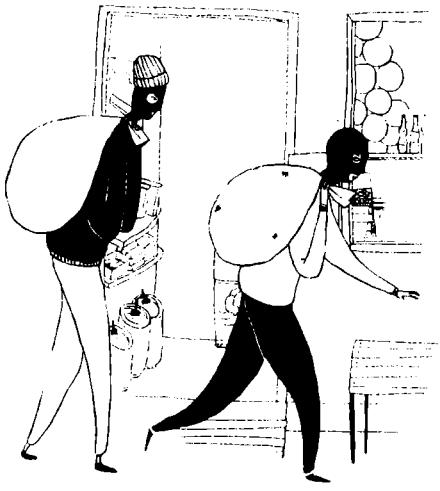

نَظَـرَتْ أُمِّـي إِلَـيَّ بِدَهْشَـةٍ. كانَـتْ نظرَتُها غريبـةً جدًّا! عُـدْتُ إلى فِراشِيَ وأَكْمَلْتُ الإِسْتِماعَ إِلى مَجْـرى الحادِثَةِ وأَنا في سَريري.

جَرَتِ الحادِثَةُ كَالآتي:

جاءَ اللُّصوصُ إِلى الدُّكانِ في اللَّيلِ، حاوَلوا فَتْحَ البابِ، وَعِنْدَما أَخْفَقوا في فَتحِهِ حاوَلوا فَتْحَ النّافِذَةِ، أَخْفَقُوا في ذٰلِـكَ أَيْضًا. كَانَ جَدِّي بِجِـوارِ الدُّكّان تَمامًا. لَقَدْ غَفِلَ اللُّصوصُ عن هٰذِهِ التَّفاصيل. وَفي تِلكَ اللَّيلةِ طارَ النَّومُ مِنْ عَيْنَيِّ جَدِّي، قامَ لِيَشْـرَبَ الماءَ (طبْعًـا، إِنْ كُنتَ تَنـامُ كثيرًا في النَّهـارِ فَلَنْ تَستطيعَ النَّوْمَ لَيْلًا). بَعْدَ أَنْ شَرِبَ الماءَ واتَّجَهَ إِلى فِراشِهِ لاحظَ انْعِكاسَ ضَوءِ مِصباحٍ يَدوِيٍّ في الحيِّ. حَمَلَ مِصباحَهُ اليَدَويَّ وَخَرَجَ، وَبِمُجَرَّدِ أَنْ قالَ: «مَنْ هُنـاكَ؟»، كانَ اللُّصـوصُ قَـدْ لاذوا بالفِـرار. في النَّتيجَةِ... لَمْ يَستطِعِ اللُّصوصُ الدُّخولَ إِلى الدُّكّان.

عِندَما استَيْقَظْتُ في الصَّباحِ انْطَلَقْتُ إِلى الدُّكّانِ عَلى الفَــورِ. كانَ صــارِمٌ مُقْعِيًا عَلى دَرَجَةِ السُّــلَّمِ يَتَرَقَّب.

قلْتُ لَهُ: «أَيْنَ كُنتَ أَيُّها المُشاكِس؟»

«إِنْ كُنتُ أُريدُ أَنْ أُشَــغِّلَ الحَيوانَ في السّاعاتِ المَسائيَّةِ أَيْضًا فإِنَّ عليَّ أَنْ أَزيدَ في كَميَّةِ البَسكويتِ.

حينَما رَآني جَدِّي قالَ لي: «أَهْــلًا بِكِ يا نَذيرةَ الشُّــؤْمِ! ردَّدْتِ القولَ لُصوصٌ... لُصوص... حَتّى جاءَ اللُّصوص».

وَكأَنَّني أَنا الَّتي دَعوْتُ اللُّصوص!! أَجَبْتُهُ:

«لِمَ لَمْ تُقَدِّمْ لَهُمْ المِياهَ الغازِيَّة؟»

لَمْ يَفهَمْ... وَلَنْ يَفْهَمَ.

لَوْ أَنَّكُــمْ تَسْــتَمِعونَ، وَلَوْ قَليــلًا، إِلى كَلامي لَفَهِمْتُمْ ما الَّذي أَقْصِدُه...

المُنْتَجاتُ المَحلِّيَّة

هُنا دُكّانُ قَريةٍ... هٰـذا صَحيحٌ... ونَحنُ نَعْرِفُ كُلَّ مَنْ يَأْتي إِلَيْها، أَوْ يَمُرُّ مِنْ هنا. قَدْ يَأْتي شَخْصٌ لا نَعْرِفُهُ أَحْيانًا، إِمّـا لِأَنَّه ضَلَّ طريقَـهُ، فَيأْتي إِلى الدُّكّانِ لِيسـأَلَ عَنِ الطَّريـقِ، وإِمّا لأَنَّه جـاءَ يزورُ أَنسِباءَهُ لِعِدَّةِ أَيّام.

عِندَما يَأْتي الغُرباءُ إِلى الـدُّكّانِ يتَحَدَّثونَ إِلَيْكَ بتوْجيهِ أَسئِلَةٍ غَريبةٍ:

«كيفَ يَسيرُ العملُ؟ كَمْ شَـخصًا يَقْطُنُ في هٰذِهِ القَريةِ؟ هَلْ تَبيعونَ مُنْتجاتٍ مَحلِّيَّة؟»

لا أُحِبُّ مِثْلَ هٰذِهِ الأَسئِلةِ، لٰكِنَّني أُجيبُ السائلَ عَلى كلِّ حالٍ: «العَملُ جيِّدٌ.. القريَةُ هُنا مُزدَحِمةٌ.. لا أَعْرِفُ عَدَدَ مَنْ فيها.. لا نَبيعُ المُنتَجاتِ المَحَلِّيَةَ.. ولِمَ نَبيعُها؟»

حينَما سَأَلْتُ السُّؤَالَ الأَخيرَ هٰذا سَطَعَتْ في عَقلي فِكرةٌ رائِعَة: وَلِمَ لا نَبيعُها؟ وَبيْنَما كنتُ أُفَكِّرُ بِهٰذا السُّؤالِ دَخَلَ طِفلٌ مَعَ أُمِّهِ الدُّكّانَ. أَنا لا أَعْرِفُهُما. وَكانَتْ هُناكَ سَيّارةٌ مَرْكونةٌ أَمامَ الدُّكانِ. إِنَّهُما غَريبانِ. سَأَلتُهُما: «هَلْ ضَلَلْتُما الطَّريق؟»

أَجابَتِ المَرأَةُ:

«لا... وَلِمَ نَضِلُّ طريقَنا؟ ما سَببُ سُؤَالِكِ؟»

البالِغونَ المُتذَمِّرونَ! هٰؤلاءِ الأَشخاصُ يَسْخَطونَ عَلى أيِّ شيْءٍ، يَغضَبونَ دونَ سَببٍ، يُوَبِّخونَ النّاسَ بِلا مُسَوِّغ!

لا أَقتربُ أَبَدًا مِنَ البالِغينَ المُتذَمِّرين. شَعَرْتُ بالنَّدَمِ لِأَنَّني قلتُ ذٰلِك. وَرَغْمَ أَنَّني أَعْرِفُ أَنَّ ضَلالَ الطَّريقِ أَمرٌ سيِّئٌ إِلّا أَنَّني قلتُ في نَفْسي: «أَرجو أَنْ تُضِلِّي طَريقَكِ».

لَوْ أَنَّ أُمِّي تَسمعُ ما أَقولُهُ لَوَبَّخَتْني قائِلةً: «لا تَدْعي عَلى أَحدٍ، فالدُّعاءُ يَلُفُّ ويَدورُ وَيَعودُ إِلى صاحِبِهِ». أَصْلًا، هٰذا لَيْسَ دعاءً بالشرِّ، وَإِنَّما أُمْنِيَةٌ سَيِّئةٌ مُستَحَقَّة.

أَرادَ الطِّفلُ أَنْ يَشتَري الشّوكولاتةَ، فَقالَتْ لَهُ أُمُّه:

«لا... لا يُمْكِنُ أَنْ تَشْتَري الشّوكولاتةَ، انْظُرْ لَقَدْ نُخِرَتْ أَسنانُكَ».

لَوْ أَنَّ أُمِّي تقولُ لي هٰذا لَانْزَعَجْتُ مِنْها كثيرًا.

قالَ الطِّفلُ لِأُمِّهِ: «هَلْ أَشْتَري رُقاقاتِ البَطاطا المُقَرْمِشَة؟».

أَجابَتِ الأُمُّ: «رُقاقاتُ البطاطا المُقرْمِشَة! أَيَّةُ بَطاطا هٰذِهِ؟ وَهَلْ هٰذِهِ البَطاطا تُؤْكَلُ؟».

قلتُ في نَفْسي: «أَلا تُؤْكَلُ؟ نحنُ أَهلُ قَريَةٍ بِأَكْمَلِها نأْكُلُ كُلَّ يَومٍ البَطاطا المُقرمِشَةَ، كيسًا يَلي الكيسَ». اتَّجَهَ الطِّفلُ حينَئِذٍ إِلى عَصيرِ الفاكِهَة.

«يوجدُ عصيرٌ في السَّيّارةِ، لَقَدْ عَصَرْتُ لَكَ فاكِهةً

قَبْلَ أَنْ نَخــرُجَ مِنَ البَيــتِ. قَدْ يَكونُ فقــدَ بَعضَ القِيتامينِ، لٰكِنَّه عَلى الأَقلِّ أَفضلُ مِنْ هٰذِا».

طَلَبَ الطِّفْلُ عِندئِذٍ البَسْكويتَ:

«لقدْ خَبَزْتُ لَكَ الحَلْوى يا وَلَدي، هُناكَ الكَثيرُ مِنْها في السَّــيّارةِ، إِنَّها مِنْ صُنعِ البَيْتِ، بِالزَّبيبِ... مَنْ يَدري كيفَ تُصنَعُ هٰذِهِ المُنتَجات».

قالَ الطِّفــلُ: «مُثلَّجاتٌ إِذًا»، أَجابَــتِ الأُمُّ: «مِنَ المُستحيلِ أَنْ أَشْتَري لَكَ مُثلَّجاتٍ غيرَ مُغلَّفَة».

أَرَدْتُ أَنْ أَصرُخَ في وَجهِها قائِلةً: «يا ســيِّدةُ، ما الَّذي ســيأْكُلُه هٰذا الطِّفُــلُ؟». لٰكِنْ لَمْ أَسْــتَطِعْ... لِمٰاذا؟ لِأَنَّ الزَّبونَ دائِمًا عَلى حَقّ.

جَحَظَتْ عَيْنايَ وَأَنا أُراقِبُهُما وَأَسْتَمِعُ إِلَيْهِما مِنْ خَلْفِ طاوِلَــةِ البَقّال. وَأَخيرًا اشْــتَرَتِ المَرْأَةُ لِابْنِها عِلْكَةَ لِبانٍ صَغيرةً دونَ سُكَّر! بعدَ عِشرينَ دَقيقةً في الدُّكّانِ لَمْ يَشْــتَرِيا إِلّا عِلكَةَ لِبانٍ صَغيرةً دونَ سُكَّر. في ذٰلِكَ اليومِ، وَبعــدَ خُروجِهِما مِنَ الدُّكّانِ، كتبْتُ فِكرةً جَديدةً بِالأَحرُفِ الذَّهبيَّةِ في تاريخِ الدُّكّان.

جَميعُ النِّســاءِ في الصَّيفِ يَقُمْنَ بِتَجهيزِ المُؤَنِ الشَّــتَوِيَّة: **مَعْجونُ الطَّماطِمِ، المُربّــى، المَعْكَرونَةُ، الحَســاءُ، المُخَلَّلُ، رُقاقاتُ العَجينِ، وَالكُنْسِرْوةُ...** مُؤَنٌ كثيرةٌ. وَهَلْ يَعْمَلْنَ طَــوالَ الصَّيفِ لِتَجْهيزِها. وَبَيْنَمــا يَقُمْــنَ بِهٰذِهِ الأَعْمــالِ يَمْنَعْــنَ الأَوْلادَ مِنَ التَّجوُّلِ حولَهُنَّ، فَهٰذِهِ المُنتَجاتُ بِالنِّسبةِ إِلَيْهِنَّ قيِّمَةٌ مِثلُ قيمةِ الذَّهَبِ.

يَصفْنَ مُنْتَجاتِهِنَّ وَيَفْخَرْنَ بِها: «مَعجونُ الطَّماطِمِ أَصْبَحَ جيِّدًا جِدًّا هٰذِهِ السَّنة، آهِ.. لَوْ تَرَيْنَ المرَبّى كَمْ أَصبحَ لذيذًا». وَهٰكذا مِنَ الجُملِ الغَريبَة.

إِذا قُمتَ بِصَبِّ القَليلِ مِــنْ مُنتَجاتِهِنَّ هٰذِهِ رَغبةً مِنْكَ في تَذوُّقِهــا، أَوْ أَكْثَرْتَ، فَــإِنَّ الطّامَةَ الكُبْرى وَقَعَــتْ، ويَبْــدَأُ التَّعنيفُ: «كَــمْ عَمِلْتُ بِهــا طَوالَ الصَّيْفِ! احذَرْ أَنْ تُســرِفَ فيها أَوْ تُفْسِدَها»، وَتَقِفُ اللُّقْمةُ في حَلْقِكَ. لِهٰذا السَّببِ مِنَ المُستَحيلِ جَمْعُ هٰذِهِ المُنتْجاتِ الطَّبيعيَّةِ مِنْ بيتٍ واحِدٍ فَقَطْ. وَلَيْسَ مِنَ اللّائِقِ بي أَنْ آخُذَهــا خِفْيَةً، لِذٰلِكَ أَفْضَلُ طريقَةٍ هِيَ أَنْ أَسْتَقْرِضَها مِنْهُنَّ اسْتِقْراضًا.

ذَهَبْتُ إلى جَدَّتي أُمِّ أَبي وقلتُ لَها: «إنَّ جَدَّتي الأُخرى تقولُ لَكِ إنَّ مَعجونَ الفُلَيْفِلَةِ الَّذي تَصْنَعينَهُ لَذيذٌ جِدًّا، أَعْطيني قارورةً مِنْه وَعِنْدَما أَصنَعُ سَأُعيدُها إليْكِ. أُريدُ أَنْ أَستَمْتِعَ بِطَعْمِ مَعجونِ الفُلَيْفِلة».

عَلَتْ الابْتِسامةُ وجهَها... أُمُّ كَنَّتِها تَطلُبُ مِنَ المَعجونِ الَّذي صنَعَتْهُ. **يا إلَهي!** وعَلى الفورِ أَعْطَتْني قارورَتيْن. أَعْطَتْني قارورَتيْنِ لا واحِدَة، وَطَلَبَتْ مِنِّي أَنْ أُبَلِّغَها السَّلامَ. قُلْتُ لَها عَلى رَأْسي وعَيْني، وانْطلَقْتُ. خبَّأْتُ مَعجونَ الفُلَيْفِلَةِ في القِسمِ الخَلْفِيِّ مِنْ مَخْزَنِ الدُّكّان.

ذَهَبْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ إلى خالَتي أَمينَةَ، وطلبْتُ مِنْها مُخَلَّلًا لِجَدَّتي. ثُمَّ إلى خَالَتي سَحَرٍ وَطلبْتُ مِنْها مُربّى، وَمِنَ الخالَةِ حوريَّةَ فواكِهَ مُجفَّفة. وأَمّا الخالَةُ خديجَةُ فَكانَ نَصيبُها خَليطَ الحَساءِ المُجفَّف. إلّا أَنَّني بالغْتُ في طلَبي مِنْها، قُلتُ لَها: «إنَّ صيتَ حَسائِكِ تَتناقلُهُ الأَلْسُنُ، والنّاسُ يَخجَلونَ مِنْ طَلَبِ الوَصفَةِ مِنْكِ، وَيطلُبونَ مِنْكِ القَليلَ مِنْهُ لِيتمكَّنوا مِنْ مَعرِفَةِ مُكوِّناتِهِ».

صَدَّقَتْني طبْعًا، فَالنِّساءُ يَحْبَبْنَ المَدْحَ كثيرًا. حتّى إِنَّها كانتْ تَرغَبُ في تَصديقِ كَلامي حينَ أَجابَتْني:

«إِنَّهُمْ لَمْ يَتَذَوَّقوا المَعْكَرونَةَ الَّتي أَصْنَعُها بَعدُ، وَلَوْ أَنَّهُم يَتَذَوَّقونَها مَرَّةً لَنْ يَنْسَوْا طَعْمَها أَبدًا». وَأَعْطَتْني كيسًا مِنَ المَعْكَرونَةِ أيضًا. الآنَ، أَصْبَحْتُ وَكَأَنَّني أَمْلِكُ الدُّنْيا بِما فيها.

كانَ سوقُ المُنْتَجاتِ المَحلِّيَّةِ جاهِزًا بِكلِّ مُسْتَلْزَماتِهِ، وَكُنْتُ أُفَكِّرُ أَنَّني عِنْدَما أَكسِبُ النُّقودَ سآخُذُ حَقِّي، ثُمَّ أَدْفَعُ لَهُنَّ الثَّمنَ وأُخْبِرَهُنَّ الحَقيقَة. فَمَثلًا، إِذا جاءَتْ تِلكَ المرأَةُ المُتذَمِّرةُ الآنَ إِلى الدُّكّانِ، سَتُعْجِبُها كلُّ هٰذِهِ المُنْتَجات. غيرَ أَنَّهُ ما زالَ لَديْنا بعضُ النَّواقِصِ. لَمْ يَكُنْ لَدَيْنا شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ نَبيعَهُ لِلصَّغير. الحَلْوى! الحَلْوى ستحُلُّ هٰذِهِ المُشْكِلَةَ. ذَهَبْتُ إِلى عَمَّتي. عَمَّتي امرأَةٌ رَقيقَةُ القَلْب...

«أوففف، أَعْمَلُ طَوالَ النَّهارِ في الدُّكّانِ. هُناكَ الكَثيرُ مِنَ الشّوكولاتَةِ وَالبَسْكَويتِ، لٰكِنَّ طَعْمَ الحَلْوى الَّتي تَصْنَعينَها لا تُضاهيها أَيُّ واحِدَةٍ مِنْها. آهِ لَوْ كانَ هُناكَ القَليلُ مِنْها لَغَطَّسْتُها في الشّايِ

وَأَكَلْتُهـا بِالعافِيَـة. لٰكِنْ أَرجوكِ لا تُتْعِبي نَفْسَـكِ، سَـأَذْهَبُ إِلى الدُّكّانِ لِأَتَناوَلَ بَعْضًا مِنْ تِلكَ القِطَعِ غيرِ الصِّحِّيَّة».

أَجابَتْني:

«طَبْعًا أَصْنَعُها لَكِ يا ابْنَةَ أَخي».

تَصْنَعُهـا بِالتَّأْكيـدِ. فَأَنَـا في المَـكانِ والزَّمانِ المُناسِبَيْن.

صَنَعَتْ صينِيَّةً مِنَ الحَلْوى. انْتَظَرْتُ عِنْدَ رَأْسِها. بَعْدَ أَنْ فَرَغَتْ وَضَعَتْ لي ثلاثَ قِطَعٍ في الطَّبَق...

«ما هٰذا؟ لِمَنْ هٰذا القَدْر؟ سأُوَزِّعُها عَلى الأَوْلادِ أَمامَ الدُّكّان. لَقَـدْ وَعَدْتُهُم. ذكرْتُ لَهُـمْ جَميعًا أَنَّ عَمَّتي تَصنَـعُ أَلَذَّ حَلْوى في العالَـمِ. وَهُناكَ مَنْ لا يَعرِفُ حتّى مـا هِيَ هٰـذِهِ الحَلْوى. خُـذِي القِطَعَ الثَّلاثَ أَنتِ، وأَعْطِني الباقي. مَسـاكينُ. تَكْسِـبينَ الثَّوابَ. أَرْجو مِنَ اللهِ أَنْ يَجْمَعَكِ بِأَحْبابِكِ».

وَأَنْهَيْتُ كَلامي بِجُملَتي الأَخيرَة...

«لَمْ يَسمَحْ لَها جَدّي بِالزَّواجِ بِمَنْ تُحِبُّ». بِهٰذِهِ

الجُمْلَةِ بَدَوْتُ وَكَأَنّني ضرَبْتُ عَلَى الوَتَرِ الحَسّاسِ. وَضَعَتِ القِطَعَ الثَّلاثَ أَيْضًا في الصِّينِيَّةِ وَقالَتْ لي: «خُذيها كُلَّها».

حَزِنْتُ كَثيـرًا. كَانَ عَلَيَّ، بَعْـدَ أَنْ أُنْهي أَعْمالَ الدُّكّانِ، أَنْ أَبْحَـثَ عَنْ طَريقَةٍ لِأَجْمَـعَ هٰذِهِ المرأَةَ بِحَبيبِها. أَظُنُّ أَنَّهُ يُمْكِنُني أَنْ أُتِمَّ هٰذا الأَمرَ أَيْضًا إِنْ أَنا عَزَمْتُ عَلـى ذٰلِكَ. وَعِنْدَما تَتزوَّجُ سَـتَصْنَعُ لي الكَثيرَ مِنَ الحَلْوى مُكافأَةً لي عَلى هٰذا العَمَلِ.

عَلى كُلِّ حالٍ أَذْهَبُ، بَيْـنَ الحينِ والآخَرِ، إِلَى المَقْهى وَأَتَحدَّثُ مَعَ جَدِّي وَأَنا أَشْرَبُ شايَ الفاكِهَةِ وَأَقُولُ لَهُ: «هَلْ تَعْرِفُ؟ لَوْ أَنَّ لي بِنْتًا لَزوَّجْتُها بِمَنْ تُحِبُّ بِلا شَـكٍّ، وَلَنْ أَتَرَدَّدَ أَبدًا، فأَنا أُؤْمِنُ بِالحُبِّ إِلى أَقْصى حَدٍّ». وَكَالعادَةِ تَجاهَلَ جَدِّي ما سَمِعَهُ.

وَضَعْتُ الحَلْوى في عُلْبَةِ بَسْـكويتٍ فارِغَة. ثُمَّ حَمَلْتُ المُنْتَجـاتِ المَحلِّيَّةَ، الَّتـي جَمَعْتُها مِنْ هُنا وَهُناكَ، وَوضَعْتُهـا عَلى رَفٍّ في الـدُّكّان. كَمْ كانَ مَنظَرُها جَميلًا وَهِيَ مَصْفوفَةٌ بِتَرْتيبٍ.

إِنْ أَنا نَجحْتُ في هٰذا العَمَلِ سَأَجْعَلُ نِساءَ القَرْيَةِ

كُلَّهُنَّ يَعْمَلْنَ لِصالِحـــي. ويَأْتي زبائِنُ كُثُرٌ مِنَ القُرى المُجاوِرَةِ، وَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّني سأُوَسِّعُ الدُّكّانَ حينَئِذٍ.

ثُمَّ كَتَبْتُ عَلى قِطْعَةٍ مِنَ الوَرَقِ المُقَوّى:

«**بَقّالةُ قايا تُقَـدِّمُ لَكُـمُ المُنْتَجـاتِ المَحلِّيَّة**». وعَلَّقْتُها عَلى الزُّجاجِ. جَـاءَ جَدِّي وَقَرَأَ الكِتابَةَ. هَلْ تَدْرونَ ما الَّذي حَدَثَ؟ حَدَثَ ما يَلي:

«ما مَعْنَى المُنْتَجاتِ المَحلِّيَّة؟»

«المُنْتَجـاتُ المَحلِّيَّـةُ تَعْني مَعْجـونَ الطَّماطِمِ والفُلَيْفَلَـةِ، المُرَبّى، المُخَلَّلَ، والحَسـاءَ المُجَفَّفَ، وَهِيَ المُنْتَجاتُ الَّتي تُصنَعُ في القَرْيَة».

«أَعْرِفُ ذٰلِـكَ! ولٰكِنْ ما علاقَتُهـا بِدُكّانِنا؟ مَنْ أَحْضَرَها؟»

«أَنا أَحْضَرْتُها».

«أَلا يوجَـدُ لَدَيْنا مَعجـونُ الطَّماطِـمِ وَالفُلَيْفَلةِ وَغيرِهِما؟ إِنَّنا نَبيعُها أَصْلًا».

«هٰذِهِ مُنْتَجاتٌ مَحلِّيَّةٌ، وَهِيَ أَكْثرُ بَيْعًا».

«مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ بِها؟»

«الأَمْرُ مُعَقَّدٌ قَليلًا».

«كيفَ! مُعَقَّدٌ! مِمَّنْ أَخذْتِهـا؟ هَلْ دَفَعْتِ النُّقودَ مُقابِلَها؟ مِنْ أَيْـنَ جِئْتِ بِالنُّقود؟ هَـلْ أَخَذْتِها مِنْ صُندوقِ الدُّكّان؟»

«لا يا جَـدِّي، لَقَـدِ اسْـتَقْرَضْتُها مِـنْ جَدَّتي، وَخالَتي، وعَمَّتي، وزَوْجَةِ خالي، وَمِنَ البَيْتِ. عِنْدَما أَبيعُها سأَدْفَعُ لَهُنَّ ثَمَنَها، سَأَبيعُها اليومَ أَصْلًا».

«بُنَيَّتي، بيوتُ القَرْيَةِ مَليئَةٌ بِهٰذِهِ المُنْتَجاتِ، مَنِ الَّذي سَيَشْتَريها؟ كيفَ سَتُباعُ هُنا؟ إِنِ احتاجوا إِلَيْها تُقَدَّم لَهُمْ كَهَدِيَّـةٍ، نَحْنُ في قَريةٍ، والجـارُ لِلْجارِ. تُخْبِريهُنَّ أَنَّ حَسـاءَكِ المُجَفَّفَ نَفِدَ عِنْدَكِ فَيُقدِّمونَ لَكِ مِنْ مُؤْنَتِهِم. وَهَلْ يُشْتَرى الحَساءُ المُجَفَّفُ مِنَ الدُّكّانِ؟ هيّا اذْهَبي بِسُـرعَةٍ وَأَعيديها إِلى أَصْحابِها وَلا تَعودي إِلى مِثْلِ هٰذِهِ السَّخافاتِ مَرَّةً أُخْرى! وَثُمَّ أَنْزِلي وَرَقَـةَ الكَرْتونِ تِلْكَ عَـنِ الزُّجاج... وَتَقولُ مُنْتَجاتٌ مَحلِّيَّة...».

«نَعَمْ مُنتجاتٌ مَحلِّيَّةٌ! انْظُرْ إِلى هٰذِهِ الحَلْوى. إِنَّها أَفْضَلُ مِنَ البَسْكَويتِ الَّذي تَبيعُهُ. مُنْذُ سنواتٍ وَنَحْنُ

نُلْحِقُ الضَّررَ بِالنّاسِ... لَقَدْ نُخِرَتْ أَسنانُ الصِّغارِ، وَهَلْ تُؤْكَلُ رُقاقاتُ البَطاطا المُقَرْمِشَة؟ بِعْنا رُقاقاتِ البَطاطا المُقَرْمِشَة، بِعْنا أشياءَ لا نَعْرِفُ كَيفَ تُنْتَجُ». وهٰكذا ذكرْتُ كُلَّ ما ذَكَرَتْهُ تِلكَ المرأَةُ المُتذَمِّرَة.

وَلٰكنْ لِأَنَّه صاحِبُ العَمَلِ مِنْ جِهَةٍ، وَجَدِّي مِنْ جِهَةٍ أُخرى، طَرَدني وَجَعَلَني أُعيدُ المُنْتَجاتِ المَحَلِّيَّةَ واحِدًا واحِدًا إِلى أَصْحابِها. ولَقَدِ انتَقَمْتُ مِنْهُنَّ جَميعًا بِسَبَبِ تَصرُّفِ جَدِّي مَعي.

قُلْتُ لِجدَّتي: «لَمْ يُعْجِبْهُمْ مَعجونُ الفُليْفِلَةِ، يَقولونَ إِنَّ طَعْمَهُ غريبٌ جِدًّا. أَتْقِني صُنْعَهُ في المرَّةِ القادِمَة».

وَقُلْتُ عَنْ مُربّى خالَتي سَحَرٍ وَالفَواكِهِ المُجَفَّفةِ لِزَوجَةِ خالي حورِيَّةَ «إِنَّه سيِّئٌ جِدًّا، لَمْ يَسْتَطيبوهُ فَأَعادُوهُ». أَمّا الحَساءُ المُجَفَّفُ والمَعْكَرونَةُ المَشْهورَةُ عالَمِيًّا فَلَمْ أُعِدْهُما، وإِنَّما وَضَعْتُهُما عَلى البابِ وَهَرَبْتُ. لَقَدْ أُصِبْتُ بِالجنونِ مِنْ شِدَّةِ الغَضَبِ.

لَمْ يَبْقَ إِلّا حَلْوى عَمَّتي. لَمْ أُرِدْ إِعادَتَها إِلَيْها. لِأَنَّني إِذا أَعَدْتُها فَسَيخْطُرُ في بالِها جُمْلَتي الأَخيرةُ «جَمَعَكِ اللهُ بِأَحبابِك».

سَــتَعْتَقِدُ أَنَّها لَنْ تَجْتَمِعَ بِهِمْ وَسَــتَحْزَنُ كثيرًا. **أَشْــفَقْتُ عليْها**. لا أُريدُهــا أَنْ تَعرِفَ مٰــاذا حَدَثَ لِحَلْواها...

أَخَذْتُ عُلبةَ الحَلْــوى وَذَهَبْتُ إِلى البُحَيرَةِ. هِيَ لا تُعْتَبــرُ بُحَيْرةً في الحَقيقَــةِ، يُمْكِنُ أَنْ نُسَــمِّيها بُحيرةً صَغيرةً أو حَتّى بِرْكةً وَسِــخةً، وَكَأَنَّها مُسْتَنْقَع. لا أَحَدَ يأْتي إِلَيها بِسَــبَبِ رَوائِحِها الكَريهَــة. أُحِبُّ الضَّفادِع. ذَهَبْتُ إِلــى هُناكَ، وَبَيْنَما كُنــتُ آكُلُ مِنَ الحَلْوى جاءَ الكَلبُ صارِم. قَدَّمْــتُ لَهُ أَيْضًا مِنَ الحَلْــوى. أَعْجَبَتْهُ كثيرًا. أَكَلْتُ واحِدةً وَقَدَّمْتُ واحِدةً لِصارِم وأَنا أَقولُ لَهُ:

«تَفَضَّلْ يا صارِمُ، لِنَأْكُلْ، وَلْيَجْتَمِعِ المُحِبُّون».

عُدْنا أَنا وَصارِمٌ إِلَى الــدُّكّانِ وَنَحنُ نلتَفِتُ إِلى الخَلْفِ. مِنَ الآنَ فصاعِدًا ســأُقَدِّمُ لِصارِمٍ كُلَّ صَباحٍ قِطعةً مِنْ أَثْمَنِ البَسْكويتِ في الدُّكّان.

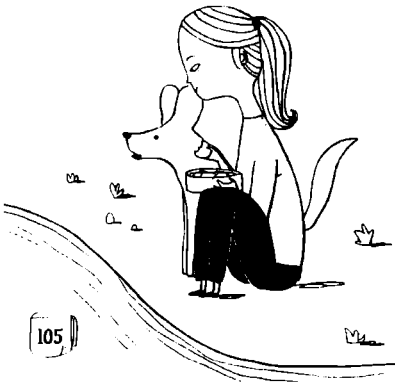

لِيَكُنْ! بِما أَنَّ جَدِّي لا يُريدُ أَنْ يَرْبَحَ، فَلْيخسَرْ إِذًا.

يَسْتحِقُّ ذٰلِك...

شُكْرِيَّةُ اللّامِعَة

كانَ لَديَّ بَعْضُ الأَعْمالِ في الـدُّكّانِ. قُلْتُ في نَفْسي فَلْأُدَوِّنْها، لِأَعرِفَ كيفَ أُقسِّمُ الوَقْتَ:

كَنْسُ الدُّكّان.

مَسْحُ الطّاوِلَة.

تَفَقُّدُ الرُّفوفِ وَوَضْعُ الجَديدِ مِنَ المُنْتَجاتِ الَّتي نَفِدتْ.

تَنْظيفُ خِزانَةِ الخُبزِ مِنَ الدّاخِل.

إِفْراغُ القُمامَة.

رشُّ المـاءِ أَمـامَ الـدُّكّانِ (عَمَـلٌ مِـنْ أَعمالِ التَّنْظيف).

صِناعَةُ الأَقْماعِ مِنَ الوَرَق.

صِناعَةُ الأَقْماعِ مِنَ الوَرَقِ عَمَلٌ

صَعْبٌ ومُجْهِدٌ لِلْغايَة. الأَقْماعُ تُسْتَعْملُ لِأُمورٍ كَثيرَة. تَقُصُّ أَوْراقَ الصَّحيفَةِ، ثُـمَّ تَلُفُّها بِيَدِكَ وَتَصْنَعُ عِدَّةَ مقاسـاتٍ مِنْها. تَضَعُ في القِمْعِ المُكسَّراتِ وَالجَوزَ والبَيْضَ وَغَيْرَها. إِنَّه يَقومُ مَقامَ الأَكياسِ الوَرَقِيَّة.

يُريدُ جَدِّي أَنْ يَجِدَ الأَقْماعَ دائِمًـا كُلَّما مَدَّ يدَهُ تَحتَ الطّاوِلَة. فَـإِنْ لَمْ يَجِدْها يَغْضَـب. لِهٰذا أَهْتَمُّ كَثيرًا بِصُنْعِ الأَقْماع.

كانَتْ لَدَى جَدِّي عُقدةٌ نَفْسِـيَّة. يَغْضَبُ كثيرًا إِنْ لَمْ يَجِدْ ما يُريدُه. الأَكياسُ مَثلًا... عَدَمُ وجودِها أَكثرُ ما يُغْضِبُه. تَنْقَسِـمُ لَديْنا الأَكياسُ إِلـى ذاتِ الكيلو واحدٍ، وذاتِ الكيلوَيْنِ، وَذاتِ الخَمْسَةِ كيلواتٍ.

لِنَقُلْ مَثَلًا إِنَّ الزَّبونَ طَلَبَ كيلو مِنَ السُّكَّرِ، وَأَنا مَلَأْتُ لَهُ السُّـكَّرَ في كيسٍ ذي كيلوَيْنِ، فَإِنَّ جَدِّي يَكادُ يُجَنُّ مِنْ شِدَّةِ الغَضَبِ، لِماذا؟ لا أَعرِف.

البالِغونَ يكونونَ دائِمًا هٰكذا. يُحبُّونَ أَنْ يُحْزِنوا أَنْفُسَـهُمْ لِأُمورٍ تافِهَة! لَقَدْ عَرَفْـتُ طَبْعَ جَدِّي في مَسـأَلَةِ الأَكياسِ. لٰكِنْ بَعدَ حادِثَةِ المُثلَّجاتِ تِلكَ، صِرْتُ أَضَعُ كُلَّ شَـيْءٍ في الأَكياسِ، ذاتِ الخَمْسَةِ

كيلواتٍ، عَمْدًا لإغْضابِهِ لا أَكثَـر. حينَها تَكادُ عيْناهُ تَخرُجانِ مِن مِحْجَرَيْهما مِنْ شِدَّةِ الغَضَبِ، وَأَنا أَقولُ في نَفْسي: أووووه... تَسْتَحِقُّ ذٰلِك!

لَمْ تَكُنِ المُكسَّـراتُ تُباعُ مُغَلَّفةً آنَذاك. يَشْتَري جَدِّي المُكَسَّـراتِ في أَكياسٍ كَبيرَةٍ فيها عِشـرونَ كيلو، نَمْلَأُ الأَقْمـاعَ بِكأْسٍ مِنْها وَنَبيعُهـا لِلزَّبائِن. وَعِنْدَما يَكونُ هُناكَ عُـرْسٌ أَو حَفْلٌ أَو مِهْرَجانٌ في القَرْيَةِ يَزدادُ بَيْعُ المُكسَّـراتِ بِشَكْلٍ عَجيب. نَقْضي ساعاتٍ وَنَحْنُ نَمْلأُ الأَقْماعَ الورقيَّةَ بِالمُكسَّراتِ.

في أَحَدِ الأَيّامِ قالَ لـي جَدِّي: «يوجَدُ عُرسٌ في المسـاءِ، لا تنسَـيْ صُنْعَ الأَقْماعِ الوَرَقِيَّة». وَذَهَبَ لِيَتَناوَلَ الغَـداء. بَيْنَما قُمتُ بِقَـصِّ الجرائِدِ وَبَدَأْتُ بِصُنْعِ الأَقماع.

وَفيما كُنتُ أَقومُ بِذٰلِكَ جاءَتْني فِكرةٌ **عبْقَرِيَّة**.

بِما أَنَّ لَدَيْنا عُرْسًا في المسـاءِ سَنَبيعُ الكَثيرَ مِنَ المُكسَّـراتِ. فَإِنْ أَنا قُمْتُ بِتَجْهيزِ المُكسَّـراتِ مِنَ الآنَ، بَدَلًا مِـنْ أَنْ يَنْتَظِرَ الزَّبائِنُ في المسـاءِ، نَكونُ قَدَّمنا خِدمةً أَسْرَع. إِنَّها فِكرةٌ رائِعَة. وَبَدأْتُ للتَّوِّ بِمَلْءِ

الأَقْماع. مَلَأْتُ خَمْسينَ قِمْعًا بِالضَّبْط. صَفَفْتُها في عُلبةٍ بانتِظامٍ، وَكُنتُ أَنتَظِرُ الشُّكرَ والتَّهْنِئَةَ مِنْ جَدِّي.

حينَما عادَ مِنَ البيتِ رَأى العُلْبَةَ فَوقَ الطّاوِلَة. أَشارَ إِلى العُلْبَةِ المَليئَةِ بِالأَقْماعِ الزّاخِرَةِ بِالمُكَسَّراتِ وسَأَلَني:

«ما هٰذا؟».

«مُكسَّراتٌ، نُقَدِّمُها إِلى مَنْ يُريدُ شِراءَها في المَساءِ. لا داعِيَ إِلى أَنْ نَقومَ مِن مكانِنا. سَنبيعُ المُكسَّراتِ وَنحنُ جالِسونَ في مكانِنا، مُكسَّراتٌ جاهِزةٌ، كيفَ وجَدْتَ الفِكْرةَ؟».

نَظَرَ جَدِّي إِليَّ نَظرَةَ مَنْ يَسْأَلُ مَنْ تُشبِهُ هٰذِهِ البِنْتُ، وقالَ:

«هَلْ أَنتِ كَسولةٌ يا بُنَيَّتي؟ هَلْ تَتَكاسَلينَ تِجاهَ خِدمةِ الزَّبائِن؟ هَلْ أَنتِ مِمَّنْ يُحِبُّ كُلَّ شَيْءٍ جاهِزًا؟».

أَرَدْتُ أَنْ أَقولَ لَهُ: «يا إِلٰهي!.. وَكَيفَ اسْتَنْتَجْتَ هٰذا الأمرَ؟ إِنَّكَ تَبحَثُ عَنِ المَشاكلِ مِنْ تحتِ الظُّفْرِ يا جَدِّي». لٰكِنْ لَيسَ مِنَ اللائِقِ الحَديثُ مَعَ الجَدِّ بِهٰذا الشَّكلِ. لَمْ أَقُلْ لَه غَيْرَ:

«لَوْ أَنَّني كَسولةٌ لَما عَمِلْتُ ما يقارِبُ السّاعةَ لِتَجهيزِها».

وَبَيْنَما كُنّا نتَحاورُ جاءَتْ شُكْرِيَّةُ اللّامِعَة...

طَبْعًا، المُصيبَةُ تَأْتي فَجْأَةً دونَ سابِقِ إِنْذار...

شُكريَّةُ اللّامِعَةُ مُصابةٌ بِمَرَضِ النَّظافَة. عَمَلُها وَهَمُّها التَّنْظيفُ والمُنَظِّفاتُ... في الحَقيقَةِ هِيَ كَبيرةٌ في السِّنِّ، وَمِنَ المَفْروضِ أَنْ لا تَرى عَيْناها بِشَكلٍ جَيِّدٍ، لٰكِنَّها تَرى بِشَكلٍ جَيِّدٍ. تَرى كُلَّ بُقْعَةٍ أَو غُبار. حينَ تَأْتي إِلى الدُّكّانِ تَقولُ لي: «هيّا نَظِّفي هُنا». أَقولُ لَها: «المَكانُ نَظيفٌ!». لٰكِنَّها لا تَقتَنِعُ وَتقولُ لي: «أُريدُ أَنْ أَرى بِعينَيَّ، هَيّا اكنُسي». كَمْ مِنَ المرّاتِ كَنَسْتُ الدُّكّانَ أَمامَ عينيْها! وَطَبْعًا أَمامَ أَعيُنِ الزَّبائِنِ الآخرينَ أَيْضًا.

يا لَهُ مِنْ أَمْرٍ مُزْعِجٍ! لا يوصَفُ! غَيْرَ أَنَّني مُضْطَرَّةٌ إِلى تَنفيذِ أَوامِرِها. لِماذا؟ لِأَنَّ الزَّبائِنَ دائِمًا على حَقٍّ، حتّى ولو كانَتْ طلباتُهُم دونَ معنى. هُمْ عَلَى حَقٍّ دائِمًا.

أَرسلَتْ شُكريَّةُ اللّامِعَةُ حفيدَها إِلى الدُّكّانِ يومًا.

قالَ الطِّفلُ:

«**جَدَّتي تُريدُ روحَ الخَلِّ**». بَحَثْتُ هُنا وهُناك. لَمْ أَجِدْ روحَ الخَلِّ. يقومُ جَـدِّي أحيانًا بِوضْعِ البَضائعِ في أماكِنَ لا يعرِفُ أَحـدٌ أَيْنَ هِيَ إلّا هُو. مَنْ يَدْري أَينَ وَضَعَها؟ لَمْ أَبْحَثْ طويلًا.

لٰكِنَّني أَرْسَلْتُ إلى شُـكريَّةَ اللّامِعَةِ قارورةً مِنَ الخَلِّ، وَقُلتُ لِحفيدِها:

«أَعْطِهـا لِجَدَّتِكَ، لِتأْخُذِ الخَلَّ الآنَ، وَسَـتَأْتيها روحُهُ لاحِقًا».

بعدَ خَمسِ دقائِقَ بِالضَّبْطِ جاءَتْ شُكريَّةُ، وَبَدَأَتْ تَلومُني على أَنَّني أَسـخَرُ مِنْها، وَأَنَّنـي لا أَخجَلُ، وأَنَّني قليلةُ الأَدَبِ وَقليلَةُ الإِحتـرامِ وَهٰكـذا... وَذَهَبَـتْ دونَ أَنْ تأْخُـذَ روحَ الخَلِّ.

مِـنْ أَكثـرَ مـا تُحِبُّهُ شُـكريَّةُ اللّامِعَـةُ مـاءُ عاكِفٍ. في القَديمِ، القَديمِ

البعيـدِ، كانَ هُناكَ مُنَظِّفٌ مِـنَ الكلورِ اسـمُهُ **ماءُ عاكِف**. تَوَقَّـفَ إنتاجُهُ فيما بعدُ، وجاءَ الكَثيرُ مِـنْ مُنَظِّفاتِ الكلورِ إلى الدُّكّانِ بَدلًا مِنْه. لَمْ نَسْـتَطِعْ إقْناعَ شُكريَّةَ اللّامِعَةِ بغيْرِه.

«لَمْ يَعُدِ المَصْنَعُ يُنْتِجُ هٰذا النَّوعَ مِنَ المُنَظِّفاتِ، لَقَدْ ظَهَرَ الكَثيرُ مِنَ المُنَظِّفاتِ، واسمُ كُلٍّ مِنْها ماءُ الكلورِ. وماءُ عاكِـفٍ أَيْضًا هو ماءُ كلورٍ». لٰكِنْ مَهْما ذَكَرْنا هٰذا لها... وشَرَحْنا... لا تَقْتَنِع.

ذَهَبْـتْ دونَ أَنْ تَأْخُذَ روحَ الخَـلِّ! بَعدَ نِصفِ سـاعةٍ أَرْسَـلَتْ حفيدَها رَمضانَ مرَّةً أُخْرى. جَدَّتي تُريدُ ماءَ عاكِف. فَكَّرْتُ أَنْ أَشْرَحَ الأَمْرَ لِلْحَفيدِ لَعَلَّهُ يَسْتَطيعُ إقْناعَ جَدَّتِهِ، قُلْتُ لَهُ:

«لَيْسَ لَدَيْنا ماءُ عاكِفٍ، لَقَدْ أَمْسَـكَتِ الشُّـرْطَةُ بِعاكِف. إنَّهُ يَتَبَوَّلُ في القَواريرِ وَيَبيعُها لَنا عَلى أَنَّها ماءُ كلورٍ. هٰذا ما اسْتَخْدَمْناه لِسِـنينَ طَويلَة. ولهٰذا السَّـببِ يكونُ لونُ ماءِ الكلورِ ذاكَ أَصْفَـرَ. لَمْ نَعُدْ نَبيعُه. اذكُرْ ذٰلِكَ لِجَدَّتِك، وَسأُعْطيكَ نوعًا آخَرَ مِنْ ماءِ الكلورِ تأْخُذُه إِلَيْها»، وَأَرْسَلْتُ الحفيدَ.

بَعْدَ خَمسِ دَقائِقَ دَخَلَتْ شُكريَّةُ اللّامِعَةُ وقدِ احتَدَّتْ غَضَبًا. كانَ جَدِّي أَيْضًا مَوْجودًا. ذَكَرَتْ أَشياءَ كَثيرَةً لِجَدِّي. ذَكَرَتْ أَنَّني سَخِرْتُ بِها وأَنَّني أَرْسَلْتُ لَها الخَلَّ بَدلًا مِنْ روحِ الخَلِّ، وَأَنَّني كاذِبَةٌ وأَفْتَري عَلى النّاس.

قُلْتُ في نَفْسي: «وَما دَخْلُكِ أَنتِ؟ هَلْ أَنْتِ مُحامي عاكِفٍ؟» لٰكِنَّني لَمْ أَنْطِقْ بِأَيَّةِ كَلِمَة. فيما بعدُ حَدَثَ التّالي:

«هَلْ صَحيحٌ ما ذَكَرَتْهُ الخالَةُ شكريَّةُ؟»

«إِنَّها تُبالِغُ يا جَدِّي».

«قولي الصِّدقَ، ماذا قُلْتِ لَها؟»

«لَمْ أَجِدْ روحَ الخَلِّ، أَرْسَلْتُ لَها الخَلَّ، وَقُلتُ إِنَّنا سنُرْسِلُ الروحَ لاحِقًا».

«وَلِمَ لَمْ تَجِدي روحَ الخَلِّ؟»

«وَما أَدْراني أَينَ وَضَعْتَهُ أَنْتَ لذٰلِكَ لَمْ أَجِدْه! لَوْ وَجدتُهُ لَبِعْتُهُ بِالتَّأكيدِ! أَلا أَرغَبُ في أَنْ يَكسِبَ الدُّكّانُ، وَيَزدادَ ربحُنا، ونَبْني طابِقًا آخَرَ لِلدُّكّان؟»

«دَعيني مِنْ هٰذا الهُراءِ... ما هُوَ ماءُ عاكِفٍ؟»

«وَمـا أَدْراني أَنـا؟ إِنَّها تطلبُ مـاءَ عاكِفٍ وَلا تطلُبُ شَيْئًا غيرَه. كَرَّرْتُ مِرارًا أَنَّهُ غَيرُ مُتوفِّرٍ، لٰكِنَّها لَمْ تَفْهَمْ، لِـذا لَفَقْتُ حِكايَـةَ أَنَّ عاكِفًـا يَتَبَوَّلُ في القوارِيرِ لِذٰلِكَ أَمسَكَتْهُ الشُّرْطَة».

في هٰذا القِسْمِ مِنَ الحِوارِ ابْتَسَمَ جَدِّي قَليلًا. لَمْ يَنْزَعِجْ، لٰكِنَّني فَهِمْتُ ذٰلِكَ مِنْ نَظَراتِهِ. هُوَ أَيْضًا لَمْ يَكُنْ يُحِبُّ شُكريَّةَ اللّٰامِعَةَ. لَقَدْ كانَتْ تأْمُرُهُ بِالكَنْسِ هُوَ أَيْضًا. كُنْتُ أَعْرِفُ ذٰلِك.

«لا تَكْذِبي عَلـى الزَّبائِنِ، وَلَيسَ عَلـى الزَّبائِنِ فَحَسْبُ، بَلْ لا تَكْذِبي عَلى أَحدٍ».

لَمْ يُطلِ اللَّومَ، كُنْتُ أَتَوَقَّـعُ أَنْ يُطيلَ في لَوْمي جرّاءَ شَكْوى شُكريَّةَ اللّٰامِعَةِ، وَقَدْ يَغْضَبُ عَليَّ. هٰذا يَعْني أَنَّني عَلى حَقٍّ، فَهُوَ أَيْضًا لا يُحِبُّ هٰذِهِ المَرأَة.

غَيْرَ أَنَّهُ في ذٰلِكَ اليومِ، يَوْمِ حادِثَةِ المُكَسَّـراتِ، كانَ آخِرَ مَنْ يَجِبُ أَنْ يَأْتي هُوَ شُكريَّةُ اللّٰامِعَةُ. دَخَلَتِ الدُّكّانَ وَقالَتْ: «أَعْطيني قِمْعَيْنِ مِنَ المُكَسَّرات».

وَعَلى الفَورِ ناوَلْتُها قِمْعَينِ مِنَ الأَقْماعِ الَّتي كنتُ جَهَّزْتُهـا مُسْـبَقًا، وَقلـتُ لَهـا: «تَفَضَّلي هـا هُما جاهِزانِ... تَفَضَّلي».

«لا... لا أُريدُ مِنْها... مَنْ يَدري مَتّى مَلَأْتِها!؟. مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّها أَصبَحَتْ بائِتَــة. ثُمَّ ما أَدْراني كيفَ مَلَأْتِها: بِالْكَأْسِ أَمْ بِيَدَيْكِ؟ وَهَلْ كانَتْ يَداكِ نَظيفَتَيْنِ حينَها؟ هيّا امْلَئي لي مِنْ جَديدٍ لِأَرى بِأُمِّ عَيْني».

عِنْدَها نَظَرَ جَدّي إِلَيَّ نَظــرَةً مَفادُها «**أَرَأَيْتِ؟!**». ثُمَّ قالَ لي: «هيّا اذْهَبي وَأَفْرِغي تِلكَ المُكَسَّرات».

أَفْرَغْتُ الأَقْمــاعَ كُلَّها وأَنا غَضْبى مِنْ شُــكريَّةَ. وَعِنْدَما بَــدَأَ العُرسُ، بَعْدَ ســاعتَيْنِ، مَلَأْتُ الأَقْماعَ ذاتَها بِالمُكَسَّراتِ وَبِعْتُها لِلزَّبائِن.

أَردْتُ أَنْ أَكْتُــبَ مادَّتــي السّــابِعةَ ـ وَأَنا ضائِقٌ صَدْري ـ فــي دَفْتــري الَّــذي ســمَّيْتُهُ «**المَواضيعُ الحسّاســةُ الَّتي يَجِبُ عَلى الصِّغارِ الِانْتِباهُ إِلَيْها في أَثناءِ تَواصُلِهِمْ مَعَ الكِبار**». كُنتُ مُنْزَعِجةً كَثيرًا، حَتّى إِنَّني لَمْ أُطِلْ.

المادَّةُ السّابِعةُ

ليسَ هُناكَ ما يُعْرَفُ بِالتَّجديدِ...

الإِبداعِ، أَوِ التَّفْكيرِ العَمَلِيِّ...

لَدى البالِغينَ...

نُقْطةٌ... انْتَهى...

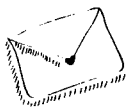

أُحِبُّكَ

إذا كُنْتَ تُريدُ أَنْ تَكونَ عامِلًا جَيِّدًا عِندَ بَقّالٍ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُمسِكَ لِسانَك. لا داعِيَ إلى أَنْ تُغْلِقَ فَمَكَ، كُلْ ما تُريدُ قَدْرَ اسْتِطاعتِكَ. لَسْتَ مُضْطَرًّا إلى أَنْ تَصْمُتَ. يُمْكِنُكَ الحَديثُ قَدْرَ ما تَشاءُ. لٰكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَحْفَظَ لِسانَكَ. لِأَنَّكَ إِنْ أَصْبَحْتَ بَقّالًا سَتَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الأُمورِ الَّتي لا يَعرِفُها الجَميعُ...

أَحْيانًا يَأْتي أَشْخاصٌ يكونونَ في ضيقٍ مادِّيٍّ، يَطْلِبُونَ أَغراضًا بِالدَّيْنِ مِنْ جَدِّي. يُحَذِّرُني جَدِّي: «لا تَقولي لِأَحدٍ هَلْ أَنْتَ في ضيقٍ مادِّيٍّ؟». لَنْ أَقولَ لِأَحدٍ، ثُمَّ... ما دَخْلي أَنا!؟

وَفي بَعضِ الأَحيانِ يَأْتي زبونٌ وَيقولُ إِنَّهُ لا يَسْتَطيعُ سَدادَ دَيْنِهِ، فَيُجيبُهُ جَدِّي: لا عَلَيْك. هٰذا الوَضْعُ يُزْعِجُني، لٰكِنَّني لا أُصَرِّحُ لِأَحَدٍ حَتّٰى لا يَغْضَبَ جَدِّي.

وَفي أَحيانٍ أُخْرى يَأْتي المُتَخاصِمونَ إِلى جَدِّي، فَيُصبِحُ جَدِّي عامِلَ صُلْحٍ بَيْنَهُم. يَتَصالَحونَ ويَرْحَلون. وَطَبْعًا يُحذِّرُني جَدِّي مُجدَّدًا:

«إِيّاكِ أَنْ تُخْبِري أَحَدًا بِما يَجْري ويَحدُثُ هُنا».

وَما دَخْلي أَنا؟ وَلِماذا أُخبِرُ بِهِ؟

غَيْرَ أَنَّني، في الأَوْقاتِ الَّتي يَشْتَدُّ غَضَبي فيها عَلى جَدِّي، أَذْهَبُ إِلى جَدِّي القَهْوَجي وأَذْكُرُ لَهُ كُلَّ ما يَحْدُثُ مِنَ الأَلِفِ إِلى الياء. وَلِكثْرَةِ التَّراكُماتِ، في داخِلي، فإِنَّني أُضيفُ عَلَيْها مِنْ مُخيِّلَتي أَيْضًا. إِلّا أَنَّ جَدِّي القَهْوجي لا يهُمُّهُ ولا يغمُّهُ شيْءٌ، فإِنْ قُلتُ لَهُ: «هَلْ سَمِعْتَ؟؟ لقدِ احْتَرَقَ العالَمُ». يأْتي جوابُهُ عِبارةً عَنْ: «هَلْ أَنْتِ جادَّةٌ!؟» فَقَطْ لا غَيْر.

عِندَما أُخبِرُ جَدِّي القَهْوَجي بِكلِّ ما حَدَثَ في الدُّكّانِ يقولُ لي: «لا عليْكِ، هيّا اشرَبي شايَ الفاكِهَة». توقَّفَ تفكيرُهُ عندَ شايِ الفاكِهَة! لا يستَغْرِبُ أبدًا ما أَذْكُرُه. بِالنِّسْبَةِ إِليَّ لا قيمةَ لِلْخبرِ

الَّذي لا يســتغْرِبُ مِنْهُ أَحدٌ. لِهٰذا لا أُبالي كَثيرًا إِلّا في حالةٍ واحدةٍ، عِنْدَما تَأْتي الأُختُ شُكْرانُ، حينَها أَكونُ كُلِّيًا آذانًا صاغِيَةً، وَأَبْتَسِــمُ حتّى تَبْدو أَسْناني الاثنَتانِ والثَّلاثون. ذٰلِكَ لِأَنَّ الأُختَ شُكْرانَ تَشتَري خَمْسَ بِطاقــاتِ اتِّصالٍ، فَحبيبُها فــي خِدمةِ العَلَمِ، وَبِهٰــذِهِ البِطاقاتِ تَتَّصِلُ بِهِ، وَتَجْعَلُني حارِســةً عِنْدَ كِشْكِ الهاتِفِ، وَتَقولُ لي:

«إِنْ جــاءَ أَحَدٌ انْقُــري عَلى الزُّجــاج»، طَبْعًا لا

تَنْسى أَنْ تُنَبِّهَني قائِلةً: «لٰكِنْ لا تَسْتَمِعي إِليَّ». أَقولُ لَها حينَئذٍ:

«وَلِمٰاذا أَسْتَمِعُ إِليكِ يا أُخْتي شُكْران؟ لَوْ تَعْلَمينَ ما الَّذي يَحدُثُ في هٰذا الدُّكّانِ! كَمْ مِنْ فُقَراءَ يُوزِّعُ عَلَيْهِمُ جَدِّي النُّقود؟

كَمْ مِنْ مُتَخاصِمينَ يُصْلِحُ بَيْنَهُم! كَمْ مِن مُشاحَناتٍ تَحدُثُ في هٰذا الدُّكّانِ! كَمْ مِنَ الحِساباتِ الَّتي تُمْحى!... عِنْدي عِلمٌ بكلِّ هٰذا، لٰكِنّي لا أُخْبِرُ عنْها أحدًا».

عِنْدَما تَدْخُلُ الأُختُ شُكرانُ كِشْكَ الهاتِفِ تَنْسى نَفْسَها تَمامًا، لا أُحِبُّ البِطاقَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ لِأَنَّهما تَفْرَغانِ: «كيفَ حالُكَ؟ هَلْ أَنْتَ بِخَيْرٍ؟ أَنا بِخيرٍ أَيْضًا، أَخي يَقولُ كَذا، وَأَبي قالَ كَذا».

بَعدَ البِطاقَةِ الثّالِثةِ يبدَأُ القِسْمُ الحَماسِيُّ. تَقولُ الأُختُ شُكرانُ: «أَنا أُحِبُّكَ، أُحِبُّكَ كَثيرًا». وَتَحْلِف.

«اشْتَقْتُ إِلَيْكَ، سَنَلْتَقي قَريبًا».

وَأَنا أُلْصِقُ أُذْني بِزُجاجِ الكِشْــكِ وَأَسْتَمِعُ إِلَيْها. تَضْحكُ الأُختُ شُــكرانُ، وَتَنْتَهي البِطاقاتُ. تَخْرُجُ الأُختُ شُكرانُ مِنَ الكِشْكِ مُحْمَرَّةَ الخَدَّيْن.

أَبوها لا يُوافِقُ عَلى تَزْويجِها مِنْ هٰذا الشّــابِّ. وَجَدِّي أَيْضًا لا يُــزَوِّجُ عَمَّتي بِمَــنْ تُحِبُّ. كَمْ هٰذا مُزعِج! يَومًا ما سَــأَجِدُ طَريقةً أَجمَعُ فيها بَيْنَ هٰؤلاءِ العُشّاقِ جميعًا.

حَسَنٌ الأَقْرَعُ، والِدُ الأُخْتِ شُكرانَ، رَجُلٌ ضَخْمُ الجُثَّةِ، طَويلُ القامَةِ، كَبيرُ البَطْنِ. يُكْثِرُ مِنَ الأَكْلِ ولا يَشْبَعُ... لا يَخْجَلُ مِنْ نَفْسِه.

(في الحَقيقَةِ؛ حَسَنٌ الأَقْرَعُ رَجُلٌ عادِيٌّ، إِلّا أَنَّني أَراهُ بِعينَيِّ حبيبِ شُكرانَ بِهٰذا الشَّكْل).

أَحْيانًا أَبيعُ حَســنًا الأَقْــرَعَ بَعــضَ البَضائِعِ بِضِعْفِ أَسْــعارِها، أَرْفَعُ لَهُ السِّــعْر. إِنْ لَمْ يُعجِبْهُ السِّعرُ لا يَشْــتري، هُوَ حُرّ. لَيسَ هُناكَ دُكّانٌ آخرُ. إِنَّنــي أَجمَعُ النُّقــودَ الفائِضَــةَ الَّتي آخُذُهــا مِنْهُ

وَأَضَعُها جانِبًا. مَصاريفُ عُرسِ الأُختِ شُكرانَ. هٰذا ما أُفَكِّرُ فيهِ.

عِندَما تَأتي الأُختُ شُكْرانُ أُعْطيها خَمسَ بِطاقاتِ اتِّصالٍ إِضافيَّة. وَهٰكذا أَكونُ قَدْ حَقَّقْتُ العَدْل. وَحينَ أَعْطَيْتُ الأُختَ شُكرانَ بِطاقاتٍ إِضافِيَّةً سَأَلَتْني لِماذا أُعْطيها زِيادَةً عَنْ طَلَبِها.

أَجَبْتُها: «لَدَيْنا عَرضٌ لِيَوْمٍ واحِدٍ في الأُسْبوعِ عَلى بِطاقاتِ الاتِّصالِ». طبْعًا لَمْ أَذْكُرْ لَها أَنَّني آخُذُ ثَمَنَها مِنْ أَبيها، وإِلّا لَما أَخذَتْها خَوْفًا: فَخَمْسُ بِطاقاتِ اتِّصالٍ إِضافِيَّةٍ تَعْني الكَثيرَ مِنْ كَلِمَةِ «أَنا أُحِبُّكَ». في المَرَّةِ الأُولى كانَتِ النَّتيجَةُ جَيِّدَةً، تَبادَلا الحَديثَ الجَميل. أمّا عِندَما أَعطيْتُها بِطاقاتٍ إِضافِيَّةً، في المرَّةِ الثّانِيَةِ، كَانَتِ النَّتيجةُ سيِّئَةً، فَقَدْ تَشاجرا بِهٰذِهِ البِطاقات. مِنَ الصُّعوبَةِ بِمَكانٍ فَهْمُ هٰؤلاءِ العُشّاق...

كانَتِ الأُختُ مَرْوَةُ والأَخُ فَريدٌ أَيْضًا عاشِقَيْنِ بِجنونٍ. جَرَتْ حوادِثُ كَثيرَة. قالَتْ مَروَةُ حينَها:

«سَـأَهْرُبُ مَعَهُ». والأَبُ يَقولُ: «لَـنْ أُزَوِّجَكِ مِنْه». عانَدَتِ الفَتـاةُ، وعانَدَ فريـدٌ وَالِدَ الفَتـاةِ. دَخَلَتِ الوَسـائِطُ بَيْنَهُم...حوادِثُ تَلـي الحَوادِثَ... وَفي النِّهايَةِ تَزَوَّجا. والآنَ يَتَشـاجَرانِ بِاسْتِمْرار. هُما مِنْ جيرانِنا ونَسمَعُ أَصواتَ شِجارِهِما عَلى الدَّوام.

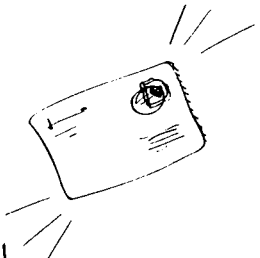

ها هِـيَ شُـكرانُ وحَبيبُهـا أَيْضًا يَتَشـاجرانِ. قَطَعْتُ عَنْهـا البِطاقاتِ الإضافِيَّـةَ. لا توجدُ هُنـاكَ بِطاقاتٌ إِضافِيَّـةٌ بَعـدَ الآن. لا توجَـدُ هُنـاكَ بِطاقاتُ اتِّصالٍ حَتّى. وقُمْتُ بِتَخْفيضاتٍ لِلْعَمِّ حَسَنٍ الأَقْرَع. سَأَبيعُهُ كلَّ شَيْءٍ بِسِعْرِهِ الأَصْلِيّ. أووووه... الآنَ ارْتَحْتُ!

عِنْدَما جاءَتِ الأُخْتُ شُـكرانُ في المرَّةِ التّالِيةِ لَمْ أَبِعْها بِطاقاتٍ أبدًا وقلتُ لَها: «لَـمْ يَبْقَ لَدَيْنا». بِعْتُها أَوراقًـا وَظَرفًا وَقَلَمَ حِبْـرٍ. لِتَجْلِسْ وتَكتُبْ، فَعَلى كُلِّ حالٍ سَـتأْتي إِلى الدُّكّانِ مُجدَّدًا لِتُرْسِلَ البَريد. لِأَنَّنا نَحنُ مَنْ يَجمَعُ الرَّسائِلَ. يَذْهَبُ جَدِّي

مَرَّةً واحِـدَةً في الأُسـبوعِ إلى البَريـدِ وَيضَعُ كُلَّ الرَّسائِلِ جُمْلَةً.

قِراءَةُ الرِّسالةِ الأُولى الَّتي كَتَبَتْها الأُخْتُ شُكرانُ لا بَأْسَ بِها. أمّا الرِّسالةُ الثّانِيةُ فَكانَتْ تَحْتَوي عَلى بَعضٍ مِنَ الكَلامِ الفارِغ. مَسَـحْتُ كلماتِ الصَّفْحَةِ الأَخيرَةِ مِنَ الرِّسالةِ وَكَتَبْتُ بَدَلًا مِنْها شِعْرًا.

مِسْكينةٌ الأُخْتُ شُـكْرانُ... كانَتْ تقولُ لَهُ عَبْرَ الهاتِفِ أَنا أُحِبُّكَ، لٰكِنَّها لَمْ تَكتُبْ ذٰلِكَ في الرِّسالةِ. لا بُدَّ أَنَّها خافَتْ مِنْ أَنْ يَقْرَأَهـا أَحَدٌ. مَنْ يُمكِنُ أَنْ يَقْرَأَها؟ لا أَحدَ يَقْرَؤها غَيْري. وَأَنا لا أُخْبِرُ أحدًا بِها. لَيْتَهـا كَتَبَتْها... ما مِنْ مُشْـكِلَةٍ سـأَكْتُبُها أَنا. وَكَذا الشِّـعْرُ لا يجِبُ أَنْ يكونَ واضِحًا جِـدًّا. يَكْفي أَنْ يُخبِرَ عَنْ حَياةِ شُكرانَ اليومِيَّة:

«أ»ستَيْقِظُ في الصَّباحِ الباكِر.

«حُ»رَّةً أُنَظِّفُ البَيْتَ... ما أَسْوأَ أَخي وَأَبي.

«بِ»سرعَةٍ أَذْهَبُ إلى الدُّكّانِ، وَأَشْتَري بِطاقاتِ اتِّصال.

«ك»تَبْتُ لَكَ هٰذا الشِّــعرَ، اقرأْ مِــنَ الأَعْلَى إلى الأَسْفَل.

نُظِّمَ الشِّعرُ بِأفضلِ شَكلٍ، إلّا أَنَّني لَمْ تُطاوِعْني نَفْســي أَنْ أَكتُبَ تَحْتَه اســمَ شُــكران. صحيحٌ أنَّ الرِّسالةَ لِشُــكرانَ، وَلٰكِنَّ الشِّعرَ شِــعْري... كَتبتُ اسْمي وأَرْسَــلْتُها، وإذا ما سَــأَلَها حبيبُها تُوَضِّحُ لَهُ شُكرانُ الأَمرَ. وَهلْ عَليَّ أَنْ أُفكِّرَ بِهٰذا أَيْضًا؟

هَلْ يَتَوَجَّبُ عَليَّ أَنْ أُفَكِّرَ في كُلِّ شَيْءٍ في هٰذا الدُّكّانِ؟

مكتبة
t.me/t_pdf

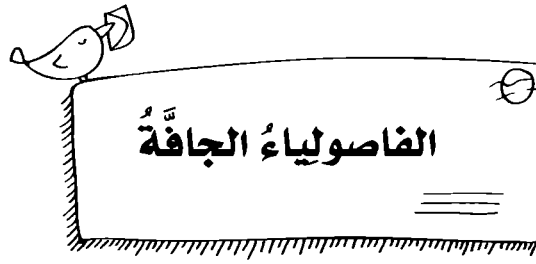

الفاصولِياءُ الجافَّةُ

أَكْثرُ مـــا يُعْجِبُني في هٰذا الـــدُّكّانِ، لَيْسَ إِعجابًا فَحَسْبُ، بَلْ أَتَشَـــوَّقُ دائِمًا إِلى القيامِ بِهِ، هُوَ قارورةُ تَعْبِئَةِ الكولونِيا.

لا أَشْـــبَعُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْها. كانَ جَدِّي قَدْ وَضَعَها في الزّاوِيَة. كَانَتْ كَبيرةً ومُنْتَفِخة، عَلَى جانِبِها مِنْفاخٌ مُتَدَلٍّ، شَيْءٌ رائِع. تَنْتَصِبُ في الزّاوِيةِ وَحْدَها دائِمًا، لِذٰلِكَ سَـــمَّيْتُها المُدير. هُناكَ كولونِيا تُباعُ بِالقَواريرِ أَيْضًا، لٰكِنْ هٰذِهِ كانَـــتْ أَرْخَص. وَالتَّعبئَةُ مِنْها كانَتْ مُمْتِعَةً لِلْغايَة. لِهٰذا السَّـــبَبِ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتي المِهَنِيَّةِ، أَنْصَحُ الزَّبائِنَ في أَثْناءِ بَيْعي الكولونِيا لَهُمْ بِما هُوَ رَخيصُ السِّعر.

«لا داعِي إِلى شِراءِ الكولونِيا بِالقَواريرِ الجاهِزَةِ، أَحْضِرِ القارورَةَ الفارِغَةَ لِنَمْلَأَها لَكَ، فَرائِحَتُها أَزْكى، كولونِيا اللَّيْمونِ الحَقيقِيِّ، فيها لَيْمونٌ حَقيقِيٌّ، لٰكِنَّنا أَخرجْناهُ مِنْ داخِلِها».

فيما بَعدُ رُحْتُ أَقولُ في داخِلي تِسعَ مَرّاتٍ: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ**».

كِدْتُ أَموتُ مِنَ الكَذِبِ في هٰذا الدُّكّان... لٰكِنَّ مَنْظَرَ قارورَةِ تَعْبِئَةِ الكولونِيا جَميلٌ جِدًّا لا يُقاوَمُ. أَمْلَأُ قَعْرَ كَفّي بِها كُلَّما مَرَرْتُ بِجانِبِها وَأَمْسَحُها على صَدْري فَتفوحُ الرّائحةُ العَطِرَة.

سَمِعْتُ قَوْلًا مفادُهُ: إِنْ مَسَحْتِ شَعْرَكِ بِالكولونِيا، وتَعَرَّضْتِ لِأَشِعَّةِ الشَّمْسِ، يَفْتَحُ لَونُ شَعرِكِ. لِذا وَضَعْتُ رَأْسي، في إِحْدى المرّاتِ، تَحْتَ قارورَةِ الكولونِيا وَغَسَلْتُ شَعْري كُلَّه. فاحَتِ الرَّوائِحُ العَطِرَةُ، غَيْرَ أَنَّني لاحظْتُ فيما بَعْدُ أَنَّ القارورَةَ فَرَغَتْ تَمامًا.

عِنْدَما تَفْرُغُ ثَلّاجَةُ المِياهِ الغازِيَّةِ مِنَ

القواريرِ، كنتُ أَمْلَؤها مُجَدَّدًا مِنَ المَخْزَنِ، لٰكِنْ لَمْ تَكُنْ لَدَيَّ أَيَّةُ فِكْرَةٍ مِنْ أَيْنَ يُمْكِنُ أَنْ أَمْلَأَ قارورَةَ الكولونِيا الكَبيرَة.

دَخَلْتُ المَخْزَنَ وَبَحَثْتُ بَيْنَ كُلِّ الأَوْعِيَةِ، وَغَضِبْتُ عَلى جَدِّي مِئاتِ الأَضْعافِ: «مَنْ يَدْري أَيْنَ وَضَعَها بِحَيْثُ إِنَّني لا أَجِدُها؟!». عُدْتُ إِلى مَكاني دونَ أَنْ أَجِدَ شَيئًا.

وَجَّهْتُ سُؤالِيَ إِلى القارورَةِ الكَبيرَةِ: «ماذا سَنَفْعَلُ الآنَ يا سَيِّدي المُدير؟!».

فَكَّرْتُ أَنْ «أَمْلَأَها بِالماءِ». لَنْ تَكونَ نِهايَتي سَعيدةً إِنْ لاحَظَ جَدِّي ذٰلِكَ. وَكُنْتُ سَمِعْتُ أَنَّ نورَ الدِّينِ الحَلّابَ «يُضيفُ الماءَ إِلَى الحَليبِ». فَإِنْ أَضَفْتُ أَنا أَيْضًا الماءَ إِلى الكولونِيا لَنْ تَسْتَطيعَ قُوَّةٌ في الأَرْضِ أَنْ تُفْلِتَني مِنْ بَيْنِ يَدَيْه.

أَخيرًا، قَرَّرْتُ أَنْ أَقولَ لَهُ: «بِعْتُها»، فَإِنْ سَأَلَني عَنْها أَسْتَغْفِرُ اللهَ إِحْدى عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ ذٰلِكَ، وَماذا في هٰذا الأَمرِ؟

وَفِعْلًا سألَني.

دَخَلَ جَدِّي مِنَ البابِ، والَّذي حَدَثَ هُوَ:

«مـا هٰـذِهِ الرّائِحَـةُ؟ وَكَأَنَّهـا رائِحَـةُ حانوتِ الحلّاقِ!!. لَقَدْ مَلَأْتِ الدُّكّانَ بِالرائِحَة!».

«لَقَدْ بِعْتُ الكَثيرَ مِنَ الكولونِيـا، وَأَظنُّ أَنَّ هٰذا هُوَ السَّبَب».

«اليومَ لَيسَ يومَ عيدٍ وَلا غيرَهُ، ما أَمْرُ الكولونِيا هٰذا؟»

«لا أَعْرِفُ... جاؤوا مِنَ القَرْيَةِ المُجاوِرَةِ، ذَكروا أَنَّ هُنَاكَ احتِفالًا أو ما شابَهَ، وَأَنَّهُ يَلزَمُهُمْ الكَثيرُ مِنَ الكولونِيا. مَلَأْتُ لَهُمْ ثَلاثَ قَوارير».

«احْتِفال!»

«نَعَمْ، هٰذا ما ذَكَروهُ، يَلْزَمُهُمْ كولونِيا».

«تَعالَيْ إِلى هُنا».

«إِلى أَيْنَ؟»

«قَرِّبي رَأْسَكِ، قَرِّبيهِ..».

«...»

«مُبتَـلٌّ تَمامًا بِالكولونِيا! هَلْ غَسَـلْتِ شَـعْرَكِ بِالكولونِيا يا ابْنَتي؟ مَنْ تُشْبِهينَ أَنتِ؟ لِماذا تَقومينَ بِأَفْعـالٍ غَريبَةٍ لا مَعْنى لَهـا؟ هَلْ أَفْرَغْـتِ قارورةَ الكولونِيا عَلى رَأْسِكِ؟»

غَضِبْتُ وَاشْـتَدَّ غَضَبـي... وَآلَمَني رَأْسـي مِنَ الكولونِيا. غادَرْتُ الدُّكّانَ وأَنا أَبْكي بَيْنَما كانَ جَدّي يُتَمْتِمُ ويُثَرثِرُ مِنْ خَلْفي. جَلَسْتُ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ، وَلَمْ أَسْتَغْفِرِ اللهَ حَتّى، وَلَمْ يَفْتَحْ لَونُ شَعْري.

بَعْدَ هٰذِهِ الحادِثَةِ بَقيتُ بَعيـدةً عَنِ المُديرِ لِفَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَن. أَقْصِدُ قارورَةَ الكولونِيا...

كُنتُ أُحِبُّ الكولونِيـا في الشِّـتاءِ أَيْضًا، وَكَما ذَكَرْتُ لَكُـمْ كَانَ جَدّي يَضَعُ مِدْفأةً في الشِّـتاءِ في الدُّكّانِ، وكُنتُ أُسـاعِدُهُ طَوالَ العُطْلَـةِ الإنْتِصافِيَّة. عِنْدَما يَغيبُ جَـدّي عَنِ الـدُّكّانِ، آخُـذُ غَرْفَةً مِنَ الكولونِيا وأَرُشُّـها فَوقَ المِدْفأَةِ فَتَتَصاعَدُ الشَّراراتُ الزَّرْقاءُ والبَنَفْسَـجِيَّةُ بِتأَثيرِ الكُحـولِ فيها. وَعِندَما يَأْتي الأَولادُ الصِّغارُ أُقدِّمُ لَهُم عَرْضًا.

«انْظُروا إِلى ما سَـأَعْرِضُهُ عَلَيْكُـم. انْظُروا إِلى الكولونِيا المَوْجـودَةِ في يَدي. عِنْدَما أَرُشُّـها عَلى المِدْفأَةِ... هووووب... انْظُروا إِلى الأَلْوانِ الزَّرْقاءِ. جَرِّبوها في بُيوتِكُـمْ إِنَّها مُمْتِعَـةٌ لِلّغايَة». لا يَكْفي أَنَّني كنتُ أَقومُ بِالعَرْضِ، بَلْ أُشَـجِّعُ الأَوْلادَ عَلى القِيامِ بِهِ أَيْضًا.

في يَوْمٍ مِـنَ الأَيّامِ أَمْسَـكَني جَـدِّي وَأَنا أَقُومُ بِالعَرْضِ. مَتـى وَكَيْفَ جـاءَ لا أَدْري. كُنْتُ مُركِّزَةً تَمامًا عَلى العَرْض.

وَطَبْعًا غَضِبَ كَالعادَة.

كُنتُ أَتَذَمَّرُ في نَفْسـي قائِلَةً: «آهِ كَمْ يَخْشى أَنْ تَنْفَدَ الكولونِيا! هَلْ يُمْكِنُ لِلإِنْسانِ أَنْ يَكونَ بَخيلًا إِلى هٰذِهِ الدَّرَجَةِ؟». ثُمَّ أَتَذَكَّرُ أَنَّهُ جَدِّي. أَحْزَنُ عَلَيْهِ، فَتَرِقُّ مَشاعِري.

رُبَّما يَخْشـى أَنْ تَشْـتَعِلَ النِّيرانُ فـي الدُّكّانِ، وَأَكُونَ سَبَبًا في إِفْلاسِـه. هٰذا ما كنتُ أُفَكِّرُ بِه. أَمّا

فِكْرَةُ خَوْفِهِ مِــنْ أَنْ أُلْحِــقَ الأَذى بِنَفْســي، أَوْ أَنْ أَحْتَرِقَ، فَكانَتْ بَعيــدةً عَنْ تَفكيري تَمامًا. لا تَخْطُرُ في البالِ أُمورٌ كَهٰذِهِ في الطُّفولَة.

لِنَتَقَبَّلْ هٰذا الأَمرَ... لَدى الأَطفالِ مُشْكِلَةٌ كَبيرَةٌ فيما يَتَعَلَّقُ بِتَرْتيبِ الأَحْداثِ حَسْبَ أَهمِّيَتِها. وَلَيْسَتْ لَدَيْهِم مُشْكِلَةٌ أُخْرى.

فَالأَطْفالُ أَشْخاصٌ كامِلونَ...

الدُّكّانُ في فَصْلِ الشِّــتاءِ يكونُ مَكانًا دافِئًا يُطيلُ فيهِ الزَّبائِــنُ أَكثرَ، ويُبطِئــونَ في الشِّــراء. لا مانِعَ بِالنِّسْــبَةِ إِليَّ في بَقائِهِــم فَقَدْ كُنتُ أُحِــبُّ تَجاذُبَ أَطْرافِ الحَديثِ مَعَ الزَّبائِن. كنتُ أَلْعَبُ أَحيانًا لُعبةً لا يَعرِفُها أَحدٌ غَيْري، وَهِيَ أَنْ أَقولَ لِكُلِّ مَنْ يدخُلُ الــدُّكّانَ: «الجَوُّ بارِدٌ جِــدًّا أَلَيسَ كَذٰلِــك؟» وَأَضَعُ الجَوابَ بِنَفْسي، مَثَلًا:

«نَعَمْ، وبارِدٌ جِدًّا»، أَوْ «لَقَدْ تَجَمَّدْتُ»، أَوْ «بارِدٌ كالثَّلْجِ». وإِذا أَجابَني الزَّبونُ الإِجابَةَ الَّتي صِغْتُها في

عَقْلي فإنّي أُكافِئُ نَفْسي بِقِطْعةٍ مِنَ الشّوكولاتَة. وَكُنتُ أَلْعَبُ أَلْعابًا تُشبِهُها. وغالِبًا ما كنتُ أَربَحُ الشّوكولاتَة. وَإِنْ أَنا لَمْ أَرْبحْ أُواسي نَفْسي وَأُقَدِّمُ لَها الشّوكولاتَةَ أَيْضًا.

زبونٌ يَنْفُضُ الماءَ عَنْ مَلابِسِهِ في الخارِجِ وَيَدْخُلُ الدُّكّانَ، يُمْكِنُهُ حينَها أَنْ يَبْقى قَدْرَ ما يَحْلو لَهُ في الدّاخِل. زبونٌ آخَرُ لا يَفْعَلُ ذٰلِكَ، بَلْ يَدْخُلُ الدُّكّانَ وَكَأَنَّهُ رَجلُ الثَّلْجِ، فَيَنْفُضُ مَلابِسَهُ في الدّاخِلِ. تَبْتَلُّ الأَرْضُ فَأُضْطَرُّ إِلى تَغييرِ قِطَعِ الكَرْتونِ الَّتي مَدَدْتُها عَلى الأَرْضِ بَدَلًا مِنَ المِمْسَحَة. وَلِكَيْ أَقومَ بِذٰلِكَ عَلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ إِلى حَديقَةِ الدُّكّانِ **وأَبْرُدَ**، لِذا كُنتُ أَشْعُرُ **بِالغَيْظِ** مِنْ هٰؤلاءِ الزَّبائِن.

رَغْمَ ذٰلِكَ يَكونُ الدُّكّانُ هادِئًا في الشِّتاءِ. القَليلُ مِنَ الزَّبائِنِ يَأْتونَ وَيَذْهَبونَ. وَأَشَدُّ ما يُعْجِبُني في الشِّتاءِ هُوَ أُسْبوعُ رَأْسِ السَّنَة. نَعَمْ، قَدْ يَكونُ دُكّانَ قَرْيَةٍ **عادِيًّا**، لٰكِنْ في النَّتيجَةِ نَحْنُ أَيْضًا نَسْتَقْبِلُ السَّنَةَ الجَديدَة.

كُنّا نَكتُبُ عَلى الزُّجاجِ: **أَهْلًا بِالعامِ الجَديد!**

قبْلَ العامِ الجَديدِ بِعَشْـرَةِ أَيّامٍ، بِالضَّبْطِ، يُحضِرُ جَدّي رَفًّا جَديدًا طويلًا مِنَ المَخْزَنِ، وَعَددًا كَبيرًا مِنْ بِطاقاتِ التَّهْنِئَةِ... وَيَقومُ بِصَفِّها واحِدَةً واحِدَةً على الرَّف. بَعْضُها يَحمِـلُ صُوَرَ مُـدُنٍ، وَبَعْضُها صُورَ مَناظِـرَ ثَلْجِيَّـةٍ، وَبَعْضُهـا الآخَـرُ صُـوَرَ مُمَثِّلينَ ومَشْهورينَ... كانَ النّاسُ يُرْسِلونَ إِلى المُدُنِ البَعيدَةِ بِطاقاتِ تَهْنِئَةٍ، حَيْثُ يَكتُبـون عَلَيْها: **نُهَنِّئُكُم بِالعامِ الجَديـدِ، وَنَتَمَنّى لَكُمْ كَذا، وَكَـذا...** بَعضُهُمْ إِلى أَحِبّائِهِمْ وبَعضُهُم إِلى أَقارِبِهِمْ. وَأَكْثَرُ ما كانَ يُرْسَلُ هُوَ إِلى الأصدِقاءِ في خِدْمَةِ العَلَم.

وَلِأَنَّنا لَمْ نَبِعْ كُلَّ البِطاقاتِ في العامِ الماضي كُنّا نَعرِضُها أَيْضًـا، فَالبِطاقاتُ الجَديدَةُ تُشْـبِهُ القَديمَةَ كَثيرًا: مُدُنٌ وَمَشْهورونَ وَجبالٌ مُغَطّاةٌ بِالثُّلوج...

ذاتَ يـومٍ، وَبَيْنَما كنتُ أَصُـفُّ البِطاقاتِ عَلى الرَّفِّ، خَطَرَتْ في بالي فِكْرَةٌ مُبْدِعَة. هٰذِهِ البِطاقاتُ مُمِلَّةٌ جِـدًّا، مِنَ المُؤَكَّـدِ أَنَّه يُمْكِـنُ تَجْهيزُ ما هِيَ

أَفْضَلُ مِنْها. عَزَمْتُ عَلى ذٰلِكَ... كُنتُ سَأُجَهِّزُ الأَفْضَل. سَأُقَدِّمُ أَجمَلَ البِطاقاتِ الَّتي سَتَشُدُّ إِعْجابَ أَهْلِ القَرْيَةِ جميعًا. بِطاقاتُنا هٰذِهِ سَتَتناقَلُها الأَلْسُنُ وَيَذيعُ صيتُها في كُلِّ القُرى. وَسَأُجَهِّزُ المَزيدَ مِنْها في السَّنَةِ القادِمَة. وهٰكَذا **نَضرِبُ ضَربَةَ العُمْرِ**، فَنَحْنُ نَحتاجُ إِلى الكَثيرِ مِنَ النُّقودِ لِتَوْسِعَةِ الدُّكّان.

فَكَّرْتُ في البِطاقاتِ لِأَيّامٍ عَديدَة. رَسَمْتُها في عَقْلي أَوَّلًا. ثُمَّ قَرَّرْتُ كَيْفَ سَيَكونُ تجهيزُها. البِطاقَةُ تَكونُ سَميكَةً عادَةً. وَلِأَنَّني لا أَمْلِكُ أَوْراقًا سَميكةً قَصَصْتُ أَوْراقًا مِنْ دَفْتَرِ الرَّسْمِ وَأَلْصَقْتُها مَعًا. لَمْ تَكُنْ سَميكةً بِالحَدِّ المَطْلوبِ لٰكِنَّها تَفي بِالغَرَض.

عَمِلْتُ عَلى هٰذِهِ البِطاقاتِ طَوالَ سَنَةٍ كامِلةٍ. فَكَّرْتُ... تَخَيَّلْتُ... رَسَمْتُ... أُعْجِبْتُ بِها، وَأَحيانًا لَمْ تُعْجِبْني، خَبَّأْتُ بَعضَها ومَزَّقْتُ بَعضَها الآخَرَ، ثُمَّ بَدأْتُ مِنْ جَديد...

رَسَمْتُ أَشْكالَ قلوبٍ عَلى البِطاقاتِ الَّتي

سَتُرْسَلُ إِلى المُحِبِّينَ. رَسَمْتُ بِطاقاتٍ فيها شَكلُ قَلبٍ وَعَليْها جُمَلٌ مِنْ مِثْلِ: «أُحِبُّكَ»، «سَأُحِبُّكَ هٰذا العامَ أَيْضًا»، وَلوَّنْتُها.

أَمّا البِطاقاتُ الَّتي ستُرْسَلُ إِلى الأَقارِبِ فَقَدْ رَسَمْتُ عَلَيْها الأَزْهارَ والأَشْجارَ. هَلْ مِنَ الضَّروريِّ أَنْ تُرسَلَ بِطاقاتٌ عَليْها مَناظِرُ الثَّلْجِ لِأَنَّ الفَصْلَ شِتاء؟ يا لِلسُّخْفِ!... إِذا كانَ النّاسُ يُريدونَ أَنْ يَرَوْا مَنظَرَ الثَّلْجِ فَلْيَنْظُروا مِنَ النّافِذةِ إِلى الخارِجِ. يَنْبَغي أَنْ تُرسِلوا إِلى أَحبّائِكُم في الشِّتاءِ بِطاقاتٍ فيها صُوَرُ البِحارِ وَالأَزْهارِ وَالأَشْجارِ الخَضراءِ **لِيشْعُروا بِالطُّمَأْنينَة**. وَأَنا قُمْتُ بِذٰلِكَ وَرَسَمْتُها. لَمْ أَرْسُمْ مَناظِرَ الثَّلْجِ عَلى الإِطْلاق. لَمْ تَكُنِ الأَزهارُ رائِعةَ الجَمالِ، لٰكِنَّ البِطاقاتِ ذاتَ السُّفُنِ في **غايَةِ الرَّوْعَة**.

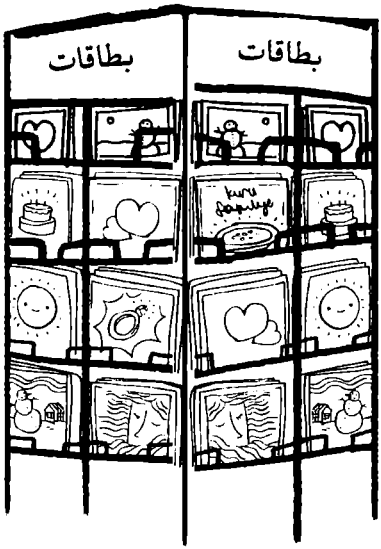

بِطاقـاتُ العُشّـاقِ جاهِـزَةٌ، وَكَـذا بِطاقـاتُ الأَقارِبِ... بَقِيَتْ بِطاقاتُ الفِتيانِ الَّذينَ يُرْسِلونَ إِلى أَصْدِقائِهِـمْ في خِدْمَـةِ العَلَم. لَمْ أَسْـتَطِعْ إيجادَ ما يُمْكِنُ أَنْ أَرْسُـمَهُ لَهُـم. ما الَّذي يَجْعَلُ الشَّـخْصَ يُرْسِلُ بِطاقةً إِلى صَديقِهِ في خِدمَةِ العَلَم؟!

ماذا يُمْكِنُني أَنْ أَرسُمَ لَهُم؟!!!

يُمْكِنُنـي أَنْ أَجِدَ الحَـلَّ لِهٰذِهِ المُشـكِلَةِ إِنْ أَنا سَأَلْتُ الرِّجالَ الَّذينَ أَعْرِفُهُم عَنْ ذِكْرَياتِهِمْ في خِدْمَةِ العَلَم. سُؤَالِيَ المُفْتاحُ هُوَ: «ما أَكْثَرُ ما كُنْتَمْ تَقومونَ بِهِ وَأَنْتُم في خِدْمَةِ العَلَم؟».

سَـأَلْتُ خالي وَكانَ جَوابُهُ: «جَمَعْنا القُمامَةَ مِنْ عَلى الأَرْضِ، كُنّا عَلى الدَّوامِ **نَجْمَعُ القُمامَة**».

سَـأَلْتُ عَمّي فَأَجابَني: «كُنّا نَسْتَيْقِظُ في الصَّباحِ الباكِرِ، كَمْ كُنتُ أَكْرَهُ الِاسْتيقاظَ باكِرًا».

سَـأَلْتُ زَوْجَ خالَتي، فَقالَ: «كُنّا نَأْكُلُ الفاصولِيا الجافَّةَ عَلى الـدَّوامِ، الفاصولِيا الجافَّةُ هِيَ الشَّـيْءُ

الوَحيدُ الَّذي أَذْكُرُهُ. لَقَدْ سَئِمْتُ مِنْ أَكْلِها حَتّى إِنَّني لَمْ أَذُقْها فيما بعدُ بَتاتًا».

كُنــتُ أَتَوَقَّعُ حِكاياتٍ أَكثرَ حَماسَــةً. لا أَعْرِفُ! يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ الجوابُ: «جاءَ جُنودُ العَدوِّ، حارَبْنا، كادَتِ الرَّصاصَةُ تُصيبُني فَرَمى صَديقي نَفْسَهُ أَمامي فَأَصابَتْه هُوَ. لَقَــدْ أَنْقَذَ حَياتي لٰكِنَّــهُ أُصيبَ بِإِعاقَةٍ طَوالَ حَياتِه. رافَقْتُــه لِأَيّامٍ طَويلَةٍ في المُسْتَشْــفى. كانَتِ المُمَرِّضَةُ جَميلةً جِدًّا هُناكَ، عَشِقْتُها، تَزَوَّجْنا، وكانَ الشّاهِدُ عَلى زواجِنا صَديقي في خِدمَةِ العَلَم». أَوْ أَنْ يكونَ مِثلَ هٰذِهِ القِصَص.

كُلُّهُــم جُبَنــاءُ... قُمامَــةٌ، اجتِمــاعٌ، فاصولِيا جافَّةٌ!!! هَلْ يُمْكِنُنا أَنْ نَجْعَلَ مِنْها بِطاقاتٍ؟ فَكَّرْتُ وَفَكَّرْتُ وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ شَيْءٌ مَلْموسٌ إِلّا الفاصولِيا الجافَّة. رسَــمْتُ طَبَقًا مِنَ **الفاصولِيا الجافَّة**. أَرْضِيَّةٌ بُرْتُقالِيَّةُ اللَّونِ وَعَلَيْها حَبّاتٌ بِاللَّونِ السُّــكَّري... وَلِأَنَّها غَيــرُ واضِحَةٍ بِشَــكْلٍ جَيِّدٍ كَتَبْــتُ عَلَيْها: «فاصولِيا جافَّــة»، وَكَتَبْــتُ مُلاحَظَةً بَيْنَ قَوْسَــيْنِ

(كَالأَيّامِ الماضِيَة). لَمْ تُعْجِبْني كَثيرًا. وَضَعْتُ هٰذِهِ البِطاقَةَ بَيْنَ أَخواتِها وَأَنا عَلى يَقينٍ مِنْ أَنَّها «لَنْ تُباعَ وَسَتَبْقى عِنْدي».

في العامِ التّالي، بَيْنَما كُنّا نَقومُ بِالتَّحْضيراتِ لِلْعامِ الجَديدِ، أَخْرَجْتُ بِطاقاتي أَيْضًا. طَبْعًا هِيَ لا تُضاهي بِطاقاتِ المَشهورينَ، لٰكِنَّها أَفْضَلُ بِكثيرٍ مِنْ مَناظِرِ الثَّلْجِ تِلْك. مَعَ ذٰلِكَ لَمْ يَشْتَرِها أَحَد. كُلَّما دَخَلَ زبونٌ كلَّما أَشَرْتُ إِلَيْها: **انْظُرُوا لَدَيْنا هٰذِهِ البِطاقاتُ أَيْضًا**. لٰكِنْ مَعَ الأَسَفِ لَمْ يَنْظُرْ أَحَدٌ إِلَيْها. غَيْرَ أَنَّهُ في أَحَدِ الأَيّامِ جاءَ الأَخُ عُثْمانُ. عُمْرُهُ بَيْنَ 16 ـ 17 عامًا. فتًى لا يُطاقُ. نَظَرَ إِلى البِطاقاتِ، نَظَرَ ونَظَرَ ونَظَرَ، وَأَخيرًا تَناوَلَ بِطاقَةَ الفاصولِيا الجافَّة. قُلْتُ لَهُ: «لا يُمكِنُني أَنْ أَبيعَكَ إِيّاها، أَنْتَ لَمْ تَذْهَبْ إِلى خِدمَةِ العَلَمِ بَعدُ، وَلا تَعْرِفُ المَعْنى مِنْ هٰذِهِ البطاقَةِ. كَما أَنَّه لَيسَ لَكَ صَديقٌ في العَسْكَرِيَّة».

سَأَلَني: «وَهَلْ ذَهَبْتِ أَنْتِ؟».

صَحيحٌ! أَنا أَيْضًا لَمْ أَذهَبْ إِلى العَسْكريَّةِ! فازَ الأَخُ عُثْمانُ، بِعتُهُ البِطاقَةَ بِضِعْفِ ثَمنِها.

هَلْ حَزِنْتُ؟ **نَعَمْ.**

هَلْ عُدْتُ إِلى تَجْرِبَتِها؟ **لا.**

هَلْ ما زالَتْ حَسرَةً في قَلْبي؟ **نَعَمْ...**

بَعدَ أَنْ غادَرَ الأَخُ عُثمانُ، أَخَذْتُ غَرْفَةً مِنَ الكولونِيا مِنَ «المديرِ» وَرَشَشْتُها عَلى المِدْفَأة. ظَهَرَتْ أَنوارٌ بَنَفْسَجِيَّةٌ خَلّابَة، وَبَيْنَما كُنتُ أُراقِبُها أَمْسَكَني جَدِّي مِنْ أُذُني، وَقالَ:

«**لا تَقْتَرِبي مِنْ قارورَةِ الكولونِيا مَرَّةً أُخْرى**».

في الواقِعِ، كانَتْ لِجَدِّي قِوًى خارِقَةٌ. يُمْكِنُهُ أَنْ يَدْخُلَ الدُّكانَ دونَ إِصْدارِ أَيِّ صَوتٍ، وأَنْ يُمْسِكَني في لَحظَةِ غَفْلَتي...

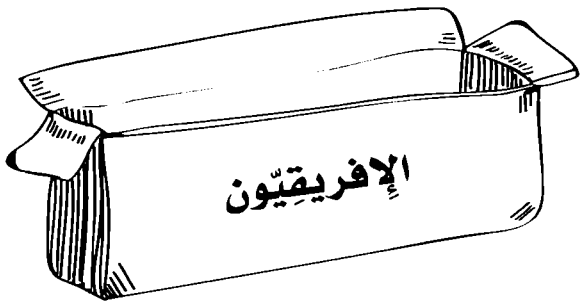

أُحِبُّ اللَّيالـــي المُبارَكَةَ كَثيـــرًا. كانَ الأَهلُ في البَيتِ يَقولـــونَ: «هٰذِهِ اللَّيْلَةَ لَيْلَـــةٌ مُبارَكةٌ، اطْلُبي ما تَتَمنّينَهُ فَسَوْفَ يَتَحقَّقُ». أَكادُ أَطيرُ مِنَ الفَرْحَة. تَفْرَحُ أُمّي وَجَدّتي حينَهـــا وَتَقولانِ: «**آهِ يـــا صَغيرَتي كَمْ تُحِبّينَ هٰذِهِ اللَّيالي الدِّينيَّةَ المُبارَكَةَ، ما شـــاءَ اللهُ، ما شاءَ الله**». مَعَ أَنَّ حِساباتي كانَتْ **مُختَلِفةً** تَمامًا.

اللَّيالي المُبارَكَـــةُ تَعْني أَنْ يُقَبِّـــلَ الصِّغارُ أَيْدي الكِبارِ وَيَتَمَنّـــوا لَهُمْ لَيْلَةً مُبارَكَـــةً، وَأَنْ يُقدِّمَ الكِبارُ بَعْضَ المأْكُولاتِ لِلصِّغار. هٰذِهِ المَأْكولاتُ تُباعُ في الدُّكّانِ. مَنِ البَقّالُ؟ نَحنُ. وماذا يَعْني هٰذا؟ اللَّيالي الدِّينِيَّةُ المُبارَكَةُ تَعْني بَيْعًا كثيـــرًا. يَتَوَجَّهُ المُصَلُّونَ الخارِجونَ مِنَ المَسْـــجِدِ إِلى الدُّكّانِ. يَشْتَرونَ أَشياءَ

كَثيــرةً وَيُوَزِّعونَهــا عَلى الأَطفــالِ. أَمّــا الأَطفالُ فيَصْطَفّونَ في طابــورٍ وَيَجْمَعونَ مَأْكــولاتِ اللَّيْلَةِ المُبارَكَة.

في الوَقْتِ ذاتِه يَعْني هٰذا أَنَّ الأَطْفالَ لَنْ يَشْتَروا أَيَّ شَــيْءٍ مِنَ الدُّكّانِ طَوالَ هٰذا الأُسْــبوع. سَيَأْكُلُ الأَطْفالُ مِنْ جِرابِهِمْ طَوالَ أَيّامِ الأُسْبوع.

صَحيحٌ أَنَّنا نَكسِــبُ كَثيرًا مَرَّةً واحِدَةً عِنْدَ بَيْعِنا بِالجُمْلَةِ، لٰكِنْ لِماذا يَحْــدُثُ هٰذا الأَمْرُ لِمَرَّةٍ واحِدَةٍ فَقَطْ؟ هَلِ الرِّبْحُ الكَثيرُ يُصيبُ الإِنْســانَ مَرَّةً واحِدةً فَقَطْ؟ طَبْعًا لا... **إِذًا عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ حَلًّا.**

كانَتِ اللَّيْلَــةُ تِلكَ مِنَ اللَّيالــي المُبارَكَةِ. غادَرْتُ البَيْتَ صَباحًا يُخالِجُني شُعورٌ غَريبٌ؛ شُعورٌ بِالفَرْحَةِ وشُعورٌ بِالضّيقِ... كُنتُ سَعيدةً لِأَنَّني سَأَبيعُ عُلَبًا تِلوَ العُلَبِ مِنَ البَسْــكويتِ والشّــوكولاتَةِ، أَمّا شُــعوري بِالضّيقِ فَلِأَنَّ البَيْعَ سَيَقِلُّ في الأُسبوعِ القادِم. لَمْ أَجِدْ حَلًّا بَعدُ لِهٰذِهِ المَسأَلَة. بَدَأْتُ أَخْطو يَمْنَةً ويَسْرَةً عَلى أَمَــلِ أَنْ أَجِدَ طَريقَــة. يَسْــتَمْتِعُ جَدّي كَثيــرًا بِقِراءَةِ

الصَّحيفَة. وَمُنْذُ أَنْ عَمِلْتُ عِنـدَهُ أَهمَلَ الدُّكّانَ تَمامًا. يَقْرَأُ الصَّحيفَةَ طوالَ اليَومِ، وَلَوْ شـاءَ لَأَخَذَ الصَّحيفَةَ مَعَهُ إِلَى البيتِ وَالمَسْجِدِ وَالمَقْهى وحَتّى إِلى الحَمّام.

تَأْتـي كُلُّ الصُّحُـفِ إِلـى الـدُّكّانِ، وَكُلُّها لَها أَصْحابٌ يَسْتَلِمونَها، فَنَحْنُ نَعرِفُ صاحِبَ كُلِّ واحِدَةٍ مِنْها. تَأْتي في الصَّبـاحِ الباكِرِ إِلى الـدُّكّانِ وَلٰكِنَّنا نُوزِّعُهـا ظُهْرًا؛ لِأَنَّ جَـدِّي يَقـرأُ كُلَّ الصُّحُفِ قَبلَ أَصحابِهـا. وَلَوْ سَـأَلْتَني أَقولُ لَكَ إِنَّ **جَـدِّي أَكْثَرُ الرِّجالِ مَعْرِفَةً في العالَم**. وَلَوْ أَنِّي أَقْرَأُ هٰذا القَدْرَ مِنَ الصُّحُفِ أَيْضًا لَأَصْبَحْـتُ مِثْلَه. وَبَعـدَ الظُّهْرِ يَقْرَأُ جَدِّي صَحيفَتَهُ الخاصَّةَ بِهِ عِندَما يَصِلُ الدَّورُ إِلَيْها. حَقًّا، إِنَّني لا أَدْري بِماذا يُفَكِّرُ عِنْدَما يَقْرَأُ الخَبَرَ في أَكْثَرَ مِـنْ صَحيفَة. لٰكِنَّ هٰـذا الرَّجُلَ يَعْشَـقُ قراءَةَ الصُّحُف. يَتَّكِئُ عَلى أَريكَتِـهِ وَيَقْرأُ صحيفَتَه. وَبَيْنَ الفَيْنَةِ والأُخْرى يَنْظُرُ إِلَيَّ مِـنْ حافَّةِ الجَريدَة. **حَتّى الآنَ لَـمْ أَفْهَمْ كيفَ يُمكِنُهُ قـراءَةُ الصَّحيفَةِ وَمُراقَبةُ أَخطائي في آنٍ واحِد.**

أَحْيانًا، عِندَما يتَغَيَّبُ جَدِّي عَــنِ الدُّكّانِ أَجْلِسُ وَأُقَلِّدُه. وَهٰذِهِ لُعْبَةٌ اخْتَرَعْتُها بِنَفْســي. وَأَحْيانًا أَكادُ أَنْفَجِرُ مِنَ المَلَلِ. فالدُّكّانُ لا يكونُ مُزْدَحِمًا في كُلِّ الأَوقاتِ. وَاللُّعْبَةُ هِيَ كَالآتي: أَدْخُلُ إِلى الدُّكّانِ كَما يَدْخُلُ جَدِّي، أَنْظُرُ هُنا وَهُناكَ، وَأُقَلِّدُ صوْتَهُ فَأَقولُ:

«**ماذا فَعَلْتِ؟ هَلْ كَنَسْــتِ الــدُّكّانَ**». ثُمَّ، وَعَلى الفَوْرِ، أُجيبُهُ بِصَوْتي:

«نَعَمْ كَنَسْتُهُ يا جَدِّي، وَرَشَشْتُ الماءَ أَمامَ البابِ أَيْضًا».

وَمِنْ جَديد أَلْعَبُ دَوْرَ جَدِّي: «أَحْسَنْتِ، أَنْتِ عامِلَةٌ نشيطَةٌ، لَوْلا وجودُكِ لَما اسْتَطَعْتُ أَنْ أُديرَ أَعْمالَ هٰذا الدُّكّانِ وَحْدي. لِحُسْنِ الحَظِّ أَنَّكِ تَعْمَلين عندي».

طَبْعًا هٰذا لَيْــسَ جَوابَ جَــدِّي وَإِنَّمــا هُوَ مِنْ تَلْفيقي. لَوْ كُنْتُ جَدًّا فَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّني سَــأَتَحدَّثُ مَعَ حَفيدي بِهٰذا الشَّكْل. ثُمَّ أَقولُ: «**سَأَقرَأُ الصَّحيفةَ قَليلًا**». وَأَجْلِسُ مُتَكوِّرَةً عَلى الأَريكَة.

وَبَيْنَ الحينِ والآخَرِ أَرْفَعُ رَأْسي وَأُراقِبُ نَفْسي ـ غَيْرَ المَوْجودَةِ طَبْعًا ـ. أَعْتَقِدُ أَنَّها لُعْبَةٌ مُسَلِّيةٌ جِدًّا.

في ذٰلِكَ اليــومِ، وَبَيْنَما كُنتُ أُقَلِّــدُ جَدِّي وَأَقْرَأُ الصَّحيفَةَ، بَدَأْتُ بِقِراءَةِ الأَخبارِ الرِّياضِيَّة. أُحِبُّ أَنْ أَبْدَأَ قِراءَةَ الصَّحيفَةِ مِنَ **النِّهايَةِ** إِلى البِدايَة. يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مِنَ السُّخْفِ أَنْ أَبدأَ مِنَ النِّهايَةِ. أَصْلًا بِداياتُها مُمِلَّةٌ جِدًّا: حَرْبٌ، صِراعٌ، رَئيسُ الجُمهورِيَّة، رَئيسُ الــوُزَراءِ، أَحــزابٌ، حَــوادِثُ، مَوْتــى وَقَتْلــى، أوفففففف... أَمّــا أَواخِرُهــا فَمُمْتِعةٌ أَكثَــر. لِهٰذا السَّببِ أَبدَأُ قِراءَةَ الجَريدَةِ مِنْ آخِرِها.

قَرَأْتُ في نِهايَــةِ الصَّحيفَةِ خَبَــرًا يَتَضَمَّنُ صُوَرًا لِسَيّاراتٍ تُوزِّعُ المُســاعَداتِ وَالأَغذِيَةَ عَلى الأَطْفالِ في **الدُّوَلِ الإِفْريقِيَّة**.

وَكُنْتُ كُلَّمــا تَرَكْتُ طَعامًا فــي الطَّبَقِ تَقولُ لي أُمّي: «إِنَّ الأَطْفالَ في إِفريقِيا يَبْكونَ جوعًا وَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ يأْكلوا هٰذا الّذي لا تَأْكُلينَه. إِنَّ أُمَّهاتِهِمْ يَغْلينَ لَهُمُ

الحِجــارَةَ وَيَسْــقونَهُمْ مِياهَها، حِجــارَة! أَولادُهُم جِياع... أَمّا أَنتِ فَلا تعرِفينَ قيمَة الطَّعامِ الَّذي بيْنَ يَدَيْكِ. أَنتِ جاحِدَةٌ بِالنِّعْمَةِ! كُلي طَعامَكِ!».

لَكَمْ كنتُ أَستاءُ مِنْ كلامِها.

أُكْمِــلُ طَعامِي مُتذَمِّــرةً وَأَنا أُتَمْتِــمُ: «تَتَحَدَّثينَ وَكَأَنَّــكِ ذَهبْتِ إِلــى إِفريقِيا، وَسَــمِعْتِ مــا تَقولُهُ أُمهاتُهُم».

حينَما رَأَيْتُ صُورَ الأَطفالِ في الصَّحيفَةِ خَطَرَتْ في بالي أُمِّي. خَيَّمَ ضيقٌ عَلــى صَدْري. كَانَتْ أُمِّي في البَيــتِ تَحثُّنــي كَثيرًا: كُلــي الطَّعــامَ... رَتِّبي غُرفَتَكِ... لا تُثيري الفَوْضى... لا تَلْعَبي بِأَنْفِكِ... تَحَدَّثي دونَ صُراخٍ... اسْــتَمِعي إِلَيَّ... يا إِلَهي!.. لِحُسْنِ الحَظِّ أَنَّني أَعمَلُ في الدُّكّانِ بَعيدًا عَنِ البَيْتِ.

لي خالٌ يُلَقَّبُ بِالخــالِ عُثمانَ، لا أَعرِفُ ما هِيَ دَرَجةُ القَرابَةِ بَيْنَنا، وَلٰكِنَّهُ خالي. يَأْتي الخالُ عُثمانُ أَحيانًا إِلى الدُّكّانِ وَيَطلُبُ كُرسِــيًّا، يَأْخُذُ الكُرسِــيَّ

وَيَجْلِسُ أَمامَ الدُّكّانِ لِساعاتٍ طَويلَةٍ. هُوَ رَجلٌ مُتقاعِدٌ ليسَ لَدَيْهِ عَمَلٌ. سأَلْتُهُ في إِحْدى المَرّاتِ:

«أَلَمْ تَمَلَّ مِنَ الجلوسِ، لِمْاذا لا تَذهَبُ إِلى البَيْتِ؟»

أَجابَني:

«في البَيْتِ أَسْتَمِعُ إِلى ثَرْثَرَةِ خالَتِكِ فِكْرِيَّةَ المُزْعِجَة، إِنَّها تُشْعِرُني بِالإِضْطِرابِ، وَتَتَدخَّلُ في كلِّ شَيْءٍ. لَقَدْ هَرَبْتُ مِنْها! أَتَرَيْنَ، ها نَحْنُ تحدَّثْنا عَنْها الآنَ، فَتَعَكَّرَ مِزاجي».

أَفْهَمُ الخالَ عُثمانَ جيِّـدًا لِأَنَّني في الوَضْعِ ذاتِهِ تَقريبًا. فأَنا أَيْضًـا أَهرُبُ مِنْ أُمِّي. وَأَنـا الآنَ رَأَيْتُ الأَولادَ فـي الصَّحيفَةِ فَتَعَكَّرَ مِزاجـي أَيْضًا. أَلقيْتُ الصَّحيفَةَ مِنْ يَدي.

غَيْرَ أَنَّهُ، وَفي تِلكَ اللَّحْظَةِ بِالذّاتِ، جاءَتْني فِكرةٌ مُدهِشَة.

تَناولْتُ الصَّحيفَةَ مُجَدَّدًا وَفَتَحْتُ تِلْكَ الصَّفْحَةَ. هٰذا صَحيحٌ... كيـفَ لَمْ أُفكِّـرْ بِهٰذا مِـنْ قَبْلُ؟! قَصَصْتُ صورَةَ الأَولادِ الأَفارِقَةِ مِنَ الصَّفْحَةِ، كَانَتْ صحيفَةَ العَمِّ وَليدٍ. كانَ يَشـتَري الصَّحيفَـةَ لِيقْطَعَ القَسيمَةَ مِنْها. وَكُنتُ عَلى ثِقةٍ مِنْ أَنَّه لا يَقرَؤها عَلى الإِطْلاقِ. يَأْتي في كُلِّ مساءٍ وَيقولُ: «افتَحي التِّلْفازَ لِنُشـاهِدَ حَوادِثَ وَوَقائِعَ البَلْدَةِ»، فَلَـوْ أَنَّه كانَ يَقرَأُ الصَّحيفَةَ لَعَرَفَ أَخْبـارَ البَلدَةِ كُلَّهـا. وَبِما أَنَّني لَمْ أُلْحِقِ الضَّرَرَ بِالقَسـيمَةِ فَلا مُشْكِلَةَ في ذٰلِك. والعَمُّ وليدٌ لَنْ يَشـعُرَ أَبدًا أَنَّني قَصَصْتُ الصُّورةَ. أَلْصَقْتُ صـورَةَ الأَولادِ الأَفارِقَةِ عَلى عُلْبَةٍ فارِغَـةٍ وَخَبَّأْتُها.

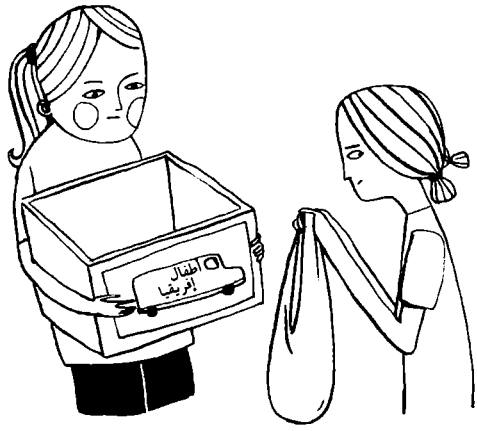

وَمِنَ الجَيِّدِ إنْ أَنا أَخْفَيْتُها عَنْ أَنْظارِ جَدِّي لِمُدَّةٍ مِنَ الزَّمن.

في المســـاءِ، بَدَأَ الأَولادُ يَجْتَمِعونَ أَمامَ الدُّكّانِ، كَالذِّئابِ الجائِعَةِ! جاؤوا جَميعًا وَفي أَيْديهِمْ أَكياسٌ كَبيرَةٌ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوُا الشّـــوكولاتَةَ والبَسْكَويتَ في حَياتِهِمْ. جَلَسوا يَنْتَظِرونَ... خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ مَعَهُم. جاءَ رَجـــلٌ وَوَزَّعَ كَعْكًا غَنِيًّا بِالزُّبْـــدَةِ وَطَرِيًّا. كَانَتْ رائِحَتُهُ زَكِيَّةً جِـــدًّا. تَخاطَفَـــهُ الأَولادُ وَأَكَلوهُ، وَهُمْ يَلْعَقونَ أَصابِعَهُمُ الَّتي تَلَطَّخَتْ بِالزُّبْدَةِ. لَمْ آخُذْ وَلَمْ آكُلْ. اشْتَهَيْتُهُ كَثيرًا لٰكِنّي لَمْ أَطْعَمْه.

قالَتْ غَزَلٌ: «لِمٰاذا لا تَأْكُلينَ؟»

رَفَعْتُ صَوْتي قائِلَةً: «وَهَلْ أَنا عَديمَةُ الرَّحْمَةِ مِثْلُكُمْ؟ كُلُّ ما يَهمُّكُمْ هُوَ الطَّعامُ. الأَطْفالُ في إِفْريقِيا جِياعٌ. إِنَّهُمْ مُسْتَعِدّونَ لِتَقْديمِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِ قِطْعَةٍ مِنَ الكَعْكَةِ الَّتي تَأْكُلونَها... كُلِّ شَيْءٍ! لِذا لا يُمْكِنُ أَنْ تَمُرَّ لُقْمةٌ مِنْ حَلْقي وَهُمْ جياع. تَعَلَّموا القَليلَ مِنَ الإِنْسانِيَّة... تَعَلَّموا القَليلَ مِنَ الإِنْسانِيَّة». قُلْتُ هٰذا وَدَخَلْتُ إِلى الدُّكّان.

جاءَ عِدَّةُ زَبائِنَ وكانَ عَليَّ تَلْبِيَةُ طَلَباتِهِمْ. بِعْتُ عُلَبًا بَعدَ عُلَبٍ مِنَ البَسْكويتِ والشّوكولاتَةِ وَعَصيرِ الفاكِهَة. وَهُمْ وَزَّعوها عَلى الأَطْفالِ المُنْتَظرينَ أَمامَ الدُّكّان. وَالأَطْفالُ مَلؤوا أَكياسَهُمْ بِها. كانوا وَكَأَنَّهُم في عيدٍ حَقيقِيٍّ.

عِنْدَما ذَهَبَ آخِرُ زَبونٍ، خَرَجْتُ إِلى الأَطفالِ بِالعُلْبَةِ الَّتي كنتُ جَهَّزْتُها مِنْ قَبل. كانَتْ عَلَيْها صورَةُ الأَطْفالِ الأَفارِقَة.

«يا أَطْفالُ، انْظُروا... أَجْرٌ عَظيمٌ... هٰؤلاءِ الأَطْفالُ جِياعٌ، كُلُّهُمْ جِياع... لَمْ يَأْكُلْ أَحَدُهُمْ مِنْ

هٰذِهِ المَأْكولاتِ الَّتي تَأْكُلونَها مِنْ قبلُ. ضَعوا الهَدايا الَّتي جَمَعْتُموها في الأَكياسِ لِأُرسِلَها إلى إفريقِيا. اللَّيْلَةَ لَيْلَةٌ مُباركَةٌ. لا تَحْرِموا الأَطْفالَ مِنْ مُساعَداتِكُم».

كُنتُ أَعْرِفُ أَنَّ الجَميعَ تَذَكَّروا أُمَّهاتِهِمْ **في تِلكَ اللَّحْظَة**. فَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ الأُمَّهاتِ يَذْكُرْنَ أَمْثِلَةً كَهٰذِهِ في البَيْت.

وَضعَتْ نَبيلَةُ كيسَها أَوَّلًا، ثم نِسْرينُ، وَبعدَها عُمَرُ، ثُمَّ نادِرٌ وَالجَميع. امتلأَتِ العُلْبَةُ حَتّى فاضَتْ. أَخَذْتُ كُلَّ ما جَمَعوهُ، وَقُلْتُ إِنَّهُمْ قاموا بِعَمَلِ خَيْرٍ وَأَجْرٍ عَظيم.

عادوا إِلى بُيوتِهم. سَيَأْتونَ غَدًا لِيَشْتَروا مِنْ جَديدٍ. **يا إِلٰهي! كَمْ أَنا ذَكِيَّة! ذَكِيَّةٌ جِدًّا!** وَجَدّي مَحْظوظٌ بي جِدًّا.

جاءَ جَدّي وَرَأى العُلْبَةَ الكَبيرَةَ المَليئَةَ بِالأَكْياسِ وَسَطَ الدُّكّانِ. وَفيما بَعْدُ:

«ما هٰذا؟»

«مٰا مٰاذا؟»

«هٰذا؟»

«عُلْبَة».

«نَعَمْ، رَأَيْتُها، عُلْبَةُ مٰاذا؟»

«عُلْبَةُ المُساعَداتِ الخَيْرِيَّة».

«أَيَّ خَيْرٍ تَعْنينَ؟»

«عُلْبَةُ المُساعَداتِ الخَيْرِيَّةِ لِلأَطْفالِ الأَفارِقَة».

«مَنْ... مَنْ؟»

«الأَطْفالُ الأَفارِقَة».

«مَنْ أَعْطاكِ إِيّاها؟»

«أَنا جَمَعْتُها».

«مِمَّنْ؟»

«مِنَ الأَطْفالِ. إِنَّها هٰدايا اللَّيْلَةِ المُبارَكَة. أَعْطَوْني إِيّاها. هَلِ اللَّيالي المُبارَكَةُ لَنا فَقَطْ؟ إِنَّها لَهُمْ أَيْضًا».

«وَهَلْ تَعرِفينَ أَيْنَ تَقَعُ إِفريقِيا؟»

«أَسْأَلُ أُمِّي، هِيَ تَعرِفُ. كَأَنَّها ذهبَتْ إِلى إِفريقِيا. إِنَّها تَعرِفُ كَثيرًا، سَتَأْخُذُني إِلى هُناكَ».

«لا تَسْخَري، ماذا سَنَفْعَلُ بِها الآنَ؟ لِماذا أَنْتِ هٰكذا يا ابْنَتي؟ لِماذا تَقومينَ بِأَعْمالٍ غَريبَةٍ عَجيبَةٍ دونَ أَنْ تَسْأَلي؟»

«لِأَجْلِكَ... لِأَجْلِكَ أَنْتَ. هَلْ يَأْتي الطِّفلُ الَّذي يَمْلِكُ كيسًا مِنَ المَأْكولاتِ إِلى الدُّكّانِ؟ لَنْ يَكونَ هُناكَ زَبونٌ لِأُسْبوعٍ! هَلْ نَترُكُ البِضاعَةَ لِتَنْتَهي صَلاحِيَّتُها؟ هَلْ هٰذا ما تُريدُه؟».

اسْتَغْرَبَ جَدِّي مِنْ جَوابي:

«أَلِهٰذا السَّبَبِ جَمَعْتِ مَأْكولاتِ الأَولادِ؟»

وَأَخيرًا أَدْرَكَ قَصْدي، **كانَ سَيُسرُّ الآنَ...**

«نَعَمْ... لِهٰذا السَّببِ أَخَذْتُها مِنْهُم. هَلْ فَهِمْتَ الآنَ؟ لِأَجْلِنا. **لِنَقومَ بِبَيْعٍ أَكْثَر**».

بَدَأَ البُخارُ يَتَصاعَدُ مِنْ أَنْفِ جَدِّي وَصاحَ قائِلًا:

«حَـرامٌ يا بُنَيَّتـي! عَيْبٌ يـا بِنْتي! يا لَـكِ مِنْ مَخلوقٍ...»

لَمْ أَعُدْ أَتَحَمَّلُ، بَدَأْتُ أَقولُ دونَ وَعْيٍ:

«ما الحَرامُ في إِرْسـالِ المُساعَداتِ إِلى الأَطْفالِ الأَفارِقَة؟ يا لَكَ مِنْ إِنْسـانٍ فِعْلًا!! لَيْسَ لَدَيْكَ أَيُّ مَعرِفَةٍ عَنِ الثَّوابِ أَوِ الحَرام. ما أَجْمَـلَ أَنْ يَحْتَفِلَ أَطْفالُ القَرْيَـةِ بِاللَّيالي المُبارَكَـةِ بَيْنَما الأَطْفالُ في إِفريقِيا يَموتونَ جوعًا!!! هَلِ الحَياةُ حُلْوةٌ هٰكَذا؟!»

نَطَقْتُ كَلِمَتي الأَخيـرَةَ وَخَرَجْتُ آخِذَةً مِنْ عَلى الرَّفِّ دَفْتري الَّذي سمَّيْتُهُ «**المَواضيعُ الحسّاسةُ الَّتي يَجِبُ عَلى الصِّغارِ الِانْتِبـاهُ إِلَيْها في أَثناءِ تَواصُلِهِمْ مَعَ الكِبار**».

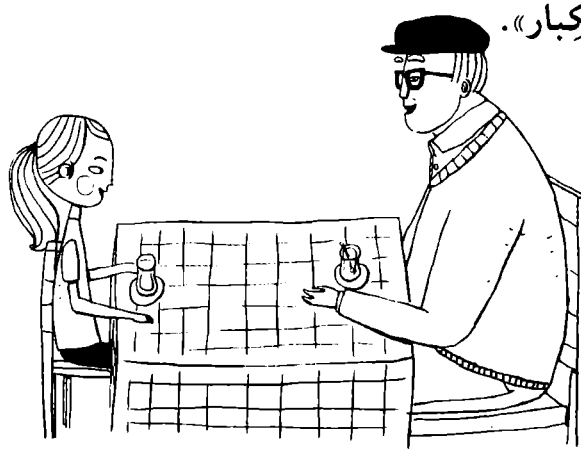

وَكَتَبْتُ المـادَّةَ الثّامِنـةَ، كَتَبْتُها بِغَضَـبٍ وَلُغَةٍ رَكيكَة:

المادَّةُ الثّامِنَةُ:

عِنْدَما لا تَأْكُلُ الطَّعامَ وَأَنْتَ جالِسٌ إِلى المائِدَةِ يَقولونَ لَكَ:

الأَطْفالُ في إِفريقِيا جِياعٌ لا يَجِدونَ ما يَأْكُلونَه.

وَعِنْدَما تَقولُ لَهُمْ: هَيّا... لِنُرْسِلْ إِلَيْهِمْ طَعامًا، يَقولونَ لَكَ:

يا لَكِ مِنْ فَتاة!

أَطْلُبُ الماءَ فَيَقولونَ: لَقَدْ كَبِرْتِ، خُذي الماءَ بِنَفْسِكِ.

أُريدُ أَنْ أَعيشَ وَحْدي، يَقولونَ لي ما زِلْتِ صَغيرَة.

إِنَّهُمْ أَفظاظٌ جِدًّا... جَميعُ البالِغينَ أَفْظاظ...

لَمْ أَذهَبْ إِلى الدُّكانِ لِأُسْـبوعٍ كامِلٍ. أَخْبَرَتْني أُمّي عَنِ الَّذي قالَـهُ لَها جَدّي: «أَحْسِـني تَرْبِيَتَها». غَضِبَتْ أُمّي كَثيرًا وَثَرْثَرَتْ وتَذَمَّرَتْ لِساعَةٍ كامِلَة.

قالَتْ لي: «أَنتِ عَديمَةُ التَّرْبِيَة». نَزَلَتْ عَليَّ هٰذِهِ العِبارةُ كَالصّاعِقَة. صَرَخْتُ قائِلَةً:

«وَلِمَ لَمْ تَقومي بِتَرْبِيَتي إِذًا، أَلَسْـتِ أُمّي؟! مَنْ كانَ سَيُرَبّيني، الجيرانُ مَثَلًا؟!»

رَمَتْني بِالشِّبْشِـــبِ، فَهَرَبْتُ مِنَ البَيتِ. أَصْلًا لَنْ أَذْهَبَ إِلى الدُّكّانِ بَعْدَ الآنَ. لَقَدْ تَعِبْتُ كَثيرًا.

وَفـــي أَثناءِ خُروجي مِـــنَ البَيْتِ صُحْـــتُ قائِلَةً: «حقًّا، يا لَهُ مِنْ رَجُلٍ... ذاكَ البقّالُ أَبوكِ»،.

ذَهَبْتُ إِلى جَدِّي الآخَرِ؛ جَدِّي القَهْوَجي...

قُلْتُ لَهُ: «**هَلْ أَعْمَلُ لَدَيْكَ قَليلًا؟!**»

كُنتُ مِثْلَ الخالِ عُثمانَ بِالضَّبْطِ، لا يَهُمُّني أَيْنَ أَبْقى، المُهِمُّ أَنْ لا أَبْقى في البَيْتِ، وَأَنْ لا أَرى وَجْهَ أُمّي. حَتّى إِنَّني قَبِلْتُ أَنْ أَعْمَلَ في المَقْهى. شَرِبْتُ شـــايَ الفاكِهَةِ طَوالَ الأُسْـــبوعِ، شـــايَ البُرْتُقالِ في الصَّباحِ، وشـــايَ التُّفّاحِ ظُهْرًا، وشـــايَ الفاكِهَةِ في المَساء...

يقولُ لي جَدِّي القَهْوَجي دائِمًا «ضَعي مِلْعَقَةً مِنْ نَكْهَةِ الفَواكِهِ في قَدَحِ الشـــايِ»، لٰكِنَّني أَضَعُ ثَلاثَ مَلاعِق.

لِيَخْسَرَ الجَميعُ! فَلا يَليقُ الإِحسانُ بِأَحَد.

بَعْـدَ أُسـبوعٍ... ضَجِرْتُ وَسَـئِمْتُ... **شـايُ الفاكِهَةِ... شـايُ الفاكِهةِ... إلى مَتى؟**! إنَّ النَّفْسَ تَطلُبُ الشّوكولاتَةَ، رُقاقتِ البَطاطا المُقَرْمِشَةَ. سَأَلْتُ جَدِّي في ذٰلِكَ اليومِ:

«هَلْ تَعلَـمُ ماذا فَعَلَ جَدِّي البَقّـالُ بِالمَأْكولاتِ الَّتي جَمَعْتُها لِلأَطْفالِ الأَفارِقَة؟ هَلْ قالَ لَكَ شَـيْئًا عَنْها؟».

«لا... لا عِلْمَ لي».

«اذْهَبْ واسْأَلْهُ أَرْجوكَ. ما أَقَلَّ فُضولَكَ! أَنْتَ لا تُبالي بِأَيِّ شَيْءٍ... لَقَدْ حُبِسْتُ في هٰذا المَقْهى، أَلا تُحِبُّني أَبَـدًا؟ لَقَدِ انْتَفَخْتُ مِنْ كثرَةِ شُـرْبِ **شـايِ الفاكِهَة**».

كانَ جَدِّي هٰـذا لا يَتَحَمَّلُ حُزْنـي. وَافَقَ عَلى طَلَبي وَذَهَبَ إِلى الدُّكّانِ لِشِراءِ السُّكَّرِ. وَعِنْدَما عادَ قالَ لي:

«انْتَهى الأَمـرُ، لَقَـدْ أَعْطاها لِإمامِ المَسْـجِدِ،

وَالإمامُ وَزَّعَها عَلـى الأَطْفالِ الَّذيـنَ يَتَرَدَّدونَ إِلى المَسْجِدِ».

يا إِلَهي! لَقَدْ وَزَّعَ المُساعَداتِ في المَسْجِدِ! كَمْ كُنْتُ أَغْتـاظُ مِنْ إِمامِ المَسْـجِدِ ذاكَ! هٰذِهِ مَسـأَلَةٌ مُخْتَلِفَةٌ وَلٰكِنِ الآنَ لَيسَ وَقْتَه.

سَأَلْتُه: «وَهَلْ هُوَ غاضِبٌ عَليَّ؟»

«لا... لَيْسَ غاضِبًا أَبدًا، لَقَدِ اشْـتاقَ إِلَيْكِ، وَلا يَسْـتَطيعُ القِيـامَ بِالأَعْمالِ وَحْـدَهُ، يَقـولُ: «لِتَأْتِ وَتُعينَني»، **هَيّا اذْهَبي إِلَيْه**».

كانَ يَكْذِبُ دونَ شَكٍّ، قُلتُ لَهُ:

«وَأَنْتَ ماذا سَـتَفْعَلُ؟ هَلْ تَسْتَطيعُ إِدارَةَ المَقْهى وَحْدَكَ؟» مُنْذُ أُسبوعٍ وَأَنا أَغْسِلُ الأَقْداحَ عِنْدَهُ، وَفي النَّتيجَةِ تَعَوَّدَ عليَّ.

أَجابَني:

«أَسْتَطيعُ أَنْ أُديرَها وَحْدي، هَيّا اذْهَبي».

طَبْعًا سَيُديرُها وَحدَهُ، وَهَلْ هُوَ سَأَلَني أَنا عِنْدَما

أَسَّسَ المَقْهى؟ وَهلِ اعْتَمَدَ عَليَّ حينَها؟ هٰذا يَكْفي...

انْطَلَقْتُ إلى الدُّكّان.

كانَ جَدِّي جالِسًا عَلى الأَريكَةِ يَقْرَأُ الجَريدَة.

أَخَذْتُ حُفْنَةً مِنَ القَضامِيِّ وَجَلَسْتُ عَلى صُندوقِ السُّكَّرِ. قالَ لي دونَ أَنْ يُحَرِّكَ الصَّحيفَةَ: «هاتِ قَليلًا مِنَ القَضامِيِّ لي أَيْضًا».

لَقَدْ لاحَظَ مَجيئي وَماذا أَقومُ بِهِ دونَ أَنْ يُخْفِضَ صَحيفَتَهُ! كَمْ هُوَ رَجلٌ غَريب!...

أَعْطَيْتُهُ القَضامِي. ثُمَّ كَنَسْتُ الدُّكّانَ. بَدا وَكَأَنَّهُ لَمْ يُكْنَسْ مُنذُ أُسبوع.

حَقًّا... **لا يُمْكِنُهُ القِيامُ بِشَيْءٍ وَحْدَه.**

أَرَدْتُ أَنْ أَقولَ لَهُ: «أَنا عَديمَةُ التَّربِيةِ وَلٰكِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ القِيامَ بِشَيْءٍ مِنْ دوني، ما الأَمرُ؟!» غَيْرَ أَنَّني لَمْ أُرِدْ أَنْ أُطيلَ في المَوْضوع.

ها أَنا عُدْتُ مُجَدَّدًا...

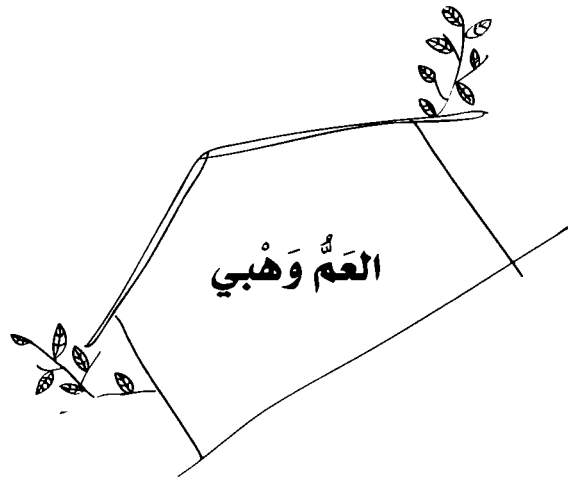

لَدَيْنا زَبونٌ بَيْنَ زَبائِنِنـــا يُدْعى «العَمُّ وَهْبي». إلّا أَنَّهُ زبونٌ لا يَطَأُ أَرضَ الدُّكّانِ. أَفْضَلُ زَبونٍ هُوَ ذاكَ الزَّبونُ الَّذي لا يَأْتي إلى الدُّكّانِ أَبَدًا.

يُعامِلُ جَدّي جَميعَ الزَّبائِنِ **بالتَّســـاوي**. لا يُظْهِرُ الحُبَّ لِلْجَميعِ ولا الكُرْهَ. لا يَتَحَدَّثُ عَنْ أَيٍّ مِنْهُمْ بِالخَيْرِ أَو بِالشَّرِّ. أمّا أَنا فَلا أَسْتَطيعُ التَّصَرُّفَ مِثْلَهُ. الزَّبائِنُ عِنْدي يَنْقَسِمُونَ إلى أَرْبَعَةِ أَقْسامٍ: فَظٌّ، غَليظٌ، شَديدُ الفَظاظَةِ، وعادِيٌّ. أَحَبُّ الزَّبائِنِ إِليَّ هُمْ أُولٰئِكَ شديدو الفَظاظَة، فَلَوْلاهُمُ لَكانَ الِانْتِظارُ في الدُّكّانِ مُمِلًّا لِلْغايَة. مَعَ ذٰلِكَ الأَفْضَلُ **أَنْ لا يَأْتوا**.

أَفْضلُ شَيْءٍ في رَأْيي هُوَ طَلَبُ المُشْتَرَياتِ **عَبْرَ الهاتِف**. يَتّصِلُ بِـــكَ، يَذْكُرُ طلبَـــهُ، إِنْ كانَ مَوْجودًا

تُسَجِّلُهُ، وَإِلّا تَعْتَذِر. ليسَ هُناكَ تَرَدُّدٌ بِلا فائِدةٍ، وَلا حَمْلُ البِضاعَةِ وَتَقْليبُها يَمينًا وَيسارًا وَالتَّدْقيقُ فيها، وَلا أَسْئِلَةٌ مِنْ مِثْلِ: هَلْ يُوجَدُ أَو لا... وَكَذا... اطْلُبْ ما تُريدُ، ضَعْ سَمّاعَةَ الهاتِفِ.. انْتَهى...

هُناكَ زَبونٌ واحِدٌ فَقَطْ في دُكّانِنا يَشْتَري بِهٰذِهِ الطَّريقَةِ هُوَ العَمُّ وَهْبي، أَمّا الباقونَ فَمُتَحَمِّسونَ كَثيرًا لِلْمَجيءِ إِلى الدُّكان. حَتّى النِّساءُ العَجائِزُ يَأْتينَ إِلى الدُّكّانِ **بِعُكّازاتِهِنَّ**. أَقولُ لَهُنَّ دائِمًا لا تَأْتينَ إِلى هُنا، وَلا تُتعِبْنَ أَنْفُسَكُنَّ، أَنا أُحْضِرُ لَكُنَّ حاجِيّاتِكُنَّ. لٰكِنْ عَبَثًا... إِنَّهُنَّ أَكثَرُ الزَّبائِنِ تَرَدُّدًا إِلى الدُّكّان. وَلا يَكْفي مَجيئُهُنَّ بَلْ إِنَّهُنَّ **يوقِعْنَني في مَشاكِلَ** أَيْضًا.

في الحَقيقَةِ يوجَدُ في القَرْيَةِ مُسْتَوصَفٌ وَطَبيبٌ وَمُمَرِّض. إِلّا أَنَّ الكَبيراتِ في السِّنِّ يُفَضِّلْنَ المَجيءَ إِليَّ أَكثَرَ لِأَنَّني أَفضَلُ مِنَ الطَّبيبِ والمُمَرِّض.

حَدَثَ الأَمرُ كَالآتي: جاءَتِ الخالَةُ لُطْفِيَّةُ يَوْمًا وَطَلَبَتْ كيلو مِنَ الأَرُزِّ فَأَعْطَيْتُها طَلَبَها.

عِنْدَما ناولْتُها إِيّاهُ سَأَلَتْني: «ما هٰذا؟»

«هٰذا أَرزٌّ.. لَقَدْ طَلَبْتِهِ أَنْتِ...»

«هممممم... هَـلْ طَلَبْـتُ الأَرُزَّ؟ أَنا سَـأَطْبُخُ البُرْغُلَ، ماذا أَفْعَلُ بِالأَرُزِّ؟»

تَذَمَّرْتُ: «لَقَدْ طَلَبْـتِ أَرُزًّا، لِذٰلِـكَ وَزَنْتُ لَكِ الأَرُزَّ! لَوْ طَلَبْتِ بُرْغُـلًا لَوَزَنْتُ لَـكِ البُرْغُلَ! هَلْ أُصِبْتُ بِالجُنون».

تَذَمَّرْتُ طَبْعًا فَأَنا عَلى حَقٍّ. أَشْـعُرُ بِتَوتُّرٍ شَديدٍ في أَثْناءِ تَعْبِئَةِ الأَرُزِّ، لِأَنَّهُ يَتَناثَرُ دائِمًا. لَسْـتُ ماهِرةً بِهٰذا العَملِ، وَفَوْقَ كُلِّ هٰذا تَقولُ إِنَّني مُخْطِئَة...

قالَـتِ الخالَةُ لُطْفِيَّـةُ حينَئـذٍ: «لا تُؤاخِذيني يا صَغيرَتي، فَأَنا أَشْعُرُ بِأَلَمٍ شَديدٍ في رَأْسِي وَلا أُدْرِكُ ما أَقُولُ». قُلْتُ لَها: «تَناوَلي الدَّواءَ إذًا». أَجابَتْ أَنَّ مُسـكِّنَ الآلامِ نَفِدَ في البَيْتِ، وأَنَّها تَكاسَـلَتْ في الذَّهابِ إِلى المُسْتَوْصَف.

كانَ في الدُّكّانِ كيسُ أَدْوِيَةٍ لِجَـدِّي مُعَلَّقٌ عَلى الجِدار.

قُلْتُ لَها: «مَهْلًا، أَنا سَأُعْطيكِ الدَّواء».

بَحَثْتُ في الكيسِ، كانَ هُناكَ نَوْعانِ مِنَ الدَّواءِ، لَمْ أَعرِفْ أَيَّهُما أَنْفَع.

سَـأَلْتُها: «أَيُّ جُزْءٍ يُؤلِمُكِ تَمامًا؟». أَشارَتْ إِلى الجُزْءِ الخَلْفيِّ مِنْ رَأْسِـها. كانَتْ جَدَّتي تَقولُ دائِمًا: «الأَلَمُ في الجُزءِ الخَلْفِيِّ مِنَ الرَّأْسِ سَبَبُهُ ضَغْطُ الدَّم».

شَـخَّصْتُ لَها حَالَتَهـا وَقُلْـتُ: «إِنَّ ضَغطَ الدَّم لَدَيْكِ مُنْخَفِضٌ لِذٰلِكَ تَشْعُرينَ بِصُداع». عَدَدْتُ حَتّى العَشَرَةِ بَيْنَ الدَّواءَيْنِ وأَعْطَيْتُها الَّذي وَقَع عَلَيْهِ الرقمْ عَشَـرَة. ثُمَّ بِعْتُها كيلو مِنَ اللَّبَنِ أَيْضًـا، وَقُلْتُ لَها

اصْنَعي لِنَفْسِـكِ عَيْرانًا مالِحًا. غادرَتِ الخالةُ لُطْفِيَّةُ الدُّكّانَ وَعادَتْ في اليَومِ التّالي وَقالَتْ لي:

«أَعْطِني قُرْصًا آخَرَ مِنْ ذاكَ الدَّواء».

طَبْعًا لَمْ أَقُلْ لَها «وَهَلْ هُنا صَيْدَلِيَّة؟!». لٰكِنْ في النِّهايَةِ يُمْكِنُنـا بَيْعُ كُلِّ ما هُوَ مَوجـودٌ في الدُّكّان. نَظَرْتُ إِلى عُلْبَةِ الدَّواءِ، قَرَأْتُ أَنَّ فيها 20 قُرْصًا، كَما أَنَّ عَلَيْها ثَمَنَ الدَّواءِ أَيْضًا. قَسَّمْتُ سِعْرَ الدَّواءِ عَلى عِشْـرينَ وَأَضَفْتُ إضافَةً طَفيفة، فأَنا أُقَدِّمُ نَوعًا مِنَ الخَدَماتِ هُنا، وَلا بُدَّ أَنْ آخُذَ مُقابِلَ خَدَماتي.

في البِدايَةِ تَعَجَّبَتْ وَقالَتْ: «وَهَلْ يُباعُ؟» وَكانَتْ عَلى وَشْكِ أَنْ تُعيدَهُ، إلّا أَنَّني عِنْدَما قُلْتُ لَها: «وَهَلْ يُقدَّمُ مَجّانًا في الصَّيْدَلِيّـات؟ كَما تُريدينَ، أَنتِ مَنْ يَشْعُرُ بِالأَلَمِ وَلَسْتُ أَنا». حينَها دَفَعَتْ ثَمَنَهُ وَذَهَبَتْ.

في اليَوْمِ التّالي جاءَتِ السيِّدَةُ مَديحَةُ ـ أَرْسَلَتْها السيِّدَةُ لُطْفِيَّة ـ: «لَدَيْكِ دَواءٌ اسْـتَفادَتْ مِنْهُ السيِّدَةُ لُطْفِيَّةُ كَثيرًا. أَشْعُرُ بِأَلَمٍ في رِجْلَيَّ، **أَعْطيني قُرْصًا مِنْ فَضْلِك**».

أَجَبْتُها:

«لا يُمْكِنُني أَنْ أُعْطيكِ مِنْ ذاكَ الدَّواءِ، فَهُوَ مُسَكِّنٌ لِلآلامِ الَّتي تُصيبُ الرَّأْسَ مِنَ القَفا، وَأَنْتِ تَشْعُرينَ بِأَلَمٍ في رِجْلَيْكِ، سَأُعْطيكِ دَواءً آخَر».

«أَعْطيني إِذًا، أَشْعُرُ بِأَلَمٍ حادٍّ». واضِحٌ أَنَّها كانَتْ تَتَأَلَّمُ كَثيرًا. قُلتُ لَها: «أَريني مَكانَ الأَلَمِ». أَشارَتْ إِلى رُكْبَتَيْها.

آلامُ الرُّكْبَةِ حادَّةٌ جِدًّا. تَعَثَّرْتُ مَرَّةً فَنَزَفَتْ رُكْبَتي وَآلَمَتْني كثيرًا، أَعْرِفُ هٰذِهِ الآلامَ جَيِّدًا.

قُلْتُ لَها: «تَفَضَّلي اجْلِسي عَلى صُنْدوقِ السُّكَّرِ وَانْتَظِري». إِنَّها عَجوزٌ وَتَتَأَلَّمُ مِنْ رُكْبَتَيْها. لَوْ كانَتْ في المُسْتَشْفى لَجَعَلُوها تَسْتَلْقي عَلى السَّرير. لِتَجْلِسْ هُنا عَلى صُندوقِ السُّكَّرِ فَهٰذا أَفْضَل.

ذَهَبْتُ إِلى بَيْتِ جَدَّتي المُسِنَّةِ، وَهِيَ والِدَةُ جَدِّي. امرَأَةٌ عَجوزٌ وَشَديدَةُ **الغَضَب**. إِنَّها عَصبِيَّةٌ مُنذُ الوِلادَةِ، أَنا مُتَأَكِّدَةٌ مِنْ أَنَّها وُلِدَتْ هٰكَذا... تَتَذَمَّرُ عَلى الدَّوامِ، تَتَشاجَرُ مَعَ الذُّبابِ المُتطايِرِ قُرْبَ

وَجْهِها. لِهٰذا يَهابُها الجَميعُ. لٰكِنَّها تُحِبُّني. أُقَدِّمُ لَها الحَلْوى مِنَ الدُّكّانِ دائِمًا...

في الحَقيقَةِ الحَلْـوى مَمْنوعَةٌ عَنْها... لِيَكُنْ... فَكُلُّ مَمْنوعٍ مَرْغوب. لِمٰاذا يَعيشُ الإِنْسـانُ إِنْ مُنِعَ مِنَ الحَلْـوى أَيْضًا؟! لا أَفْهَمُ هٰـذا! لِذٰلِكَ آخُذُ لَها الحَلْوى **باسْتِمْرار**.

قُلْتُ لِجَدَّتـي: «إِنَّ جَدِّي يطلُـبُ دَواءَ التِهابِ المَفاصِلِ، سَوفَ يَسْتَبْدِلُهُ، جاءَ الطَّبيبُ وَسَيَصِفُ لَهُ دواءً جديدًا. هَلْ يُمكِنُ أَنْ تُعْطيني دَواءَهُ». أَعْطَتْني إِيّاهُ طَبْعًا، **فَالـدَّواءُ المَجّانِيُّ أَحْلى عَلى قَلْبِ جَدَّتي مِنَ العَسل**.

أَخَذْتُ الـدَّواءَ وَأَعْطَيْتُهُ لِلخالَـةِ مَديحَةَ، وَقُلْتُ لَها: «تَناوَلي حَبَّتَيْنِ كُلَّ سِتِّ ساعات». مَرِضْتُ في إِحْدى المَرّاتِ فَأَعْطاني الطَّبيبُ دَواءً وَطَلَبَ مِنّي أَنْ أَتَناوَلَ حَبَّتَيْنِ كُلَّ سِتِّ ساعات.

ذَهَبَتِ السـيِّدَةُ مَديحَةُ. وَفي اليومِ التّالي عادَتْ

لُطْفِيَّةُ فَبِعْتُها قُرصًا آخَرَ. **بِالشِّفاءِ إِنْ شاءَ الله**. أَنا لا أَقومُ بِعَملٍ سَيِّئٍ، فَأَنا أُقدِّمُ الدَّواءَ لِلْمَرْضى.

بَعدَ يومٍ، أَوْ يَومَيْنِ، جاءَتِ الخالَةُ حُسْنِيَّةُ، وَكانَتْ أُصيبَتْ بِالإِسْهال. أَمْرُها بَسيطٌ جِدًّا. أَحْضَرْتُ لَها الأَسبِرينَ مِنَ البَيْتِ، وضَعْتُهُ في قارورَةِ مِياهٍ غازِيَّةٍ وَسَقَيْتُها إِيّاه. وَهٰكَذا بِعْتُ الأَسبِرينَ والمِياهَ الغازِيَّةَ معًا. لَنْ يَبْقى **أَيُّ إِسْهالٍ** في الغَدِ إِنْ شاءَ الله.

وَهٰكَذا لا أَعْرِفُ كَيْفَ حَدَثَ أَنْ بَدَأَتِ النِّساءُ العَجائِزُ بِالتَّرَدُّدِ إِلى الدُّكّان. كُنتُ أَقيسُ ضَغْطَ الدَّمِ أَيْضًا. قِياسُ ضَغْطِ الدَّمِ كَانَ أَعلى سِعرًا طَبْعًا لِأَنَّهُ خَطير. كنتُ في كُلِّ مَرَّةٍ أَخْطَفُ آلَةَ قِياسِ الضَّغْطِ مِنْ جَدَّتي. لَوْ شَعَرَتْ بِذٰلِكَ لَكانَتْ عاقِبَتي وَخيمَة. لٰكِنَّهُ عَمَلٌ مُربِحٌ لِأَنَّني أَبيعُ كيلو مِنَ اللَّبنِ أَيْضًا. أَقولُ لَها مَثلًا: «**ضَغْطُ الدَّمِ مُنْخَفِضٌ، اشْرَبي عَيْرانًا مالِحًا عَلى الفَورِ**». لَقَدْ فَتَحْتُ بابَ رِبحٍ مِنْ لا شَيْء.

وَفي أَحَدِ الأَيّامِ جاءَ الطَّبيبُ، طَبيبُ مُستوصَفِ

القَرْيَةِ، وَكانَ يُحِبُّني كَثيرًا وَأَنـا أَحْتَرِمُه. في النِّهايَةِ اجْتَهَدَ وَصارَ طَبيبًا. كانَ في كُلِّ مَرَّةٍ يَسْـأَلُني: «ماذا سَتُصْبِحينَ عِنْدَما تَكْبُرينَ؟» أَقولُ في نَفسي: «عَلى الأَقلِّ أَنتَ لا تَسأَلُ هٰذا السُّؤَالَ، فَأَنْتَ طَبيبٌ! اسْأَلْ أَسْئِلَةً أَفضَل». وَأَمّا بِلِساني: «سَأَفْتَحُ دُكّانًا، وَأُصْبِحُ بَقّالًا، وَلا داعِيَ إِلى أن أَكْبُرَ، **فَقَدْ أَصْبَحْتُ بَقّالًا مُنْذُ الآن**». كانَ يَضْحَكُ مِنْ جَوابي. كانَتْ هٰذِهِ الحَقيقَةُ تُضْحِكُهُ كثيرًا. البالِغونَ كَذٰلِكَ يَضْحَكونَ كثيرًا مِنَ الحَقائِق.

في ذٰلِكَ اليومِ قُلْتُ في نَفْسي: «بِما أَنَّه جاءَ إِلى الدُّكّانِ فَلْأَسْـتَفِدْ مِنْهُ بَعضَ المَعلومات. سَـأَلْتُهُ ما الدَّواءُ النّافِعُ لِآلامِ الحَلْـقِ، وَالحَرْقَةِ خِلالَ التَبَوُّلِ، وَكَيْـفَ نُعالِجُ قائِتًـا يَتَقَيَّـأُ لِيَوْمَيْـنِ مُتتالِيَيْنِ. كانَ يَضْحكُ مِنْ كُلِّ سُـؤالٍ أُوَجِّهُهُ إِلَيْـه. كانَتْ جَدَّتي تَقولُ عَنْ بَعضِ الأَشْـخاصِ: «**لَقَدْ أُصيبَ بِالجُنونِ مِنْ كَثْرَةِ الدِّراسَـة**». أَظُنُّ أَنَّ هٰذا الطَّبيبَ جُنَّ أَيْضًا. يَضْحَكُ مِنْ كُلِّ سُؤَالٍ لٰكِنَّه يُجيبُ أَيْضًا. لِيَضْحَكْ ما يَشاء، **لٰكِنْ لِيُجِبْ أَيْضًا**...

كانَ جَـدِّي يُنَبِّهُنـي بِحاجِبَيْـهِ، فَهُـوَ لا يُحِبُّ الأَحاديثَ الَّتي لا مَعْنى لَها مَعَ الزَّبائِن، وخُصوصًا مَعَ الطَّبيبِ وَالمُعلِّمِ وَالأُستاذِ، وَكانَ يَنْزَعِجُ كثيرًا. لا داعِيَ إِلى أَنْ يَقولَ شَيْئًا، غَضبُهُ كانَ يَكْفي. إِنَّهُ جَدٌّ يُمكِنُهُ أَنْ يَغْضَبَ بِعَيْنَيْهِ فَقَطْ. تَجْحَـظُ عَيْناهُ وَتَبْرُزُ شَفَتاهُ إِلى الأَمامِ، وَهٰذا يَعْني: «اصْمُتي عَلى الفَورِ». إِلّا أَنَّني **لا أَسْكُتُ** في الغالِب.

في ذٰلِـكَ اليومِ أَيْضًـا لَمْ أَصْمُـتْ لِأَنَّني كُنتُ بِحاجةٍ إِلى هٰذِهِ المَعلوماتِ لِمَكانَتـي المِهَنِيَّة. أَمّا خُطَّتي القادِمَةُ القَريبَةُ فَهِيَ اسْتِدْراجُ المُمَرِّضَةِ كَريمَةَ لِأَتَعَلَّمَ مِنْها حَقْنَ الإِبَر.

بَيْنَما كُنتُ أَسـأَلُ الطَّبيبَ وَأُضْحِكُـهُ، دَخَلَتِ الخالَةُ لُطْفِيَّةُ المُصابَةُ بِصُداعٍ دائِمٍ، وَالخالَةُ مَديحَةُ المُصابَةُ بالتِهابِ المَفاصِل. **يا إِلٰهي! لَقَدْ جاءَتا معًا.** إِنَّهُمـا مَجْنونَتانِ! أَشَـرْتُ إِلَيْهِما بِعَيْنَـيَّ أَنِ اذْهبا، لٰكِنَّهُما لَمْ تَفْهَماني! نَظَرُهُما ضَعيف.

قالَتِ الخالَةُ لُطْفِيَّةُ: «أَشْعُرُ بِأَلَمٍ شَديدٍ في رَأْسي.

لَقَدْ عادَ إِليَّ الأَلَـمُ أَمْسِ. يَبْـدَأُ الأَلَمُ مِـنَ الجُزْءِ الخَلْفِيِّ مِنْ رَأْسي. مُنْذُ أُسبوعٍ وَأَنا في راحَةٍ مِنْ هٰذا الأَلَمِ، بَدَأَ مُجَدَّدًا...».

راحَ الطَّبيبُ يَسأَلُها: «ما الَّذي تَشْعُرينَ بِهِ أَيْضًا؟» لٰكِنَّ الخالَةَ لُطْفِيَّةَ راحتْ تُجيبُني أَنا. أَخَذَتِ الخالَةُ مَديحَةُ مُكَبِّرَ الصَّوتِ وَذَكَرَتْ أَنَّ الأَلَمَ بَدَأَ مِنْ عَظْمِ الوَرِكِ. سَـأَلَها الطَّبيبُ: «أَيْنَ كانَ الأَلَـمُ، وَمِنْ أَيْنَ بَدَأَ؟» لٰكِنَّها كانَتْ تَتَحَدَّثُ مَعي.

حاوَلْتُ التَّمَلُّصَ. أَيْنَ يُمْكِنُني أَنْ أَهْرُبَ في هٰذا الدُّكّانِ الصَّغيرِ بَيْنَ خَمْسَةِ أَشْخاص!؟ أَوْقَفَتاني بِعُكّازَيْهِما، وَطَلَبَتا الدَّواءَ. «لَمْ تَعودا تَتَحَمَّلانِ الأَلَم. لَمْ تَسْتَطيعا النَّومَ طَوالَ اللَّيلِ، وَلا تَسْتَطيعانِ المَشْيَ».

أَدْرَكَ جَدّي حَقيقَةَ الأَمْرِ قَبْلَ الطَّبيبِ، وَكانَ قَدِ اعْتادَ عَلى أَعْمالِيَ وتَصرُّفاتي، بَيْنَما كانَ الطَّبيبُ يُحاوِلُ فَهْمَ ما يَحدُثُ. لَمْ يَكُنِ البُخارُ يَتَصاعَدُ مِنْ أَنْفِ جَدّي في هٰذِهِ المَرَّةِ، بَلْ كانَتِ النِّيرانُ تَنْتَشِرُ في كُلِّ زاويَةٍ. بدا وَكَأَنَّهُ يَكادُ يَنْفَجِر. وَهٰذا ما جَرى فيما بعدُ:

«**هَلْ تُقَدِّمينَ لِلزَّبائِنِ الدَّواءَ؟**»

«إِنَّهُم مَرْضى، يَشْعُرونَ بِالأَلَمِ وَلا يَسْتَطيعونَ النَّومَ».

«**هَلْ تُقَدِّمينَ لَهُمُ الدَّواءَ؟**»

إِعادَةُ تَوْجيهِ السُّؤالِ تَعْني أَنَّ الأَمرَ جَدِّيٌّ لِلْغايَة.

«نَعَمْ أُعطيهُمُ الدَّواء».

تَدَخَّلَ الطَّبيبُ فَورًا:

«كيْفَ تُعْطينَهُمُ الدَّواءَ دونَ اسْتِشارَة؟»

لَيسَ دونَ اسْتِشـــارَةٍ، وَإِنَّما بِاسْتِشـــارَتِهِم. الأَلَمُ يَبْدَأُ مِنَ الجُزْءِ الخَلفِيِّ مِنَ الرَّأْسِ، سَبَبُهُ ضَغْطُ الدَّمِ. أَقيسُ ضَغْطَ الدَّمِ، أَجِدُهُ مُنْخَفِضًا دائِمًا».

«هَلْ تَقيسينَ ضَغْطَ الدَّمِ أَيْضًا؟»

«لَيسَ دائِمًـــا، بَلْ عِنْدَ اللُّزوم. انْظُـــرْ إِلى الخالَةِ مَديحَةَ مَثَلًا، تُعانـــي «الروماتِزْمَ» لا أَقيسُ لَها ضَغْطَ الدَّمِ. أَلَيْسَ كَذٰلِكَ يا خالَةُ مَديحَة؟»

رَمَيْتُ الكُرَةَ إِلى مَلْعَبِهِما. سَتُدافِعانِ عَنِّي الآنَ. دافَعَتا عَنِّي فِعْـــلًا. ذَكَرتا أَنَّ الطَّبيـــبَ يَطْلُبُ مِنْهُما التَّحاليلَ الطِّبِّيَّةَ عَلى الدَّوامِ، وَأَنَّهُما لا تَسْـــتَطيعانِ الذَّهابِ إِلى المُسْتَشْـــفى، وأَنَّ الأَدوِيَةَ الَّتي أُقَدِّمُها لَهُما تَنْفَعَهُما كَثيرًا، وَأَنَّهُما تَنامـــانِ جَيِّدًا. ثُمَّ قالَتا: «وَالدَّواءُ عِنْدَها أَرْخَصُ ثَمَنًا، وإِنَّها تَبيعُ الدَّواء حَبَّةً حبَّةً، وَهٰكَذا يَكونُ أَرْخَص».

بِكَلامِهِما هٰذا احْتَدَّ جَـدِّي الَّذي كانَ هَدَأَ وَلانَ قَليلًا.

«وَتَبيعينَهُما الـدَّواءَ؟ لِمٰاذا هٰكذا يـا بُنَيَّتي؟ مَنْ تُشْبِهينَ بِتَصرُّفاتِكِ؟ لِمٰاذا أَنْتِ هٰكَذا يا بُنَيَّتي؟» وَبَيْنَما كانَتْ جُمَلُهُ تَتَوالى دَخَلَتْ جَدَّتي ـ أُمّهُ ـ وَقالَتْ:

«أَيْنَ أَدْوِيَتي يا شُكْري؟ أَخَذْتَها وَلَمْ تُعِدْها؟ إِنْ ماتَتْ أُمُّكَ فَكَيْفَ تَدْري؟ اذْهَبْ وأَحْضِرْ لي الدَّواء. رِجْلايَ تُؤْلِماني أَلَمًا شَديدًا».

حَتّى لَـوْ كُنْتَ جَدًّا فَـإِنَّ أُمَّكَ تُؤَنِّبُـكَ. ها هِيَ تُوَبِّخُكَ أَمامَ الجَميعِ، **أووووه... تَسْتَحِقُّ ذٰلِكَ!**

تَخَلَّصْتُ مِنْ جَدِّي في تِلكَ الأَثْناءِ لٰكِنَّ الطَّبيبَ أَمْسَكَ بي. تَحَدَّثَ مَعي لِسـاعَةٍ كامِلَةٍ. تَحَدَّثَ عَمّا يُسَبِّبُهُ اسْتِخْدامُ الدَّواءِ دونَ اسْتِشـارَةٍ. استَمَعْتُ إِلَيْهِ وأَنا مُطَأْطِئَةُ الرَّأْسِ. أَنْظُرُ إِلى أَرْضِيَّةِ الدُّكّان. أُحاوِلُ تَشْبيهَ الأَشْكالِ المَرْئِيَّةِ بِأَشْياءَ مُخْتَلِفَةٍ أُخرى. عَدَدْتُ الحِجارَةَ عَلـى الأَرْضِ. كُنْتُ أَبْدو مُسْـتَمِعَةً جَيِّدَةً، لٰكِنَّ عَقْلي كانَ عِندَ العَمِّ وَهْبي. كُنتُ وَعدْتُهُ أَنْ آخُذَ

إِلَيْهِ دَواءً لِلْمَعِدَةِ مَعَ أَغْراضِهِ الَّتي طَلَبَها مِنَ الدُّكّان. كانَ يَشْعُرُ بِحَرْقَةٍ في مَعِدَتِهِ. وَكُنْتُ وَجَدْتُ الدَّواءَ المُناسِبَ عِنْدَ خالَتي وَسيلَة. تَشْعُرُ خالَتي وَسيلَةُ بِحُرقَةٍ في المَعِدَةِ أَيْضًا جَرّاءَ الحَمْل، فَالدَّواءُ المُناسِبُ لَها مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّهُ مُناسِبٌ لِلْعَمِّ وَهْبي أَيْضًا. خَشِيتُ أَنْ يُفَتِّشَ الطَّبيبُ جُيوبِيَ فَيَجِدَ الدَّواء! اسْتَمَرَّ في تَقْديمِ نَصائِحِهِ وَتَرَكَني بعدَ أَنْ قالَ أَخيرًا:

«ادْرُسي لِتُصْبِحي طَبيبةً، فَحينَها تَصِفينَ الدَّواءَ لِلْجَميع».

طَبْعًا لَمْ أُجِبْهُ: «لَقَدْ أَصْبَحْتُ طَبيبةً دونَ أَنْ أَدْرُسَ. لَقَدْ سَبَقْتُكَ في هٰذِهِ المِهْنَة، فَمَرْضاكَ يَأْتونَ إِليَّ. انْظُرْ إِلى الخالَةِ لُطْفِيَّةَ وَالخالَةِ مَديحَةَ، لَقَدْ ساعَدْتُهُما لِلوقوفِ عَلى أَقْدامِهِما». وَمَعَ ذٰلِكَ قُلْتُ لَهُ: «أَنا آسِفَة».

إِنَّ البالِغينَ مُغرَمونَ بِأَنْ يَعْتَذِرَ الآخرونَ إِلَيْهِم. وهٰا أَنا اعتَذَرْتُ إِلَيْهِ لِأَنَّ الوَقْتَ لَيْسَ وَقْتَ إِطالَةِ الكَلامِ. العَمُّ وَهْبي يَشْعُرُ بِحَرْقَةٍ شَديدَةٍ في مَعِدَتِه.

يَعيشُ العَمُّ وَهْبي وَحدَهُ خارِجَ القرْيَةِ. بَيْتُهُ بَعيدٌ جِدًّا عَنِ البُيوتِ الأُخرى. لَدَيْهِ الكَثيرُ مِنَ الكِلابِ، وعِرْزالٌ فوقَ شَجَرةٍ، وَقَبْرانِ، نَعَمْ، هٰذِهِ حَقيقَة!

لَمْ يَرْضَ بِدَفْنِ أَبيهِ وَأُمِّهِ في مَقْبَرَةِ القَرْيَةِ، فَهُما يَرْقُدانِ في حَديقَةِ مَنْزِلِهِ الآنَ. أَخافُ قليلًا عِنْدَما أَذْهَبُ إِلَيْهِ: رَهْبَةُ الغابَةِ، الكِلابُ تَجْري هُنا وهُناكَ، وَقَبْرانِ في الحَديقَةِ. لٰكِنَّني أُحِبُّ العَمَّ وَهبي لِأَنَّهُ، وَكَما ذَكَرْتُ، مِنْ أَحَبِّ الزَّبائِنِ إِلَيَّ. يَطلُبُ البَسْكَويتَ وَالمِياهَ الغازِيَّةَ بِالبُرتُقال. يُعْطيني كوبًا لِأَشْرَبَهُ وآخُذُ قِطْعَتَيْنِ مِنَ البَسكويتِ، وَنَأْكُلُها مَعًا في عِرْزالِ الشَّجَرَة. آخذُ قِطْعَتَيْنِ فَقَطْ لا ثَلاثَ قِطَعٍ حَتّى الآنَ. لِيأْكُلَها هُوَ...

لا يتَكَلَّمُ العَمُّ وَهْبي كثيرًا لٰكِنَّهُ مُسْتَمِعٌ جَيِّد. لِذا كُنتُ أُخبِرُهُ بِكلِّ ما يَحْدُث. هُناكَ الكَثيرُ مِنَ الأَحْداثِ الَّتي تَجْري في القَريَةِ، فَأَنا أَقضي اليومَ بَيْنَ الدُّكّانِ وَالمَقْهى وأَسْمَعُ ما يَحدُثُ. وَهُوَ يَسْمَعُني دونَ أَنْ يُسْكِتَني. لَوْ كانَ جَدِّي لَأَشارَ عَليَّ

مِائَةَ مَرَّةٍ بِأَنِ اسْــكُتي. هُوَ غَيرُ مَوجــودٍ الآنَ فَآخُذُ راحَتي بِالكَلامِ مَعَ العَمِّ وَهْبي.

أَخْبَرْتُهُ بِما حَدَثَ في ذٰلِكَ اليومِ أَيْضًا، قُلْتُ لَهُ: «إِنَّ الطَّبيبَ هَنَّأَني، وقَالَ إِنَّهُ لَمْ يَرَ طِفْلًا بِهٰذا الذَّكاءِ. وَأَضافَ: «إِنَّنا نُخْطِئُ في مِهْنَتِنا مُنذُ سَــنواتٍ. نَدْعو المَرضى إِلى المُسْــتَوصَفِ أَوَّلًا، ثُمَّ نُرْسِــلُهُمْ إِلى المُسْتَشْــفى لِإِجْراءِ التَّحاليل. فيما بَعدُ نَصِفُ لَهُمُ الدَّواءَ في وَصْفَةٍ طِبِّيَّةٍ، وَنُرْسِلُهُم إِلى الصَّيْدَليَّة. إِنَّهُمْ عَجائِزُ مَرْضى وَمَعَ ذٰلِكَ نُتعِبُهُــم. إِنَّ ما تَقومينَ بِهِ هُوَ الأَفضَلُ. لَقَدْ جَمَعْتِ كُلَّ الخَدَماتِ تَحتَ سَقْفٍ واحِدٍ. عِلَاوةً عَلى ذٰلِكَ أَنْتِ تَقومينَ بِهٰذا العَمَلِ في الدُّكّانِ. هَنَّأَني وَيُبَلِّغُكَ السَّــلام». ثُــمَّ أَعْطَيْتُهُ دَواءَ المَعِدَة.

رَمى العَمُّ وَهْبي البَسْــكويتَ لِكِلابِــهِ في أَثناءِ اســتِماعِهِ إِلَيَّ. وَأَنا دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَرْحَمَ أَبَوَيْهِ. إِنَّهُمْ يَقولونَ عَنِّي إِنَّني «عَديمَةُ التَّربِيَة» لٰكِنَّني أَعْرِفُ أَنَّ عَلَيْنا الدُّعاءَ عَلى رَأْسِ القَبْر.

في أَثْناءِ عَوْدَتي فَكَّرْتُ وَقُلْتُ لِنَفسي «إِنْ سَأَلَني

ذاكَ الطَّبيبُ مَرَّةً أُخْرى: «**مٰاذا سَتُصْبِحينَ في المُسْتَقْبَلِ؟**» سَأُجيبُهُ: «سَأُصْبِحُ العَمَّ وَهْبي».

يا لَها مِنْ حَياةٍ سَعيدةٍ. تَعيشُ وَحْدَكَ في الغابَة...

لَيْسَ هُناكَ جَدٌّ يُحَرِّكُ حاجِبَيْهِ وَعَيْنَيْهِ لِيُسْكِتَك...

لَيْسَتْ هُناكَ أُمٌّ تَقولُ لَكَ: «تَناوَلِ الطَّعامَ وإِلّا»...

لا أُمَّ...

لا طَبيبَ...

وَلا مَديحَةَ وَلا لُطْفِيَّةَ...

نَعَمْ، الأَفْضَلُ لي أَنْ أُصْبِحَ العَمَّ وَهْبي...

سَيّارَةُ البَضائِع

أَسْــعَدُ ما يَقومُ بِهِ الأَجيرُ، فــي دُكّانٍ ما، هُوَ أَنْ يَدخُلَ سَــيّارةَ البَضائِعِ دونَ أَنْ يَمْنَعَهُ أَحَدٌ. البَضائِعُ تَعْنــي الحاجِيّاتِ المَوْجــودَةَ في الدُّكّانِ. وَسَــيّارَةُ البَضائِعِ هِــيَ السَّــيّارَةُ الَّتــي تَنْقُلُ البَضائِــعَ إِلى الدَّكاكين. تَأْتي سَيّارةُ البَضائعِ مَرَّةً في الأُسبوعِ، أَو كُلَّ عَشَرَةِ أَيّام. يَسْــأَلُ المُوَزِّع عَنِ البَضائِعِ القَديمَةِ وَيَضَعُ البَضائِعَ الجَديدَة.

سَـيّارَةُ البَضائِعِ شـاحِنَةٌ مُغْلَقَةٌ، وَداخِلُها يُشْبِهُ الدُّكّانَ الجَوّال. تَدخُلُ السَّـيّارَةَ وتَقولُ أُريدُ مِنْ هٰذا وَذاك. أَمّا بِالنِّسْـبَةِ إِلى البَضائِعِ الَّتي لا تُباعُ فَتَقولُ لَهُ: لا... لا أُريدُها. إِلى هُنا لَيْسَ هُناكَ ما يَدْعو إِلى الفَخْرِ وَالكِبْرِياء. المُثيرُ في الأَمْـرِ هُوَ عِنْدَما يَكونُ هُناكَ مُنْتَجٌ جَديد. يَسْأَلُ المُوَزِّعُ جَدَّي: «لَدَيْنا مُنْتَجٌ جديدٌ، هَلْ تَرغَبُ في تَجرِبَتِه؟». لا بُدَّ مِنْ أَنْ يُجَرِّبَ أَحَدٌ المُنْتَـجَ الجَديدَ، وَفي حالاتٍ كَهٰـذِهِ يَدْعوني جَدِّي: «**تَعالَيْ تَذَوَّقيهِ لِنَشْتَرِيَهُ إِنْ كانَ لَذيذًا**».

يا لَها مِنْ جُمْلَةٍ **رائِعةٍ**!..

أَنْ تَكـونَ أَوَّلَ مَـنْ يَتَـذَوَّقُ نَوعًا جَديـدًا مِنَ الشّوكولاتَةِ، وَأَنْ تَقومَ مِنْ بَيْنِ أَصدِقائِكَ وَتَسيرَ عَلى مَهْلٍ نَحْوَ سَـيّارَةِ البَضائِـعِ، ثُمَّ تَأْكُلَ الشّـوكولاتَةَ وَتَسْـتَمْتِعَ بِها حَتّى آخِرِ قِطْعَةٍ فيها، وَمِنْ ثَمَّ تُعْطي رَأْيَكَ.

أ) لَذيذٌ لِنَشْتَرِه.

ب) لا يُمْكِنُ أَنْ نَشْتَرِيَهُ، لَمْ يُعجِبْني.

هَلْ تَتَخَيَّلُ هٰـذا الأَمْرَ؟.. مَصيرُ تَـذَوُّقِ جَميعِ أَولادِ القَرْيَةِ لِتِلْكَ الشّوكولاتَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ. فإِنْ قُلْتَ: لا، فَلَيْسَ هُناكَ أَيُّ احْتِمالٍ بِـأَنْ يَتَذوَّقوها. وَلِأَنَّني أَشْـفَقْتُ عَلى أَصْدِقائِيَ لَمْ أَرْفُضْ أَيَّ نَـوْعٍ نَوْمِنَ الشّـوكولاتَةِ حَتّـى الآن، فَقَـدْ أَعْطَيْـتُ رَأْيي في جَميعِها: «لَذيذَةٌ جِدًّا لِنَشْتَرِها».

تَنْفَدُ مُحْتَوياتُ العُلْبَةِ الأُولى مِنَ المُنْتَجِ الجَديدِ بِمُجَرَّدِ دُخولِها إِلى الدُّكّانِ لِأَنَّه قَلَّما تَأْتي المُنْتَجاتُ الجَديدَةُ إِلَيْنا، وَالأَولادُ يَمَلُّونَ مِنَ القَديمِ وَيَنْتَظِرونَ المُنْتَجَ الجَديد.

هٰذا الأَمرُ تَجْديدٌ مُهِمٌّ وَجِدِّيٌّ لِلْغايَةِ بِالنِّسبَةِ إِلى الأَطْفالِ الَّذينَ يَقْضونَ مُعظَمَ أَوْقاتِهِمْ جُلوسًـا أَمامَ الدُّكّان. وَأَنا الشَّخْصُ الَّذي يَفْتَحُ لَهُمْ بابَ التَّجديدِ هٰذا. **يا لَهُ مِنْ مَدْعاةٍ لِلْفَخْر!**

في أَحَدِ الأَيّامِ وَبَيْنَما كنتُ أَتناوَلُ الشّـوكولاتَةَ بِسعادَةٍ، راوَدَني شُـعورٌ بِأَنَّني أَظْلِمُ كُلَّ أَهْلِ القَريَةِ. كَمْ كُنّا أَشْخاصًا أَنانِيِّينَ!

كُلُّ هٰذا بِسَبَبِ جَدِّي. كُنّا نَبيعُ في الدُّكّانِ ما يُريدُهُ جَدِّي، وَنُطْعِمُ الأَوْلادَ ما أُريدُهُ أَنا. هٰذا غَيْرُ عادِلٍ. لا بُدَّ أَنْ نُعالِجَ الأَمْرَ. كُلُّ ما نَحْتاجُ إِلَيْهِ الآنَ بَعْضُ **الدَّفاتِرِ**. وَكانَ لَدَيَّ **الكَثيرُ** مِنَ الدَّفاتِرِ.

كانَ جَدِّي يُفرِغُ الرَّفَّ المَوجودَ تَحْتَ رَفِّ القِرطاسِيَّةِ عِنْدَما تَفْتَحُ المَدارِسُ أَبوابَها، وكُنّا نَضَعُ عليهِ كُلَّ ما يُمْكِنُ أَنْ يَحتاجَ إِلَيهِ الطّالِبُ مِنْ أَقْلامٍ ومَساطِرَ وَدَفاتِرَ وَمَقالِمَ وَدَوَياتِ حِبْرٍ وَعُلَبِ فِرْجار... كانَتِ الدَّفاتِرُ تَتطلَّبُ مَكانًا كَبيرًا، لِهٰذا السَّبَبِ كُنّا نَتْرُكُ قِسْمًا مِنْها فقطْ عَلى الرَّفِّ، بَعدَ مُرورِ فَتْرَةٍ عَلى دُخولِ الطُّلّابِ المَدارِسَ، وَنَنْقُلُ الباقي إِلى المَخْزَن.

أَعْطاني جَدِّي، في السَّنَةِ الماضِيَةِ، صُندوقًا مِنَ الدَّفاتِرِ، وَقالَ لي: خُذيها إِلى المَخْزَن. لَمْ أَكُنْ أَعْمَلُ عِنْدَهُ بَعدُ، وَإِنَّما كُنتُ حَفيدَتَهُ، لِذا كانَ يَتَوَجَّبُ عَلَيَّ القِيامُ بِما يطلُبُه منّي. حَمَلْتُ الصُّندوقَ وَوضَعْتُهُ في مَكانٍ ما في المَخْزَن. لَمْ أَذْهَبْ إِلى المَخزَنِ مَرَّةً أُخْرى.

في السَّنَةِ التّالِيَةِ قالَ لي: أَحْضِري صُنْدوقَ

الدَّفاتِرِ لِنَصُفَّها هُنا. ذَهَبْتُ فَوْرًا إِلى المَخْزَنِ. كانَ الغُبارُ قَدْ غَطّى الدَّفاتِرَ لِأَنَّ غِطاءَ الصُّندوقِ كانَ مَفْتوحًا. كانَ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّهُ سيَغْضَبُ عَلَيَّ وَيقولُ: «أَلَمْ تُغْلِقي غِطاءَ الصُّنْدوقِ؟» بَدَأْتُ أَمْسَحُ الغُبارَ عَنِ الدَّفاتِرِ. الدَّفْتَرانِ الأَوَّلانِ كانا مُغَطَّيَيْنِ تَمامًا بِالغُبارِ، لذٰلِكَ خَبَّأْتُهُما عَلى أَنْ أَحْرِقَهُما في الوَقْتِ المُناسِبِ. غَيْرَ أَنَّني كُلَّما أَخَذْتُ دَفْتَرًا في يَدي كُلَّما كُنتُ أُصابُ بِصَدْمَةٍ تَلي صَدْمَة. لَقَدِ انْتَهى أَمْري اليومَ! **لَقَدِ انْتَهَيْتُ تَمامًا**. سَأَمُوتُ اليومَ. أَوْ عَلَيَّ الهَرَبُ مِنَ البَيْتِ. أَوْ أَنَّ جَدِّي سيَطْرُدُني مِنَ البَيْتِ. كانَ الوَضْعُ سيِّئًا لِلْغايَة.

لَقَدْ دخَلَتِ **الفِئْرانُ** إِلى الصُّنْدوقِ **وَقَرَضَتِ** الدَّفاتِرَ كُلَّها. كانَ جَدِّي يُنادي: «هَيّا يا ابْنَتي أَحْضِري الدَّفاتِر». إِلّا أَنَّني لَمْ أَسْتَطِعِ التَّزَحْزُحَ مِنْ مَكاني مُتأَثِّرَةً مِمّا رَأَيْت.

وَبَيْنَما كُنتُ عَلى هٰذا الحالِ إِذْ بِأَنْفاسِ جَدِّي تَنْفُحُ في رَقَبَتي... لَقَدْ جاءَ... وَهُوَ واقِفٌ هُناكَ... خَلْفي!

أَحسَنُ ما في الأَمْرِ هُوَ الفِئْرانُ. إِنَّ الفِئْرانَ الَّتي قَرَضَتِ الدَّفاتِرَ قادِرَةٌ عَلى أَنْ تَقْرِضَ الصُّنْدوقَ أَيْضًا. هٰذا يَعْنـــي أَنْ لَيسَ هُناكَ أَيُّ مَعنًى مِـــنِ اتِّهامِ تارِكِ الصُّنْدوقِ مَفْتوحًا. إِنَّ المُشْـــكِلَةَ نابِعَةٌ مِنَ الشَّخْصِ الَّذي طَلَـــبَ وَضْعَ الصُّندوقِ هُنا فـــي هٰذا المَكانِ. وَالنَّتيجَةُ... هُناكَ مُتَّهَمانِ: جَدِّي وَالفِئْران.

إِذا أَنا قُمْتُ بِشَـــنِّ هُجومٍ قَبْلَ جَدِّي أَخْرُجُ بَريئَةً كُلَّ البَراءَةِ مِنْ حادِثَةِ الدَّفاتِـــرِ وَالفِئْران. التَفَتُّ إِلى جَدِّي وَقُلْتُ لَهُ بِنَبْرَةِ اتِّهامٍ:

«أُوففففْ... يا جَدِّي! لَكَمْ أَتَعَجَّبُ مِنْ تَفكيرِكَ! هَلْ تُوضَعُ الدَّفاتِرُ هُنا؟ هَلْ أَعْجَبَـــكَ ما قُمْتَ بِهِ؟ انْظُرْ، لَقَدْ قَرَضَتْها الفِئْرانُ كُلَّها». وَبَيْنَما كُنتُ أُصْدِرُ صَوتَ القَرْضِ الْتَقَـــتْ نَظَراتُنا، وَبَـــدا كَأَنَّ صاعِقَةً سَتَسْقُط. لَمْ أَسْمَعْ جَوابَهُ حَتّى. لَقَدْ لُذْتُ بِالفِرار... كانَ يَصرُخُ مِـــنْ خَلْفي... يا إِلَهي! مـــا الَّذي قُمتُ بِهِ؟!

هَلْ مِنَ المَعقولِ اتِّهامُ الجَـــدِّ؟ إِنَّ الدُّكّانَ لَهُ. إِنْ أَرادَ أَطْعَمَ الدَّفاتِرَ لِلْفِئْرانِ، وَإِنْ أَرادَ أَكَلَها بِنَفْسِه.

ما عَلاقَتي أَنا؟!

كانَتِ النَّتيجَــةُ أَنَّ جَدِّي ذَهَبَ وَاشْــتَرى دَفاتِرَ جَديدَةً، وأَصْدَرَ تَعليماتٍ عَــنِ الدَّفاتِرِ الَّتي قَرَضَتْها الفِئْــران: «إِنَّ هٰذِهِ الدَّفاتِرَ قَرَضَتْهــا الفِئْرانُ، إِلّا أَنَّها تَصْلُــحُ لِلِاسْــتِخْدام». وَوُزِّعَتْ عَلــيَّ وَعَلى أَولادِ العائِلةِ الآخَرين.

حقًّا، إِنَّهُ أَمرٌ جَميلٌ! لا تُغْلِقُ غِطاءَ الصُّنْدوقِ، ثُمَّ تُرْسِــلُ الدَّفاتِرَ إِلى المَخْزَنِ رَغْــمَ مَعرِفَتِكَ بِوُجودِ الفِئْــران، وَمِنْ ثَمَّ أَذْهَــبُ أَنا إِلى المَدْرسَــةِ بِدَفاتِرَ مُمَزَّقَة... ما هٰذا الأَمرُ! يا لَهُ مِنْ جَدٍّ ذَكِيٍّ!

يَذهَبُ جَدِّي إِلى السُّوقِ في أَيّامِ السَّبْتِ وَيَتْرُكُ الــدُّكّانَ لي. هٰــذا يَعْني أَنَّــه يُمْكِنُ تَــرْكُ الدُّكّانِ لِأَحَدِهِمْ فــي غِيابِ صاحِبِهِ، وَهٰذا يَعْنــي أَيْضًا أَنَّهُ يُمْكِنُني أَنْ أَتْرُكَ الدُّكانَ لِأَحَدِهِمْ مَتى شِئتُ. وَفي ذٰلِكَ اليَومِ تَرَكْتُ الدُّكّانَ بِعُهْدَةِ ابنِ خالي. عَلى كلِّ حــالٍ كلُّ مُنتَجٍ عَلَيْــهِ ثَمَنُهُ، وَسَــأَعودُ بَعدَ نِصْفِ ساعَة.

حَمَلْتُ الدَّفاتِرَ الَّتــي قَرَضَتْها الفِئْرانُ، وَتَجَوَّلْتُ

بِها عَلـى كُلِّ بُيوتِ القَريَـةِ بَيْتًا بَيْتًا. نَسَّـقْتُ نَصًّا جَميلًا وَحَفِظْتُهُ وَذَكَرْتُهُ عِنْدَ كُلِّ بابٍ طَرَقْتُهُ:

«يَسُـرُّ دُكّانَنا تَقديمُ أَفضَلِ الخَدَمـاتِ لَكُمْ، لِذا نَرْجو مِنْكُم تَسْـجيلَ المُنْتَجاتِ الَّتـي تَرْغَبونَ فيها وَذٰلِـكَ لِتَقْديمِ خِدْمَـةٍ أَفْضَل. كَمـا يُمْكِنُكُم كِتابَةُ تَوْصِياتِكُم أَو شَكاواكُم. آراؤكُمْ تَهُمُّنا».

كُنتُ قَرَأْتُ شَـبيهَ هٰذا النَّصِّ في أَحَدِ المَطاعِم. عِندَما ذَهَبْتُ مَعَ والِديَّ إِلى مَدينَـةِ الأَلعابِ دَخَلْنا مَطْعَمًا صَغيرًا. وَكَما ذَكَرْتُ أُحِبُّ قِـراءَةَ الكِتاباتِ عَلى الأَغْلِفَة. كانَتْ عَلى الطّاوِلَةِ وَرَقَةٌ مَكتوبٌ عَلَيْها ما يُشْبِهُ هٰذِهِ الجُمَلَ. وَأَنا قُمْتُ بِتَنْسيقِها بِما يُناسِبُ دُكّانَنا.

عُدْتُ إِلـى الدُّكّانِ مسـرِعةً قبلَ عَـوْدةِ جَدّي. وَصلْتُ لاهِثَةً إِلّا أَنَّني تَخَلَّصْتُ مِنَ الدَّفاتِر. كَما أَنَّه مِنَ المُهِمِّ جِدًّا أَخْذُ آراءِ الزَّبائن.

بَعْدَ أُسبوعٍ، عِنْدَما قَصَدْتُ الدُّكّانَ وَجَدْتُ جَدّي يَنْتَظِرُ أَمـامَ البابِ وَقَدْ وَضَـعَ يَدَيْهِ خَلْـفَ ظَهْرِه.

تَحَدَّثْنا فَسَأَلَني بَعضَ الأَسْئِلَةِ مِنْ مِثْلِ: «أَيْنَ أُمُّكِ؟ لِماذا تَأَخَّرْتِ؟ هَلْ ذَهَبَ أَبوكِ إِلى العَمَلِ؟ هَلِ اسْتَيْقَظَ جَدُّكِ القَهْوجي؟» أَجَبْتُهُ عَنْها كُلِّها. إِلّا أَنَّه لَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ أَمامِ البابِ وَلَمْ أَستَطِعْ دُخولَ الدُّكّانِ، وكانَتْ يَداهُ لا تَزالانِ مَعْقودَتَيْنِ خَلْفَ ظَهْرِهِ لا أَستَطيعُ أَنْ أَرى ما فيهِما.

فَكَّرْتُ لِبُرْهَةٍ: «هَلْ جَهَّزَ لي مُفاجأَةً يُخَبِّئُها عنّي». لا يُمْكِنُ طَبْعًا! لَيْسَتْ بِالتَّصرُّفاتِ المُتَوَقَّعةِ

مِنْ جَدِّي! لا داعِيَ إِلى أَنْ أَبْني أَحْلامي عَلى شَفا حُفرةٍ. لَمْ أَعُدْ أَتَحَمَّلُ، قُلْتُ لَهُ: «مُدَّ يَدَكَ لِأُقَبِّلَها». وَسَحَبْتُ ذِراعَه لِأُقَبِّلَ يَدَهُ مِنْ جِهَةٍ، وَأَرى ما فيها مِنْ جِهَةٍ أُخْرى، وَأَسْتأْذِنَ لِدُخولِ الدُّكّانِ أَيْضًا. إِلّا أَنَّها لَمْ تَكُنْ فِكرةً صائِبَةً. لَقَدْ أَخْطَأْتُ خَطأً جَسيمًا بِفِعْلي هٰذا.

كانَ يُمْسِكُ في يَدِهِ ثَلاثَةَ دَفاتِرَ... ثَلاثَةً مِنَ الدَّفاتِرِ الَّتي قَرَضَتْها الفِئْران.

مكتبة
t.me/t_pdf

وَهٰذا ما حَدَثَ:

«خُذي، لَقَدْ وَصَلَتْ بِاسْمِكِ».

«آآآ... ما أَجْمَلَهُ مِنْ دَفترٍ! هَلْ أَعادوه؟»

«اقْرَئي ماذا كُتِبَ».

«تُعْجِبُنا خِدمَةُ الدُّكّانِ، إِلّا أَنَّهُ لا تُعْجِبُنا العامِلَةُ الَّتي تَعْمَلُ فيهِ. لَقَدْ باعَتْنا الخُبْزَ البائِتَ في المَرَّةِ الماضِيَةِ بِحُجَّةِ أَنَّها لا تَبيعُ الخُبْزَ الطّازَجَ ما لَمْ تَبِعِ الخُبْزَ القَديم.

وَفي إِحْدى المَرّاتِ أَعَدْنا عُبُوَّةً مُنْتَهِيَةَ

الصَّلاحِيَّةِ، فَقالَتْ لَنا: مِنْ أَيْنَ أَعرِفُ أَنَّ صَلاحِيَّتَها لَمْ تَنْتَهِ عِنْدَكُم في البَيْت؟

أَخَذْتُموها وَتَرَكْتُموها في البَيْتِ حَتّى انْتَهَتْ صَلاحِيَّتُها، ثُمَّ ها أَنْتُم تُحْضِرونَها إِلَيْنا؟؟!! نَنْتَظِرُ مِنَ العامِلَةِ في الدُّكّانِ أَنْ تَكونَ أَكْثَرَ **لُطْفًا**».

«**هَلْ أَعْجَبَكِ وَضْعُكِ الآنَ؟!**»

«هٰذا الكَلامُ كَذِبٌ. كلُّهُ كَذِبٌ. أَعْرِفُ هٰذا الَّذي كَتَبَ النَّصَّ. إِنَّهُ العَمُّ حَقّي أَلَيْسَ كَذٰلِك؟ نَعَمْ العَمُّ حَقّي. يَطلُبُ بالدَّيْنِ دائِمًا وَأَنا لا أَقْبَلُ. لِذٰلِكَ هو حاقِدٌ عَليَّ وَيَنْتَقِمُ مِنّي. **وَأَنْتَ صَدَّقْتَهُ طَبْعًا**».

«لِماذا وَزَّعْتِ هٰذِهِ الدَّفاتِرَ عَلى النّاسِ يا ابْنَتي؟ هَلْ أُصِبْتِ بِالجُنون؟ لِماذا تَقومينَ بِأَعمالٍ تافِهَةٍ سَخيفَة؟ هَلْ تَعْلَمينَ ماذا كَتَبوا؟ هَلْ يُوجَّهُ سُؤالٌ كَهٰذا إِلى الزَّبائِنِ: ما هِيَ رَغَباتُكُم؟»

«سَجِّلوها؟! لَقَدْ أَجْرَيْتُ اسْتِبْيانًا، اضْطُرِرْتُ إِلى ذٰلِك. ثُمَّ إِنّي تَخَلَّصْتُ مِنَ الدَّفاتِرِ الَّتي أَكَلَتْها الفِئْرانُ بِإِعطائِهِمْ إِيّاها. وَهَلْ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلى

المَدْرَسَةِ بِدفاتِرَ مُمَزَّقَةٍ بَيْنَما الجَميعُ يَحْمِلونَ دَفاتِرَ مُغَلَّفَـةً بِأَجْمَلِ الأَغْلِفَـة؟! هَلْ تُريدُهُـم أَنْ يَقولوا: انْظُروا إِلَيْها إِنَّها تَكتُبُ عَلى دَفترٍ مُمَزَّق؟ هَلِ الذَّنْبُ ذَنْبي إِذا أَكَلَتْها الفِئْـرانُ؟ هَلْ أَنا مَنْ دَفَـعَ الفِئْرانَ إِلَيْها؟ دائِمًـا تَغْضَبُ عَليَّ... دائِمًـا تَتَّهِمُني، دائمًا تُعْطيني **دَفاااااترررر**» هُنا أَجْهَشْتُ بِالبكاء.

كُنتُ أَبْكي عِنْدَما أَغْضَـبُ. لا أُحِبُّ طَبْعي هٰذا أَبدًا لٰكِنَّهُ يَنْفَعُني أَحيانًـا. يَنْتَهي المَوضوعُ بِبُكائي، وَفي هٰذِهِ المَرَّةِ أَيْضًا انْتَهى المَوضوعُ هٰكَذا. لٰكِنَّني سَـأَنْتَقِمُ مِنَ العَمِّ حَقِّي. إِنْ لَمْ أَفْعَلِ اليومَ فَفي الغَدِ القَريبِ، **سَأَنْتَقِمُ لا مَحالَة**...

الشَّيْخُ العَجوز

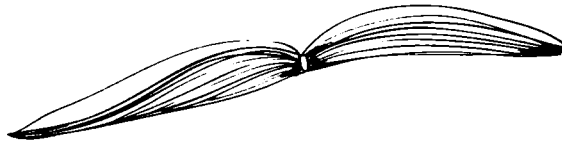

يَقعُ المَسجِدُ مُقابِلَ الدُّكّانِ تمامًا... عِنْدَما يُرْفَعُ الأَذانُ يَذْهَبُ جَدِّي إِلى المَسْجِدِ. لا يَأْتي إِلى الدُّكّانِ كثيرًا. وأَظُنُّ لَوْ رُفِعَ الأَذانُ طَوالَ النَّهارِ لَذَهَبَ إِلى المَسجِدِ كَذٰلِك. يَذْهَبُ أَولادُ القريَةِ أَيْضًا إِلى المَسْجِدِ. يُلْقي عَليهِمْ إِمامُ المَسْجِدِ بَعضَ الدُّروسِ. لا يَهُمُّني دُخولُهُم إِلى المَسْجِدِ بِقَدْرِ ما يَهُمُّني خروجُهُم مِنْه. لِأَنَّهُم، وَبِمُجَرَّدِ خُروجِهِمْ مِنَ المَسْجِدِ، يَتَوجَّهونَ إِلى الدُّكّان. يَشْتَرونَ العَديدَ مِنَ المَأْكولاتِ ثُمَّ يَدخُلونَ المسْجِدَ وَقْتَ الظَّهيرَةِ وَلا يَخرُجونَ حَتّى المَساء.

لا تَجِدُ وَلدًا يَتَردَّدُ إِلى الدُّكّانِ حَتّى المَساء. لَكَمْ يُزْعِجُني هٰذا الأَمْر.

قُلْتُ لِلْأَولادِ الَّذينَ يَذْهَبونَ إِلى المَسْجِدِ مَرَّةً: «اطْلُبوا مِنَ الإِمامِ أَنْ يَمْنَحَكُم استِراحَة. أَنْتُم تَقضونَ

مُعْظَمَ يَومِكُم في الدّاخِلِ، **تُرْهِقونَ أَنْفُسَكُم**. اخْرُجوا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ لِلِاسْتِراحَةِ، يُمْكِنُكُم أَنْ تَأْتوا إِلى الدُّكّانِ مَثَلًا... تَتَحَلَّوْنَ ثُمَّ تَعودونَ إِلى المَسْجِدِ. أَريحوا أَنْفُسَكُم قَليلًا».

ذَكَرْتُ هٰذا لِكُلِّ وَلَدٍ جاءَ إِلى الدُّكّانِ، وَفي النِّهايَةِ نَجَحَ مَسْعاي. نَحنُ الأَطْفالُ عِندَما نَصرُخُ بِصَوْتٍ واحِدٍ نُصْدِرُ صَوْتًا كَصَوْتِ الدِّيكِ الرّومِيِّ. وَعِنْدَما صَرَخَ الجَميعُ بِصَوْتٍ واحِدٍ: **اسْتِراحَة... اسْتِراحَة... نُريدُ اسْتِراحَة...** غَضِبَ عَلَيْهِمُ الإِمامُ وَبَدأَ بِالبَحْثِ عَنْ صاحِبِ الفِكْرَة. لَمْ يَسْتَغْرِقِ البَحْثُ طَويلًا. ذَكَروا لَهُ اسْمي عَلى الفَوْر.

في تِلْكَ الظَّهيرَةِ جاءَ الإِمامُ مَعَ جَدّي إِلى الدُّكّانِ بَعدَ الصَّلاةِ، قالَ: «إِنَّ هٰذِهِ الفَتاةَ تَقْضي مُعْظَمَ وَقْتِها في

الدُّكّانِ، فَلْتَحْضُرْ هِيَ أَيْضًا إِلى المَسْـجِدِ، سَتَسْتَفيدُ كثيرًا».

كانَ جَدِّي يَنْتَظِرُ عَرْضًا كَهٰذا، رَدَّ مُباشـرةً: «مِنَ المُمْكِنِ طَبْعًا».

مِنَ المُمْكِنِ طَبْعًا؟! **وَأنا... أَيْنَ رَأْيي أَنا؟**

رَأْيي أَنا؟ أَنا «بَقّالٌ»، هَلْ أَريدُ الذَّهابَ يا تُرى؟ يا إِلٰهي! كَمْ مِـنَ المُمْتِعِ أَنْ تَكونَ جَدًّا! تَسْـتَطيعُ اتِّخاذَ القَرارِ عَنِ الكُلِّ. **إِنْ كُنـتَ جَدًّا فَأَنْتَ مَلِك!**. أووووه ما أَرْوَعَ ذٰلِك!

في اليَوْمِ التّالي أَرْسَـلوني إِلى المَسْـجِدِ. بَيْنَما كُنتُ في الأَمْسِ أَجْلِـسُ في الـدُّكّانِ أَنْتَظِرُ خُروجَ جَدِّي مِنَ المَسْجِدِ أَجِدُ نَفسـي اليومَ أَنْتَظِرُ الخُروجَ مِنْهُ.

وَفَوقَ هٰذا وَذاكَ ما مِن اسْتِراحَةٍ! لَقَدْ وَقَعْتُ في الحُفْرَةِ الَّتي حَفَرْتُها.

وَبِفِعْلِ الِازْدِحامِ الشَّديدِ في الدّاخِلِ كانَ التَّعليمُ بَسـيطًا لِلْغايَةِ، وَالأَوْقاتُ الَّتي يَهْتَمُّ فيها الإِمامُ بِكَ

قَصيرَةً جِدًّا. كُنتُ عِنْدَما يَأْتي دَوْري أَقْرَأُ وَبِسُرْعَةِ البَرْقِ الفاتِحَةَ وَالمُعَوِّذَتَيْنِ وَدُعاءَ الِاسْتِفْتاحِ، ثُمَّ أَجلِسُ جانِبًا وَأَصْنَعُ فاصِلَةَ كِتابٍ مِنْ وَرَقِ الشّوكولاتَةِ.

كُنْتُ عَلى وَشْكِ الِانْفِجارِ مِنَ المَلَلِ والضِّيقِ.

وَفي أَحَدِ الأَيّامِ طَلَبَ الإِمامُ مِنّا أَنْ نَكْنُسَ المَسْجِدَ. أَسْرَعَ الأَولادُ وَأَخَذوا المَكانِسَ اليَدَوِيَّةَ وَبَدؤوا بِالكَنْسِ، أَمّا أَنا فَقَدْ سَبَقَ وَأَمْضَيْتُ عُمْري بِالكِناسَةِ، اكْنُسي الدُّكّانَ... اكْنُسي المَقْهى... لَمْ يَبْقَ إِلّا أَنْ أَكْنُسَ المَسْجِدَ أَيْضًا. «مِنَ المُسْتَحيلِ أَنْ أَكْنُسَ».

في النَّتيجَةِ كُنّا نَذْهَبُ إِلى المَدْرَسَةِ أَيْضًا، وَهَلْ كُنّا نَكْنُسُ المَدْرسَةَ؟ لاااا. إِذًا... لِماذا نَكْنُسُ المَسْجِدَ عِنْدَما نَأْتي إِلَيْهِ صَيْفًا؟ امْتَنَعْتُ عَنِ الكِناسَةِ وَكُنتُ أَمْنَعُ مَنْ يَكْنُسُ أَيْضًا. أَلا يَكْفي أَنْ **لَيسَ لَدَيْنا اسْتِراحَة!**

بَعْدَ أُسبوعٍ واحدٍ فقطْ سَئِمَ الإِمامُ مِنّي وَقالَ

لِجَدِّي: «خُذوها مِنَ المَسْجِدِ» وَطَرَدَني. لَمْ يَسْتَغْرِبْ جَدِّي، لٰكِنَّهُ لَنْ يَتَراجَعَ عَنِ الأَمْرِ الَّذي بَدَأَ بِهِ.

«لا بَأْسَ، اذْهَبي إِلى السيِّدَةِ حُسْنِيَّةَ، إِنَّها تُعْطي دُروسًا في مَنْزِلِها، اذْهَبي وَتَعلَّمي مِنْها».

عَلى قَلْبي أَحْلٰى مِنَ العَسَلِ. كُنْتُ أُحِبُّها. كانَتْ تَتَرَدَّدُ إِلى الدُّكّانِ أَحيانًا، أَعْرِفُها جَيِّدًا. امْرَأَةٌ لَطيفَةُ المَعْشَرِ. سَأَذْهَبُ إِلَيْها. كُنتُ في كلِّ صَباحٍ أَتَوَضَأُ وَأَلْبَسُ المَلابِسَ المُحْتَشِمَةَ، وَأَضَعُ حِجابِيَ، وَأَحْمِلُ مُصْحَفي، وَأَسْلُكُ طَريقَ بَيْتِها. كُنتُ أَودُّ لَوْ أَنَّها تُقابِلُني بِالِاهْتِمامِ ذاتِهِ، لٰكِنَّها لَمْ تَفْعَلْ. إِنَّها امرأَةٌ عَجوزٌ، تَذهَبُ إِلى الحَمّامِ بِاسْتِمرارٍ. كانَتْ تُعَلِّمُني القُرآنَ دونَ أَنْ تَتَوضَّأَ! هٰذا حَرامٌ. يَتَعارَضُ مَعَ ما تَعَلَّمْتُهُ سابِقًا. أَعُودُ إِلى البَيْتِ في كلِّ يَوْمٍ وَأُناقِشُ المَوضوعَ مَعَ العائِلَةِ وَأَبْكي قائِلَةً:

«إِنَّها تُعلِّمُني القُرآنَ دونَ أَنْ تَتَوضَّأَ! يا لَها مِنْ مُعَلِّمَةٍ! كيفَ سَأَتَعلَّمُ أَنا؟ كيفَ؟»

إِنَّها لا تُطَبِّقُ القَوانينَ مُنذُ البِدايَةِ. وَرَغْمَ ذٰلِكَ

كانَتْ جَدَّتــي تُوبِّخُني: «لا يُعْجِبُكِ هٰــذا وَذاكَ! إِنِ استمَرَّيْتِ عَلى هٰذا الحالِ سَوْفَ تَبْقَيْنَ جاهِلَةً». وَها أَنا أَخْلَعُ مَلابِسي وَكَأَنَّني أُمَزِّقُها وَأَصرُخُ: «إِنْ كُنْتُ سَــأَتَعَلَّمُ هٰكذا فَمِنَ الأَفْضَــلِ أَنْ لا أَتَعَلَّمَ أَبَدًا». ثُمَّ أَخرُجُ وأَلْتَقِطُ أَنْفاسي عِنْدَ جَدَّتي الأُخْرى عَلى أَمَلِ إِنْ غِبْتُ عَــنْ عَيْنَيْها لِيَوْمَيْنِ سَتَشْــتاقُ إِلَيَّ، وَهٰكَذا تَتَخَلّى عَنْ فِكْرَةِ إِرْســالي إِلى دورِ التَّعليم. في كُلِّ مَرَّةٍ أَفْلَحُ في هٰذِهِ الخُطَّة. فَكَما أَنَّ الأُمَّ تُشْــفِقُ عَلى أَولادِها، سَتُشْــفِقُ الجَدَّةُ عَليَّ أَيْضًــا. وَأَخيرًا بَدَّلوا الأُستاذَة حينَما قالَ جَدِّي القَهْوجي:

«هٰذا لا يُجدي، إِنْ كانَتْ سَتَذْهَبُ مُتَذَمِّرَةً فَمِنَ الأَفْضَلِ أَلّا تَذْهَبَ عَلى الإِطْلاقِ. سَأَتَحَدَّثُ إِلَيْها في المَساءِ وَلْتَذْهَبْ إِلى مُحَمَّدِ قَرَه».

أَعْرِفُ ذاكَ الرَّجُل. أُســتاذٌ جِدِّيٌّ لِلْغايَةِ، يَجْلِسُ قُرْبَ النّافِذَةِ عَلى الدَّوامِ، يَنْظُرُ إِلى المارَّةِ. بَيْتُهُ يَقَعُ مُقابِلَ البُحَيْرَة.

«هٰذا مُمْكِنٌ، يُمْكِنُني الذَّهابُ إِلَيْه».

قَرَّرْتُ وَعَزَمْتُ عَلى ذٰلِــكَ. كُنتُ جِدِّيَّةً جِدًّا في

قَراري هٰذِهِ المَرَّةَ وَلَــنْ أَتَراجَــعَ. إِلّا أَنَّني كُنتُ لا أَسْــتَطيعُ إِخراجَ حَرفِ **العَيْنِ** مِنَ الحَلْق. لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ ذٰلِكَ أَبدًا. وَلَقَدْ تَوَقَّفَ الرَّجُلُ عِنْدَ حَرفِ العيْنِ، وَقالَ إِنْ لَمْ أَتَعَلَّمِ العَيْنَ فَلا يُمْكِنُ أَنْ أَتَعَلَّمَ شَــيْئًا. كُنْتُ أُعانِدُهُ وَأَقولُ لَهُ: «نَحنُ نَسْــتَطيعُ أَنْ نَقرَأَ وَلَوْ صَعُبَ عَلَيْنا نُطْــقُ حَرْفِ الرّاء». وَكُنْــتُ مُحِقَّةً في ذٰلِك. لٰكِنَّهُ هُوَ الأُســتاذُ، وَيَجِبُ أَنْ يَتَحَقَّقَ ما يُريدُهُ هُوَ فقــطْ. وَالنَّتيجَةُ كانَتْ أَنَّني تَرَكْتُ هٰذا الأُســتاذَ أَيْضًا بِسَبَبِ حَرفِ العَيْن.

قالوا حينَها إِنَّ الحلَّ الوَحيدَ، والأَمَلَ الأَخيرَ، هُوَ الشَّيْخُ العَجوزُ.

«الشَّيْخُ العَجوزُ!! إِنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَخدُمَ نَفْسَهُ! طاعِنٌ في السِّنِّ!». لٰكِنَّ قَرارَهُمْ كانَ صارِمًا: «اذْهَبي إِلى الشَّــيْخِ لِيُعَلِّمَكِ القُرآنَ، وَلا تَعــودي دونَ أَنْ تَتَعَلَّمي. لَمْ يَبْقَ هُناكَ أُستاذٌ آخَر».

إِنَّهُ شيخٌ عَجوزٌ ذو لِحْيَةٍ بَيْضاءَ وَعَيْنَيْنِ زَرْقاوَيْنِ. أَعْتَقِدُ أَنَّه شَيخٌ لَطيفٌ لا يُمْكِنُ أَنْ يَظهَرَ لِلْإِنسانِ إِلّا في الأَحْلام. أَذهَبُ إِلَيْهِ صَباحًــا، أَتَعلَّمُ حَرْفَيْنِ، ثُمَّ

يَقولُ لـي سَـأَقُصُّ عليـكِ قِصَّـةً: «عِندَمـا كنتُ صَغيرًا...» وَيَبـدَأُ بِروايَةِ قِصَصِه. عجـوزٌ جِدًّا إلى دَرَجَةِ أَنَّهُ لا يَذْكُرُ إِلّا طُفولَتَـهُ وَيَتَحَدَّثُ عَنْها دائِمًا، لٰكِنَّهُ يَرْويها بِشَكْلٍ رائِع.

في الحَقيقةِ أَنا أَعْشَـقُ الإِسْـتِماعَ إلى القِصصِ وَالحَكايا، فَكُنْتُ أَسْتَمِعُ إلى حَديثِهِ وَكَأَنَّني أَسْتَمِعُ إلى قِصَّةٍ أَو حِكايَة. يَرْوي الشَّيْخُ العَجوزُ وَأَنا أَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَأَسْـرَحُ في أَحْلامِيَ إلى عالَـمٍ آخَر. يَتَحَدَّثُ وَيَتَحَدَّثُ، ثُمَّ يَغِطُّ في نَومٍ عَميق.

يَعيشُ الشَّـيخُ وَحدَهُ رَغْمَ أَنَّه عَجوزٌ جِدًّا. كُنْتُ أُنَظِّفُ لَهُ بَيْتَهُ عِندَما يَنـامُ، وَعِنْدَ خروجي آخُذُ حَبَّةً مِنْ حَلْوى السُّكَّرِ وأَتَجَوَّلُ في القَرْيَةِ. الشَّيْخُ العَجوزُ سَعيدٌ، وَأَنا سَعيدَةٌ بِه. لَقَدْ وَجَدْتُ أَفضَلَ طِرازِ حَياةٍ يُناسِبُني.

طَبْعًا، لَمْ تَسْـتَمِرَّ حَياةُ الرّاحَةِ وَالرَّفاهِيَّةِ طَويلًا. في إِحْدى اللَّيالي جاءَتْ جَدَّتي ـ لِأُمّي ـ مساءً إلى جَدَّتي ـ لِأَبي ـ ونَحنُ أَيْضًا ذَهَبْنا إِلَيْها. لا أُحِبُّ هٰذِهِ الإِجْتِماعـاتِ أَبـدًا! يَجْتَمِـعُ الجَميعُ فـي مكانٍ

واحِد... لَيْس هُناكَ مَكانٌ تَهرُبُ إِليْـهِ. كُنْتُ أَعلَقُ هُناك. وَفَوْقَ هٰذا وَذاكَ يَبْـدَأُ جَدّاي بِمُضايَقَتي، مَرَّةً هٰذا وَمَـرَّةً ذاك. أَلا يَكْفينـي أُمّي وَأَبـي وَكَأَنَّهُما يَنْتَظِرانِ مِنّي مُجَرَّدَ خَطإٍ؟! أَمّا جَدَّتاي فَتَتَدَخَّلانِ في كلِّ شيْءٍ. وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرى خالَتي وعَمَّتي... كنتُ أَشْعُرُ بِدُوارٍ في رَأْسـي مِنَ الضَّجيجِ. عَلى كُلِّ حالٍ لَنْ يَتَدخَّلَ أَحدٌ بي إِنْ جَلَسْتُ هادِئَةً إِلى المائِدَة. لَمْ أُصْدِرْ أَيَّ صَوْتٍ. جَلَسْتُ بِكُلِّ هُدوءٍ وَصَمْت.

قالَ جَدّي البَقّال: «هَيّا يا صَغيرَتي اقْرَئي لَنا دُعاءَ المائِدة».

بِكَلامِهِ هٰذا نَظَرْتُ إِلَيهِ كَالطّالِبِ الكَسولِ الَّذي سُئِلَ في الِامْتِحانِ مِمّا لَمْ يَدْرُسْه.

وَخَزَتْني أُمِّي أَنْ: «هَيّا يا ابْنَتي لا تَخْجَلي».

وَقالَتْ جَدَّتي: «أَمْ أَنَّكِ لا تَعْرِفينَ الدُّعاءَ؟»

ثُمَّ جَدَّتي الأُخْرى: «وَهَلْ هٰذا مُمْكِنٌ؟ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ الشَّيْخَ العَجوزَ قَدْ عَلَّمَها ذٰلِك».

أَوْقَعَتْ خالَتي الشَّكَّ في قُلوبِ الجَميعِ: «أَمْ أَنَّكِ لا تَذْهَبينَ إِلَيْهِ؟»

يا لَها مِنْ مُتَطَفِّلَة!! نَظَرْتُ إِلى عَمَّتي وَكِدْتُ أَبْكي. نَظَرْتُ إِلَيْها نَظراتٍ حَزينة: «أَرْجوكِ أَنْقِذيني. جَمَعَكِ اللهُ بِمَنْ تُحِبِّينَ».

فَهِمَتْ عَلَيَّ عَمَّتي.

قالَتْ: «مِنَ المُؤَكِّدِ أَنَّها تَعرِفُ إِلّا أَنَّها تُريدُ أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْكُمْ دُعاءً آخَر».

قُلْتُ في نَفْسي: **فليَحْيَ عَقْلُكِ النّاضِج**. جَهَّزْتُ نَفْسي وَبَدأْت.

أَهلًا وَسَهْلًا بِكُم إِلى مائِدَتِنا.

لا تَرُشُّوا المِلْحَ عَلى طَعامِنا.

لا تَغْمِسوا الخُبْزَ في الفاصولِياء.

تَناوَلوا قَليلًا مِنَ المُخَلَّلِ وَالماء.

ما أَجْمَلَ اجتِماعَنا.

وَلا نَنْسى حَلْوانا.

مائِدتُكُم غَنِيَّة.

لِيَجْعَلَ اللهُ فيها البَرَكَة.

آمين.

أَنْهَيْتُ كَلامِيَ فَهَبَّتْ نَسْـمَةٌ بارِدَةٌ. كُنّا في شَهرِ أَيْلولَ وَالمَدارِسُ عَلى وَشْـكِ أَنْ تَفْتَحَ أَبْوابَها. لَقَدْ أَمْضَيْتُ الصَّيْفَ كُلَّه في تَقويمِ الأَساتِذَةِ أَجْمَعين. لَمْ يُرِدْ جَدِّي أَنْ أَنْزَعِجَ أَكثرَ، أَنْقَذَ الموقِفَ فَقالَ:

«لا بَأْسَ، تَذْهَبُ إِلى المَسْجِدِ في السَّنَةِ القادِمَةِ أَيْضًا، لَقَدِ انْتَهى صَيفُ هٰذِهِ السَّنَة».

أَحضَرَتْ عَمَّتي الحَلْوى، وانْتَهى المَوْضوع.

في رَأْيي أَنَّ دُعاءَ الطَّعامِ كانَ رائِعًا لِلْغايَة. أَضَفْتُ هٰذا الدُّعاءَ أَيْضًا إِلى دَفْتَري في تِلْكَ اللَّيْلَة.

الأَلمانِيّون

تَدخُـلُ في الصَّيْـفِ أَحْيانًـا سَـيّاراتٌ يَضغَطُ سـائِقوها عَلى أَبْواقِها طَويلًا. يَبْدَأُ صَوْتُ البوقِ مِنْ مَدْخَلِ القَريَـةِ حَتّى البَيْتِ الَّذي يُريـدونَ الوُصولَ إِلَيهِ: **طـووووووط.. طووووووط.. طـووووووط.. طووووووط..** وَكانَتْ هٰذِهِ الأَصْـواتُ تُخْرِجُ النّاسَ جَميعًا لِيَقِفـوا أَمامَ بُيوتِهِمْ بِفُضـول. أَنا أَيْضًا كُنتُ أَنْطَلِقُ إِلى خارِجِ الدُّكّان.

كانَ الأَشـخاصُ القادِمونَ أَبْناءَ القَريَةِ العائِدينَ الَّذينَ يَعيشـونَ فـي أَلْمانيا، جاؤوا لِقضـاءِ العُطْلَةِ الصَّيْفِيَّـةِ وَهُمْ يُظْهِـرونَ فَرْحَتَهُمْ بِأَصْـواتِ أَبْواقِ السَّيّارات.

أَكْثرُ شَـخْصٍ أُحِبُّهُ مِنَ القادِمينَ مِنْ أَلْمانيا هُوَ عَمّي إِبْراهيم. وَهُوَ مِـنْ أَقارِبِ جَـدّي. في الأَيّامِ العادِيَّةِ لا يَأْتي جَدّي إِلى الدُّكّانِ كثيرًا، وَعِندَما يَأْتي

إبراهيمُ يُهْمِلُ الدُّكّانَ تمامًا. وَفي المَساءِ يَخْرُجانِ معًا لِيَتَمَشَّيا. اسْتَمْتِعْ كَما تَشاءُ... **يا سلامُ ما أَجملَ الحَياة!**

إلّا أَنَّني، وَلِمَحَبَّتي لِعَمّي إبراهيمَ، لا أَقولُ شَيْئًا. كانَ عَمّي إبراهيمُ يُحْضِرُ لي الشّوكولاتَةَ مِنْ أَلْمانيا... **شوكولاتَةً غَنِيَّةً بِالفُسْتُق**. أَمّا الشّوكولاتَةُ المُنْتَجَةُ لَدَيْنا فَإِنَّهُم لا يُضيفونَ إِلَيْها شَيْئًا وَلا حَتّى البُنْدُق. أَعْرِفُها كُلَّها. وَكَما ذَكَرْتُ سابِقًا لَدَيَّ طَبْعٌ ـ بِلا فائِدَةٍ ـ هُوَ قِراءَةُ أَغْلِفَةِ المَأْكولات: جيلاتينُ البَقَرِ، ليسْتينُ، زَيْتٌ نَباتِيٌّ، وَماءُ الجُبْن. كانَ جيلاتينُ البَقَرِ وَماءُ الجُبنِ يُشْعِرانَني بِتَقَزُّزٍ لا يوصَف. إِنْ تَذَكَّرْتُ ذٰلِكَ، وَأَنا آكُلُ الشّوكولاتَةَ، فَإِنّي آكُلُها بِاشْمِئْزازٍ، لٰكِنّي آكُلُها ولا أَتْرُكُها. أَظُنُّ أَنَّني شَرِهَةٌ حَقًّا.

في أَحَدِ الأَيّامِ خَرَجَ جَدّي وَعَمّي إبراهيمُ يَتَمَشَّيانِ، بَيْنَما أَخَذْتُ أَنا الشّوكولاتَةَ الغَنِيَّةَ بِالفُسْتُقِ وَجَلَسْتُ أَمامَ الدُّكّان. كانَ هُناكَ بَعضُ الأَطْفالِ. قَدَّمْتُ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُم قِطعَةً مِنَ الشّوكولاتَة. لٰكِنَّ

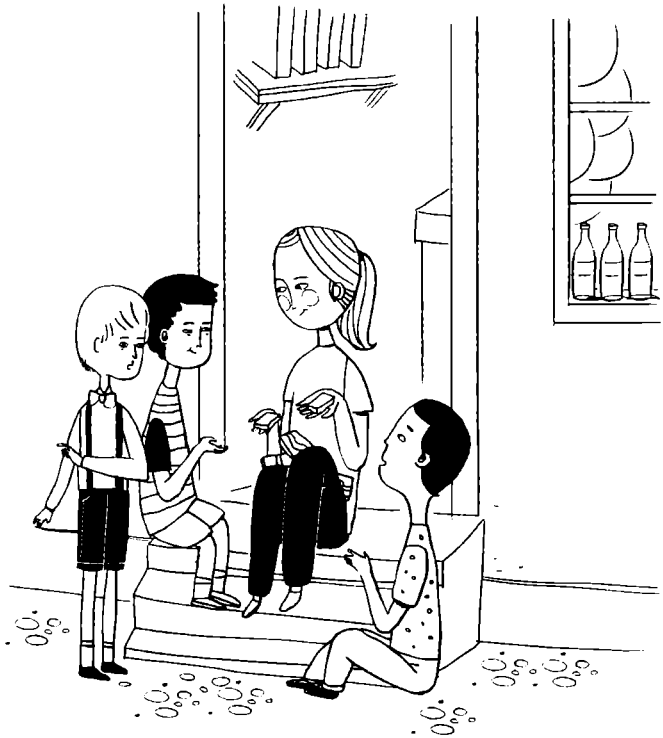

قِطْعَةً واحِدَةً مِنَ الشّــوكولاتَةِ لا تُشْــبِعُ طِفلًا عَلَى الإِطْلاقِ! كُنتُ مُدْرِكَةً تَمامًا أَنَّهُ سَــيَدْخُلُ وَيَشْتري غَيْرَها. وَبَيْنَما أَنا أُفَكِّرُ جاءَ أَحدُ الأَولادِ القادِمينَ مِنْ أَلْمانيا إِلى الدُّكّانِ مُسْرِعًا، وَعِنْدَما رَآنا ـ أَنا والأَولادَ ـ تَوَقَّفَ وَدَعانا إِلى عيدِ ميلادِهِ بِلُغَةٍ رَكيكَةٍ: «**سَأُقيمُ حَفْلًا لِعيدِ ميلادي، هَلْ يُمْكِنُكُم الحُضور؟!**»

وَثَبْنا جَميعًا... فَنَحنُ لَمْ نَحضُرْ حَفْلَ عيدِ ميلادٍ في حَياتِنا. لا تَحْدُثُ أُمورٌ كَهٰذِهِ فــي القَريَةِ كثيرًا. أَظُنُّ أَنَّها لا تَحدُثُ أَبَدًا. أَجَبْناهُ قائِلينَ:

«**سنحضررررررر!**»

بَعْدَ انْتِهاءِ العُطْلَةِ وَعَــوْدَةِ الأَطْفالِ المُقيمينَ في أَلْمانيا إِلَيْها رُحْنا نُقَلِّدُهُمْ لِفترةٍ مِنَ الزَّمَنِ. أَعْتَقِدُ أَنَّ هٰذا عَمَلٌ سَيِّئٌ.

ذَهَبْنا في اليــومِ التّالي إِلى حَفْــلِ عيدِ الميلاد. «اشْــتَرى أَبَواهُ كَعْكَةَ الكريمَةِ، كَعْكَةُ الكريمَةِ **لَذَّةٌ لا تُوصَف**...

كَعْكَةُ الكريمَــةِ الوَحيدَةُ الَّتــي نَعْرِفُها هِيَ تِلْكَ الَّتي تُصَــفُّ فيها قِطَعُ البَسْــكَويتِ وَتُصَــبُّ فَوقَها صَلْصَةُ الشّوكولاتَة. بَعضُ الأُمَّهاتِ، اللّاتي يَهْتَمِمْنَ بِالمَظهَرِ، يَجْعَلْنَ البَسْــكويتَ في طَبَقــاتٍ ويُزَيِّنَّها بِزينَةِ الكَعكِ المُلَوَّنة. تُصْدِرُ أَصْواتًا في أَثْناءِ تَناوُلِها فَيكونُ صوتُهــا أَجْمَل. أَمّا اللّاتي لا يُعِــرْنَ **المَظْهَرَ** اهْتِمامًا فَإِنَّهُنَّ يُكَسِّــرْنَ قِطَعَ البَســكَويتِ وَيَصْبُبْنَ فَوْقَها صَلْصَةَ الشّوكولاتَةِ، وَيَتْرُكْنَها في الثَّلّاجَةِ حَتّى تَتَجَمَّدَ فَيُسَمِّينَها حَلْوى «الموزاييك».

لٰكِنَّ هٰــذِهِ الكَعْكَةَ كانَتْ مُخْتَلِفَــةً تمامًا. كانَتِ

الشُّمُوعُ مُضاءَةً فَوقَها. حَدَّقَتِ العُيونُ إِلى الكَعْكَةِ. وَكانَتِ المِياهُ الغازِيَّةُ أَيْضًا إِلى جانِبِ الكَعكَةِ. إِنَّها المِياهُ الغازِيَّةُ بِطَعْمِ البُرْتُقالِ أَيْضًا... الإِمْكانِيّاتُ بِلا حُدود.

في ذٰلِكَ اليومِ أَكَلْنا وَشَرِبْنا، أَكَلْنا بِنَهَمٍ. لَقَدْ أَكَلْتُ في الصَّباحِ كُلَّ ما يُمْكِنُني أَكلُهُ في الدُّكّانِ، وَأَكَلْتُ في عيدِ الميلادِ أَيْضاً. حَقًّا، إِنَّني شَرِهَة! قَدَّموا لَنا الكَثيرَ مِنَ الشّوكولاتَةِ الأَلْمانِيَّةِ فَقَضَيْنا عَلَيْها كُلِّها.

في أَثْناءِ عَوْدَتِنا بَدَأَ الأَولادُ يَتَحادَثونَ: «لَيْتَهُم يُقيمونَ لَنا حَفْلَ عيدِ ميلادٍ كَهٰذا...» شَعَرْنا كُلُّنا بِشَيْءٍ مِنَ الحُزن.

جَمَعْتُ الأولادَ أَمامَ الدُّكّان. كَتَبْتُ تَواريخَ ميلادِهِمْ عَلَى وَرَقَة. كانَتْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ مُدْهِشَة. كُنتُ سَأُنَظِّمُ كُلَّ أَعيادِ الميلادِ مِنَ الآنَ فَصاعِدًا. أَقْرَبُ عيدِ ميلادٍ بعدَ يَومَيْن. سَنَحْتَفِلُ بِعيدِ ميلادِ هَديل. يَوْمانِ كامِلانِ يَكْفياني وَزِيادَة.

وَالآنَ أَحتاجُ إِلى مُساعدَةٍ لِإِنْجازِ هٰذا العَملِ، وَأَفْضَلُ مَنْ يَقومُ بِهٰذِهِ المُهِمَّةِ عَمَّتي. ذَهَبْتُ وَتَحَدَّثْتُ إِلَيْها:

«لَدَيْنا طِفْلَةٌ مِسكينَةٌ، وَقَدِ اقْتَرَبَ عيدُ ميلادِها، وَهِيَ تَرغَبُ في أَنْ يَكونَ لَها حَفْلٌ مِثْلُ حَفْلِ أَقْرانِها. ما رَأْيُكِ أَنْ أُحْضِرَ لَكِ المُسْتَلْزَماتِ لِتَصْنَعي لَنا كَعكَةً؟ نُهْديها إِلَيْها فَتَسْعَدُ كثيرًا، جَمَعَكِ اللهُ بِمَنْ تُحِبِّين».

وَافَقَتْ عَلى فِكْرَتي. جَمَعْتُ لَها مِنَ الدُّكّانِ الحَليبَ وَالكاكاوَ وَالبَسْكويتَ وَغَيرَها... صَنَعتْ لَنا عَمَّتي الكَعْكَة.

أَصْعَبُ ما في الأَمْرِ هُوَ المَكانُ! لا أَسْتَطيعُ دَعوةَ الأَولادِ إِلى البَيْتِ، فَأَنا لا أَسْتَطيعُ الدُّخولَ إِلى البَيْتِ في النَّهارِ، فَكَيْفَ سَأُدْخِلُهُم؟ لا تَنْشُري الفَوْضى... لا تُوَسِّخي المَكانَ... لا تَفْعَلي... لا... لا...

لا، لا يُمْكِنُنا القِيامُ بِهٰذا في البَيْت.

تَحَدَّثْتُ إلى عَمّي إبْراهيم:

«إنَّ جَدّي القَهْوجي يَقــولُ: «يَخْرُجُ جَدُّكَ البَقّالُ مَعَ العَمِّ إبراهيمَ لِيَتَمَشَّــيا دائِمًــا، لَيْتَهُما يَدْعُواني لِأَمْشــي مَعَهُما، فَتَتَنَشَّــطَ قَدَمايَ». ادْعُواهُ أَيْضًا... مِسْكين».

ابْتَسَمَ... لٰكِنَّهُ فَعَلَ ما طَلَبْتُ مِنْه.

تَرَكَ جَدّي المَقْهى بِعُهْدَةِ الصّانِعِ لَدَيْهِ وَذَهَبَ مع عَمّي إبراهيمَ وجَدّي البَقّالِ، صِحْتُ قائِلَةً: «لا تَقْلَقا،

أَنا هُنا، كُلُّ شَـيْءٍ عَلى ما يُرامُ، أَسْـتَطيعُ أَنْ أُديرَ المكانَيْنِ. تَجَوَّلوا قَدْرَ ما تَشاؤونَ، أَتَمَنّى لَكُمْ **جَوْلَةً جَميلَة**».

ذَهَبوا!!!!!...

أَقْفَلْتُ بابَ الدُّكّانِ، وَأَخَذْتُ الكَعكَةَ مِنْ عَمَّتي، وَذَهَبْتُ إِلى المَقْهى. قُلْتُ لِلصّانِعِ: «إِنَّ جَدِّي عَلى عِلْمٍ بِهٰـذا». لَمْ يَكُنْ مَوجـودًا، لٰكِنَّهُ سَـيُخْبَرُ عِندَ عَودَتِهِ. سَيُهَنِّئُني عَلى فِكْرَتي الرّائِعةِ هٰذِه.

صَفَفْتُ طاوِلاتِ المَقْهى في صَفٍّ واحِدٍ، وَكُنْتُ قَدْ أَحْضَرْتُ الكَثيرَ مِنَ «البالوناتِ» وَالأَشْـرِطَةِ مِنَ الدُّكّان. زَيَّنْتُ الجُدْرانَ. جـاءَتْ هَديلُ وَالآخَرونَ. جَحَظَتْ عَيْنا هَديل. أَوشَـكَتْ عَلى البُكاءِ مِنْ شِدَّةِ الفَرَح. إِنَّهُ حَفْلُ عيدِ ميلادٍ حَقيقِيّ. وَمجّانًا! لَنْ آخُذَ مِنْها نُقودًا لِأَنَّهـا تَجْرِبَـةٌ أُولى. إِنْ نَجَحَـتْ هٰذِهِ التَّجْرِبَةُ سَأُنَظِّمُ أَعيادَ ميلادٍ مَأْجورةً لِلجَميع. وطَبْعًا سَجَّلْتُ كُلَّ ما شَـرِبَهُ الأَولادُ في حِسـابِ آبائِهِم. الكَعكَةُ مَجّانِيَّةٌ لٰكِنْ لا بُدَّ مِنْ دَفْعِ ثَمَنِ العَصائِر.

اسْـتَمْتَعْنا بِالحَفْلِ كثيـرًا. وكُنتُ نَسـيتُ بابَ الدُّكّانِ مُغْلَقًا. أَعْتَقِدُ أَنَّني أَسْتَحِقُّ قَليلًا مِنَ الفُسْحَةِ أَنا أَيْضًا.

لَمْ يَمْضِ وَقْـتٌ طَويلٌ حَتّى ظَهَـرَ المُحارِبونَ الثَّلاثَـةُ: جَدِّي البَقّـالُ، وَجَدِّي القَهْوَجـي، وَعَمّي إِبْراهيم...

سَـأَلَ جَدِّي القَهْوَجـي: «ما هٰذا الَّـذي يَحدُثُ هُنا؟»

وَسَأَلَ جَدِّي البَقّالُ: «مَنْ يوجَدُ في الدُّكّان؟»

جَدِّي القَهْوَجي: «لَقَدْ عَمَّتِ الفَوْضى المَكانَ!!»

جَدِّي البَقّالُ: «كُلُّ هٰذِهِ الأُمورِ تَجري مِنْ تَحتِ رَأْسِكِ، أَلَيْسَ كَذٰلِك؟»

اخْتَفـى الأَولادُ فَجـأَةً وَبَقيـتُ وَحيدَةً وَسَـطَ المَقْهى. لَمْ يَقُلْ عَمّي إِبراهيمُ كَلِمَةً واحِدَة.

بَدَأْتُ بِكَلامٍ لا مَعْنَى لَه:

«كُلُّ هٰذا بِسَبَبِ الأَلْمانِيِّينَ. إِنَّهُم يَأْتُونَ بِأَصْواتِ

أَبْواقِ السَّيّاراتِ، وَالكثيرِ مِنْ شوكولاتَةِ الفُسْتُقِ... وَحَفَلاتِ أَعيادِ ميلادٍ مُزَيَّنَـةٍ... رَغِبْنا في تَقْليدِهِم. أَلَسْنا بَشَرًا؟! لِيَبْقَوْا هُناكَ إِذًا وَلا يَعودوا! أَلا توجَدُ شـوكولاتَةٌ فـي دُكّانِنـا؟ لِمـاذا أَحْضَرْتُـمْ تِلكَ الشّـوكولاتَةَ يا عَمّي إِبْراهيـمُ؟ هَيّا قُلْ لـي لِماذا أَحْضَرْتُمُوها؟».

لَمْ يَفْهَمْ أَحَـدٌ مِنْهُم شَـيْئًا مِمّا قُلتُـهُ... وَأَذَّنَ المُؤَذِّن.

أوه... تَنَفَّسْـتُ الصُّعَداء. الحَمْدُ للهِ... لَقَدْ رُفِعَ الأَذانُ. انْطَلَـقَ الجَميعُ إِلى المَسْـجِدِ. وَأَنا غادرْتُ المَقْهى بِالفَوْضى وَالأَوْساخِ لِلصّانعِ المِسكين. وَما دَخْلي أَنا... فَأَنا أَقومُ بِتَنْظيفِ الدُّكانِ كُلَّ يَومٍ...

وَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلى أَنَّ شُكْرِيَّةَ اللّامِعَةَ لا تَأْتي إِلى المَقْهى لِلتَّفْتيشِ عَنِ النَّظافَة...

خالي القُبْطان

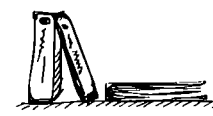

مِنَ المُمْكــنِ أَنْ أَكونَ بَــدَأْتُ حَياتِــيَ المِهَنِيَّةَ وَالحياةَ التِّجارِيَّةَ في سِــنٍّ مُبكِّرَةٍ حيثُ أَقْضي جُلَّ وَقْتِيَ فــي العَمَــلِ، إِلّا أَنَّ لَدَيَّ الكَثيرَ مِــنْ أَوْقاتِ الفَراغ. فــي بَعضِ الأَوقــاتِ لا يَخرُجُ جَــدِّي مِنَ الدُّكّانِ عَلى الإِطْلاقِ وَيَبْقى جالِسًا عَلى أَريكَتِهِ دونَ حَركَــة. كُلُّ ما يَقومُ بِــهِ هُوَ الذَّهابُ إِلى المَسْــجِدِ بِسُــرْعَةٍ وَالعَوْدَةُ بِسُــرعَة. وَيَجْلِسُ عَلــى الأَريكَةِ لِساعاتٍ طَويلَة...

لَكَمْ أَنْزَعِجُ مِنْهُ لِأَنَّني لا أَسْتَطيعُ تَناوُلَ أَيِّ شَيْءٍ بِراحَةٍ في أَثنــاءِ وجودِهِ فــي الدُّكّان، فَهٰذا سَــبَبُ وجودِهِ هُنا. عَلَيَّ أَنْ آكُلَ **لِيَعْمَلَ عَقْلي**! لٰكِنْ لا... لا يخرُجُ...

هٰذِهِ الأَوْقاتُ تُعْتَبَرُ أَوقاتَ فَــراغ. أَتَهالَكُ عَلى صُندوقِ السُّكَّر. وَأَحيانًا أُغادِرُ الدُّكّان: «بِما أَنَّكَ لَنْ

تَخرُجَ أَنتَ، سَأَخرُجُ أَنا». أَلْعَبُ مَعَ الأَولادِ أَحْيانًا. ثُمَّ لا أَلْبَثُ أَنْ أَشْعُرَ بِالضَّجَر.

في الحَقيقــةِ، إِنْ ذَهَبْتُ إِلى البَيْتِ فَلَنْ أَشْــعُرَ بِالمَلَلِ أَبَدًا لِأَنَّهُ لَنْ يَكونَ لَدَيَّ أَيُّ وَقْتِ فراغٍ، لِأَنَّ أُمّي وَعَلى الدَّوامِ:

«هَيّا قومي ساعِديني في تَحْضيرِ المائِدَة».

«هَيّا قومي ساعِديني في جَلْيِ الصُّحون».

«افْعَلي هٰذا».

«افْعَلي ذاكَ».

«خُذي هٰذا إِلى هُناك».

إِنْ ذَهَبْتُ إِلى البَيْتِ فَلَــنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ أَوامِرِها. لِهٰذا لا أَقْتَرِبُ مِــنَ البَيْتِ أَبدًا وأَذْهَــبُ إِلَى خالي القُبْطــانِ. خالي القُبْطــانُ جارُ جَدَّتــي لِأَبي. لَيسَ لِخالي القُبْطانِ سَفينَةٌ أَوْ مِقوَدٌ أَو طاقِمُ بَحّارةٍ، إِنَّما يَدعونَهُ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ كابْتِنُ فَريقِ كُرَةِ القَدَمِ في القَريَة. أَمّا بِالنِّسْــبَةِ إِلَيَّ فَلا أَهمِّيَّةَ لِكَوْنِــهِ قُبْطانًا أَوْ كابْتِنًا،

فَالَّذي يَهُمُّني هُوَ الكُتُــبُ المَوْجودَةُ في مَكْتَبَتِهِ. ثُمَّ إِنَّ الصَّحيفَةَ الَّتي يَقْرَأُها تُرسَلُ إِلَيْهِ كِتابًا كُلَّ أُسبوعٍ وَيَقومُ هُوَ بِوضْعِها في المَكْتَبة.

أَقرَأُ كُتُبَهُ في الدُّكّانِ أَوَّلًا. وَلَقَدْ ذَكَرْتُ سابِقًا أَنَّ الصُّحُفَ تَأْتي إِلى الــدُّكّانِ أَوَّلًا وَأَنَّنا نَحنُ نُوزِّعُها. جَــدِّي أَيْضًا يَقْــرَأُ الصُّحُفَ قَبْــلَ أَصْحابِهــا. وَأَنا

أَصْبَحْتُ أُشْبِهُهُ مَعَ الزَّمَن. أَقْرَأُ الكُتُبَ الَّتي تَأْتي مَعَ الصُّحُفِ قَبْلَ أَصْحابِها، ثُمَّ أَذْهَبُ وَأَقْرَأُها في بيوتِهِم. في كلِّ مَساءٍ أَذْهَبُ إِلى بَيْتِ القُبْطانِ وَأَقْرأُ عِندَهُ كِتابًا عَلى أَمَلِ أَنْ يُعْطيني الكُتُبَ. أَذْهَبُ في الصَّباحِ الباكِرِ أَيْضًا إِلى أَنْ يَسأَمَ مِنِّي وَيَقولَ: «خُذي هٰذِهِ الكُتُبَ واقْرَئيها في بَيْتِك». قُمْتُ بِعِدَّةِ خُطَط. أَحيانًا أَقرأُ بِصوتٍ عالٍ، وأَحيانًا أَسْتَلقي عَلى الأَرضِ. أَذْهَبُ في أَوقاتٍ غيرِ مُناسِبَة. يَأْتيهمُ الضُّيوفُ أَحْيانًا فَأَتَناوَلُ كِتابًا وأَجْلِسُ مَعَهُمْ في الصّالَةِ وَأَقْرَأُ. لَرُبَّما يَنْزَعِجُ مِنِّي وَيَطرُدُني مِنْ بَيْتِه، وَيَرْمي الكُتُبَ خَلْفي، لٰكِنْ لا... إِنَّه رَجلٌ صَبورٌ **في غايَةِ الصبر**.

وَلِأَنَّه جارُنا المُجاوِرُ لَنا فَإِنَّ أُمِّي تَجِدُني بِسُهولَةٍ، تُنادي مِنْ حَديقَةِ المَنزِلِ: «**أَينَ أَنْتِ؟ هَيّا عودي إِلى البَيتِ بِسُرْعَةٍ**». فَأَكونُ في البَيْتِ خِلال أَقَلَّ مِنْ دَقيقَة.

يَصْحَبُني جَدِّي القَهْوجي مَعَهُ إِلى السّوقِ أَحيانًا.

في الحَقيقَةِ، يَذْهَبُ جَدِّي إِلى السّوقِ لِلتَّجَوُّلِ، وَعِنْدَما أُلاحِظُ أَنَّهُ سَيَذْهَبُ أَتَوسّلُ إِلَيْهِ: «**خُذْني مَعَكَ أَرْجوووك**».

يَشْتَرِطُ عَليَّ: «سأَصْحَبُكِ لٰكِنْ بِشَرْطِ أَلّا تَطْلُبي شَيْئًا».

الإِحسانُ المَشروطُ، الَّذي يَتَمَسَّكُ بِهِ البالِغونَ، يُصيبُني بِالجُنون.

حينَ أَعِدُهُ يَأْخُذُني مَعَهُ لٰكِنَّهُ يَجْعَلُني أَندَمُ عَلى ذَهابي بِصُحْبَتِهِ. يَقِفُ أَمام دُكّانِ الأَلْعابِ، يَحُلُّ عُقْدَةَ حِذائِهِ وَيربِطُها مِنْ جَديدٍ لِيُجَرِّبَني لا أَكْثَر. وَمِنْ ثَمَّ يَقِفُ أَمامَ بائعِ الحَلْوَياتِ يَحلُّ عِقدةَ حِذائِهِ وَيربِطُها مِنْ جَديدٍ. يَقومُ بِالشَّيءِ ذاتِهِ أَمامَ مَحَلّاتِ المَلابِسِ أَيْضًا، وَأَمامَ بائِعِ حَلْوى غَزْلِ البَناتِ. **لا أَطلُبُ**... لَقَدْ وَعَدْتُهُ أَلّا أَطلُبَ. حينَما يَراني أَفي بِوَعْدي يَلينُ. يَشْتَري لي الأَلْعابَ، وَغَزْلَ البَناتِ قَبْلَ عَودتِنا. **هَا هُوَ النَّصْرُ لي!**

في ذٰلِكَ اليومِ لَحِقْتُ بِهِ مُجدَّدًا لِأَذْهَبَ مَعَهُ إِلى

السّوقِ. اصْطَحَبَني إلى مَكانٍ ما... مَكانٍ فيهِ الكَثيرُ مِنَ المُدَراءِ: هٰذا مُديرُ هٰذِهِ المُؤَسَّسةِ، وَذاكَ مُديرُ تِلكَ المُؤَسَّسة...

أَحَدُهُمْ كانَ مُديرَ مُديريَّةِ التَّربيةِ وَالتَّعْليم، وَكانَ في يَدِهِ كيسٌ مليءٌ بِالكُتُب. سَأَلَني الرَّجُلُ ذاكَ السُّؤالَ الَّذي لا يَتَوانى أَحَدٌ مِنَ البالِغينَ عَنْ سُؤَالِه: «**ماذا ستُصْبِحينَ عِنْدَما تكبُرينَ؟**» وَطَبْعًا لا يُمْكِنُني أَنْ أُفَوِّتَ هٰذِهِ الفُرْصَة.

أَجَبْتُهُ: «سَأُصْبِحُ مُديرَةَ مُديريَّةِ التَّربيَةِ وَالتَّعليم». تَعَجَّبَ الرَّجُلُ... أَكْمَلْتُ كَلامي: «لٰكِنّي لا أَعْرِفُ كيفَ أُصبِحُ مُديرةً، فَأَنا لا أَمْلِكُ كِتابًا واحِدًا حَتّى! إِنَّهُمْ لا يَشْتَرونَها لي، في كُلِّ يَوْمٍ أَذْهَبُ إلى الخالِ القُبْطانِ وَأَقْرَأُ الكُتُبَ عِنْدَهُ. لَقَدْ قَرَأْتُها كُلَّها». ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُ جُزءًا مِنْ سِلسِلَةِ عائِشَةَ نور:

«كانَتْ عائِشَةُ نورٍ وَسامي يُحِبّانِ اللَّعِبَ في العِلِّيَّةِ في الأَيّامِ الماطِرَةِ». أَسْكَتَني المُديرُ وَوَبَّخَ جَدّي قائِلًا: «لا بُدَّ أَنْ يَقْرَأَ الأَولادُ! الكِتابُ عُنْصُرٌ

مُهِـمٌّ جِـدًّا. أَلا تَشْـتَرونَ الكُتُبَ لِلأَطْفـالِ؟». ثُمَّ أَعْطاني خَمْسَـةً مِنَ الكُتُبِ الَّتي فـي الكيسِ، وَدَلَّ جَدِّي عَلـى المَكْتَبَة. **أَخَذْتُ نَفسًـا عَميقًا**. لَوْ قُلتُ لِجَدِّي اشْـتَرِ لي الكُتُـبَ لاشْـتَرى، لٰكِنَّني أُحِبُّ **الطَّلَبَ بِهٰذِهِ الطَّريقَة**.

في طَريقِ العَوْدَةِ اشْـتَرى لي جَدِّي خَمْسَةَ كُتُبٍ أُخْرى. صارَ لَدَيَّ عَشَرَةُ كُتبٍ. **لَقدِ ارْتَحْتُ كَثيرًا**. لَنْ أَشْعُرَ بِالمَلَلِ بَعدَ الآن. كَما أَنَّني تَخَلَّصْتُ مِنْ عائِشَةَ نورٍ وَالقُبْطان.

انْتَهَيْتُ مِنْ قِراءَةِ الكُتبِ في أُسبوع. لَنْ أَتَحَمَّلَ القِيامَ بِالحَرَكاتِ السّابِقَةِ ذاتِها. الأَفْضَلُ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنَ الكُتبِ المَوجودَةِ بَيْنَ يَدَيَّ وَأَشْتَري كُتُبًا جَديدَة. أَنا لَستُ **المُتَضَرِّرَةَ الوَحيدَةَ**، فَأَطْفالُ القَريَةِ الآخَرونَ لا يَمْلِكونَ الكُتُبَ أَيْضًا.

لَمْ أُعْطِ القُبْطانَ كُتُبَهُ الَّتي جاءَتْهُ في الأُسْبوعَيْنِ الأَخيرَيْن. إِذا جاءَ وَسَأَلَ، وَلَمْ تَكُنْ مُباعَةً، سَأُعطيهِ إِيّاها...

مَدَدْتُ غِطاءً عَلى الأَرْضِ أَمامَ الدُّكّانِ وَوَضَعْتُ الكُتبَ عَلَيْه. قَصَصْتُ قِطْعَةَ كَرْتـونٍ وَكَتَبْتُ عَلَيْها: «الكِتابُ غِـذاءُ الـرُّوح». إِلّا أَنَّني خِفْـتُ مِنْ هٰذا الشِّـعار! كانَ هُنـاكَ الكَثيرُ مِـنَ الأَطْفـالِ غَريبي الأَطْوار! قَدْ يَفْهَمُهـا بَعْضُهُم خَطَـأً، وَلا يَأْتي إِلى

الدُّكّانِ إلّا لِشِراءِ الكُتبِ الَّتي يَعْتَبِرُها الغِذاءَ الوَحيدَ. قُمْتُ بِتَغيير الشِّعار: «**الكِتابُ غِذاءُ الرّوحِ، لٰكِنِ اشْتَرِ الشّوكولاتَةَ أَيْضًا**».

فَلْيَشْتروا الكِتابَ وَالشّــوكولاتَةَ مَعًا. لا يُمْكِنُني أَنْ أُحْرَمَ مِنْ بَيْعِ أَحَدِهِما لِصالِحِ الآخَر.

بِعْتُ الكِتابَ الأَوَّلَ بِضِعْفِ سِــعْرِه... يَجِبُ أَنْ يَكونَ سِعْرُ الكِتابِ المُسْتَعْمَلِ أَرْخَصَ عادَةً، غَيْرَ أَنَّ هٰذا المَكانَ لَيْــسَ مَكانًا عادِيًّا. لِيَشْــتَروا مِنْ مكانٍ عادِيٍّ إِذًا. جاءَ جَدِّي... جَــدِّي القَهْوَجي، نَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً حادَّةً وَكَأَنَّه يَقولُ لي: «أَلِهٰذا أَخْزَيْتِني أَمامَ مُديرِ مُديريَّةِ التَّربِيَةِ وَالتَّعْليم».

قالَ لي: «مِنَ الصَّعبِ أَنْ تُصْبِحي مُديرَةً لِمُديريَّةِ التَّربِيَةِ وَالتَّعْليم». بَيْنَما كُنتُ سَــأَردُّ عَلَيْهِ جاءَ جَدِّي البَقّــالُ وَخالي القُبْطــان. رَأَى جَــدِّي البَقّالُ كِتابَ عائِشــةَ نورٍ وَسَــأَلَني في غَضَبٍ: «هَلْ هٰذِهِ الكُتُبُ كُتُبُ القُبْطــان؟». وَكَأَنَّ أَعمالَ القُبْطانِ تَوَقَّفَتْ عَلى هٰذَيْنِ الكِتابَيْن! يــا لَلْعار! أَوْشَــكْتُ عَلى تَوضيحِ

الأَمْرِ لَهُمْ لٰكِنَّ جَـدِّي القَهْوجي قاطَعَني قائِلًا: «لَقَدْ عَلَّمْتَها التِّجارَةَ جَيِّدًا، انْظُرْ لَقَدْ جَعَلَتْني أَشْتَري لَها الكُتُبَ، وَها هِيَ تَبيعُها عِنْدَكَ». سَـمِعَ جَدِّي البَقّالُ هٰذا الكَلامَ وَفَقَدَ وَعْيَهُ مِنْ شِدَّةِ الغَضَبِ، حَتّى إِنَّني خَلَّصْتُ الكُتُبَ مِنْـهُ بِصُعوبَة. لَمْ أَتَمَكَّـنْ مِنْ بَيْعِ الكُتُبِ، لٰكِنْ رُبَّما أَفْتَحُ مَكْتَبَةً في المُسْتَقْبَل. أَرْباحٌ طائِلَة...

البَحْثُ البَديل

أَخْفَقْتُ في كُلِّ ما قُمْتُ بِهِ! كُلُّ مُحاوَلاتي التِّجارِيَّةِ باءَتْ بِالفَشَل. عِلاوَةً عَلى ذٰلِكَ أَقِفُ مَوْقِفَ المَعْتوهِ في كُلِّ مَرَّة: صودا الكَرَزِ الحامِضِ لَمْ تَشُدَّ اهْتِمامَ أَحَد. الكِتاباتُ عَلى كريمَةِ الشّوكولاتَةِ لَمْ تُجْدِ نَفْعًا، بَلْ أَغْضَبَتِ النّاسَ أَيْضًا. المُكَسَّراتُ في القِمْعِ الوَرَقِيِّ الجاهِزِ أَخْفَقَتْ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ. بِطاقاتُ التَّهْنِئَةِ **لَمْ يَنْظُروا إِلَيْها حَتّى**. مَشْروعُ الشُّموعِ الَّتي أَشْعَلْتُها لِتَقومَ مَقامَ اللّافِتاتِ المُضيئَةِ أُطْفِئَتْ بِغَضَبِ جَدِّي.

انْظُرْ إِلى ما قُمْتَ بِهِ يا عَمِّي حَقِّي. أَرَدْتُ تَقْديمَ خِدمَةٍ أَفْضَلَ لَكَ وَأَنْتَ شَكَوْتَني إِلى جَدِّي! هَلْ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَكونَ شَعْبٌ بِأَكْمَلِهِ جاهِلًا بِالإِعْلاناتِ وَالدِّعايات؟ أَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ الجميعُ مُنْغَلِقينَ إِلى هٰذِهِ الدَّرَجَة؟

هُناكَ رَجُلانِ لا يَفْهَمانِ مبادِئَ التِّجارَةِ: الأَوَّلُ هُوَ

جَدِّي البَقّالُ، والثّاني هُو جَدِّي القَهْوجـــي. مَعْرِفَتُهُما بِالتِّجارَةِ صِفْرٌ، وَرَغْمَ ذٰلِكَ يَشْغَلانِ أَهَمَّ مَرْكَزَيْنِ تِجارِيَّيْنِ في القَريَة.

كيفَ يَكونُ هٰذا؟

لَقَدْ قَرَّرْتُ وَعَزَمْتُ **عَلى أَنْ أَقومَ بِعَمَلِيَ الخـاصّ**: أَذْهَبُ إِلى المَقْهى، أَغْسِلُ الكُؤوسَ، أَفْتَحُ قواريرَ المِياهِ الغازِيَّةِ وَأُقَدِّمُها لِلزَّبائِن ثُمَّ أَجْمَعُ الفارِغَةَ مِنْها. أُرَتِّبُ الكَراسِـيَّ والطّاوِلات. ما الَّذي أَكْسِبُهُ مُقابِلَ هٰذا كلِّه؟

شايُ الفاكِهة!

مكتبة
t.me/t_pdf

أَذْهَبُ إِلى الدُّكّانِ: نَظِّفي المَـكانَ طَوالَ اليَوْمِ، أَفْرِغي العُلَبَ وَنَسِّقيها، لَبِّي طَلباتِ الزَّبائِن، تَفَقَّدي دَفْتَرَ الدُّيونِ، أَجْبِري نَفْسَكِ عَلى أَلّا تُغادِرَ الِابْتِسامةُ وَجْهَكِ... ما الَّذي أَكْسِبُهُ مُقابِلَ هٰذا كُلِّه؟!

الشّوكولاتَةُ!

أَهٰذِهِ هِيَ العَدالَةُ يا دُنْيا؟!

أَدْرَكْتُ الآنَ أَنْ لا مَعْنى لِبَقائي أَكْثَرَ في المَراكِزِ التِّجارِيَّةِ الَّتي لا تُعْطي أَيَّةَ أَهَمِّيَّةٍ لِأَفكارِيَ العَبْقريَّة.

الأَفضلُ أَنْ أُؤَسِّسَ عَمَلِيَ الخاصَّ. جَلَسْتُ وَبَدَأْتُ التَّفْكيرَ. هُناكَ المِهَنُ العامَّة. مِنْها ما يُمْكِنُني القِيامُ بِهِ وَما لا يُمْكِنُني القِيامُ بِه. لِنَعُدَّها:

المِهَنُ كَالتَّعْليمِ، وَالخِدمَةِ الأَمْنِيَّةِ، وَالطِّبِّ؛ جَيِّدَةٌ وَفيها رِبْحٌ وَفير. لٰكِنِّي لا أَسْتَطيعُ القِيامَ بِها لِأَنَّها تَحتاجُ إِلى مُدَّةِ دِراسَةٍ جِدِّيَّةٍ، وَأَنا لَيسَ لَدَيَّ ما يَكْفي مِنَ الوَقْتِ. إِضافَةً إِلى ذٰلِكَ أَنا أَبحَثُ عَنْ عَملٍ مَوسِمِيٍّ، سَأَعْمَلُ في الصَّيفِ وَأَذْهَبُ إِلى المَدْرسَةِ في الشِّتاءِ. وَهٰذِهِ المِهنَةُ غَيرُ مَنْطِقِيَّة. كما أَنَّهُ لا يُمْكِنُني اسْتِخْدامُ ذَكائي التِّجاري في هٰذِهِ المِهَن. هَلْ سَأَبيعُ الأَوْراقَ لِلطُّلّابِ؟ أَمْ سَأَبيعُ القُيودَ لِلْمُجرِمينَ؟ وَإِذا أَصْبَحْتُ طبيبَةً فَعَلَيَّ أَنْ أَكْتُبَ ما يَلْزَمُ مِنَ الدَّواءِ فَحَسْبُ، وَلا يُمْكِنُني طَلَبُ عُلْبَتَيْنِ إِضافِيَّتَيْنِ مِنَ الدَّواءِ لِمَصالِحَ تِجارِيَّة. أَصْلًا،

أَنا جَرَّبْتُ الطِّبابَةَ، لا.. لا يُمْكِنُ. وَلِهٰذِهِ الأَسْبابِ سَأَتَجاوَزُ هٰذِهِ المِهَن.

يُمْكِنُني أَنْ أَفْتَتِحَ مَحلّاتٍ أُخْرى تُلَبّي حاجاتِ أَهلِ القَريَة: زُجاجٌ، تُحَفٌ، لَوازِمُ البَيْت...

كانَ جَدّي قَدْ جَعَلَ لِكلِّ هٰذِهِ الأَشْياءِ رَفًّا، فَلا تَعرِفُهُ أَبَقّالٌ هُوَ، أَمْ أَنَّه يَبيعُ الزُّجاجَ وَالتُّحَفَ؟

في الحَقيقَةِ أَنَّ وَضْعَ القَليلِ مِنْ كُلٍّ مِنْها تَصَرُّفٌ ذَكِيٌّ. **مِنَ الصَّعْبِ أَنْ أَكونَ مُنافِسَةً.**

لَقَدِ اعْتادَ الزَّبونُ عَلى التَّرَدُّدِ إِلى دُكّانِهِ وَسَأَخْسَرُ لا مَحالَة. هُناكَ حَلّاقٌ أَيْضًا في القَريَةِ، وَمِنَ السُّخْفِ فَتْحُ مَحلَّيْنِ بِالمِهْنَةِ ذاتِها في المَكانِ ذاتِه...

في هٰذِهِ الأَثناءِ أَنارَ مِصباحٌ في عَقلي. هُناكَ حَلّاقٌ وَلٰكِنْ **لَيسَ هُناكَ مُصفِّف شَعَر**. لَيْسَ هُناكَ مَنْ يَقُصُّ وَيَقُصُّ وَيُصَفِّفُ شَعرَ النِّساء، فَالنِّساءُ هُنا يَذْهَبْنَ إِلى مَركَزِ المِنْطَقَةِ لِقَصِّ شُعورِهِنَّ. لا داعِيَ إِلى ذَهابِهِنَّ، سَأُريحُهُنَّ مِنْ هٰذا **العَناء**.

بِمُجَرَّدِ التَّفكيرِ بِهٰذا الأَمْرِ ذَهَبْتُ إِلى جَدَّتي

لِأَبي، إِنَّها خَيّاطةٌ وَلَدَيْهـا الكَثيرُ مِنَ المِقَصّات. لَنْ تَشْـعُرَ بالنَّقْـصِ إِنْ ضـاعَ بَعضُهـا. أَخَـذْتُ أَحَدَ المِقَصّـاتِ وَخَبَّأْتُهُ في الحَديقَـةِ. وَالآنَ أَحْتاجُ إِلى شَعرٍ لِأَقضي عَلى جَهْلي في الحِلاقَة.

«جَدَّتيييييييي، جَدَّتيييييييييي»

«بُنَيَّتيييييي»

«كانتْ لَديَّ دُمْيَةٌ ذاتُ شَعرٍ طَويلٍ، أَيْنَ هِيَ؟»

«آآآ... وَهَلْ سَـتَلْعَبينَ بِالدُّمْيَةِ؟ لَقَـدْ أَصْبَحْتِ كَبيرةً!

«أُريـدُ أَنْ أَلْعَبَ «بَيْـتَ بُيوتٍ»، لَقَـدْ ضَجِرْتُ كَثيرًا. هَيّا ابْحَثي عَنْها وَدَعيني أَلْعَبُ قَليلًا».

لَنْ تُعْطيني إِيّاهـا إِنْ أَخبَرْتُها بِما أُريدُ القِيامَ بِه. وَبينَمـا كُنتُ أَنتَظِـرُ جَدَّتي أَخْرَجْـتُ دَفْتري الَّذي عَنْوَنْتُهُ «**المَواضيعُ الحسّاسةُ الَّتي يَجِبُ عَلى الصِّغارِ الإِنْتِباهُ إِلَيْها في أَثناءِ تَواصُلِهِـمْ مَعَ الكِبار**». وعَلى عَجَلٍ كَتَبْتُ المادَّةَ التّاسِعَة:

أَعْطَتْني الدُّميـةَ دونَ أَنْ تُصعِّـبَ الأَمرَ وَكانَتْ

المادة التاسعة:

البالِغونَ يَشْتَرونَ لَكَ الدُّميَةَ وَلٰكِنَّهُم لا يَسمَحونَ لَكَ بِقَصِّ شَعرِها أَو تَلْوينِ وَجْهِها.

يَشْتَرونَ لَكَ السَّيّارَةَ، فَإِنْ قُلْتَ لَهُمْ أُريدُ فَكَّ عَجلاتِها وَمَلْءَ داخِلِها بِالطِّينِ، لا يَسْمَحونَ بِذٰلِكَ، بَلْ وَيَأْخُذونَها مِنْكَ.

بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِم... السَّيّارةُ سَيّارَةٌ... والدُّمْيَةُ دُمْيَةٌ. يُمْكِنُكَ تَمشيطُ شَعرِ الدُّميَةِ وَلٰكِنْ لا يُمْكِنُكَ قَصُّه.

لَقَدِ اعْتادوا بِشَكْلٍ لا يُوصَفُ عَلى القَوانينِ الَّتي لَيسَ لَدَيْهِمْ أَيُّ عِلْمٍ بِواضِعِها.

وَضَعتُها في الخِزانَة. أَخَذْتُها وَخَرَجْتُ إِلى حَديقَةِ البَيتِ. سَرَّحْتُ شَعرَها قَليلًا ثُمَّ بَدَأْتُ بِالقَصِّ. قَصَّرْتُ شَعرَها تمامًا فَبَدا كَشَعرِ الأَولادِ الذُّكور. كانَ مائِلًا قَليلًا وَلٰكِنْ لا بَأْسَ فَهِيَ تَجرِبَتي الأُولى وَيُمْكِنُ أَنْ تَحدُثَ أُمورٌ كَهٰذِه. فَجأَةً جاءَتْ جَدَّتي وقالَتْ: «ماذا فَعلتِ أَنتِ؟»

«أَلَيْستِ الدُّميَةُ لي؟»

«نَعمْ لَكِ... لٰكِــنْ... هَلْ أُصِبْــتِ بِالجُنونِ يا ابْنَتي؟»

ثُمَّ بَدَأَتْ تَرُشُّني رَشًّا بِالأَسئِلة:

«لِمٰاذا أَنتِ هٰكذا؟ أَهٰكــذا تَلعَبينَ بِالدُّميَة؟ مٰاذا سَنَفعَلُ بِالشَّــعْرِ الآنَ؟ انْظُري إِلى هٰذِهِ المَهْزَلَةِ. أَينَ أُمُّكِ؟»

نَعَمْ، جَدَّتي هٰكذا، فَعِنْدَما تَبْدَأُ بِطَرْحِ الأَسْئِلَةِ لا تَتَوقَّفُ أَبَدًا. وَحَتّى لَوْ أَرَدْتَ الإِجابَةَ لَنْ تَلحَقَ بِها. مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ أَبْتَعِــدَ عَنِ المَــكان. تَرَكْتُ الدُّمَيةَ هُناكَ، وَأَخَذْتُ المِقَصَّ وَخَرجْتُ مِنَ البَيتِ مُسْرِعةً. وَكانَتْ لا تَزالُ تَرميني بِأَسْئِلَتِها:

«مٰاذا سَــتَفْعَلينَ بِالمِقَصِّ؟ أَلَيْــسَ هٰذا المِقَصُّ مِقَصِّي؟». لَنْ تَسْــتَطيعَ الإِمْســاكَ بي... اسْتَطَعْتُ الفِرار.

ذَهَبْتُ إِلى بَيْتِ صَديقَتي مايــا. كانَتْ مايا فَتاةً شُجاعةً تُحِبُّ المُغامراتِ، وَكأَنَّها عَباءَةٌ خيطَتْ لي، أَو صَديقةٌ يُمْكِنُها الاِنْسِجامُ مَعي بِسُرْعَة.

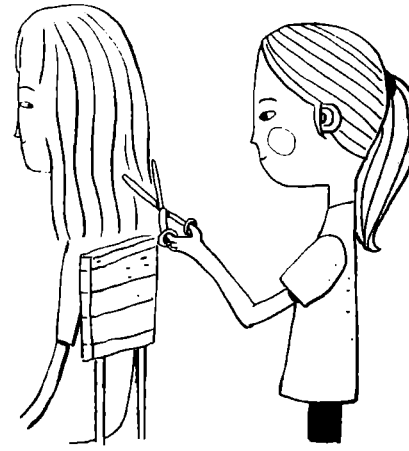

«مايا... لَـدَيَّ فِكرةٌ رائِعةٌ، لٰكِنّي أَحْتاجُ إِلى مُساعَدَتِكِ».

نَظَرَتْ بِحَماسَةٍ...

«هَلْ أَسْـتَطيعُ قَصَّ شَـعرِكِ؟ سَـوْفَ أَفْتَحُ مَحلَّ حِلاقَةٍ نِسائِيَّةٍ وَسَتَعْمَلينَ لَديَّ. وَلٰكِنْ عَليَّ أَنْ أَقُصَّ شَعرَكِ أَوَّلًا. عَلَيْنا أَنْ نَبْدو جَميلَتَيْنِ أَوَّلًا».

«إِنَّها قاعِدَةٌ مُهِمَّـةٌ جِدًّا في التِّجـارَة. يَجِبُ أَنْ يَنْعَكِسَ العَمَـلُ الَّذي تَقومُ بِـهِ عَلَيْـكَ. انْظُرْ إِلى الجَزّارينَ، مثلًا، كُلُّهُم بَدينـونَ وَضِخامٌ. هَلْ هُناكَ جَزّارٌ نَحيفٌ؟ لا طَبْعًا. انْظُرْ إِلـى الطَّبّاخينَ، كُلُّهُم بَدينونَ، وَهَلْ هُناكَ طبّاخٌ نَحيفٌ؟ لا طَبْعًا. وَإِذا كُنّا سَنَفْتَحُ مَحَلَّ تَصْفيفِ شَـعرٍ فَيَنْبَغي أَنْ يَكونَ شَعرُنا جَميلًا أَوَّلًا. هيّا اجْلِسي أَمامي».

اقْتَنَعَتْ لِأَنَّ كلَّ ما قُلتُهُ كانَ مَنطِقِيًّا. بَلَّلْتُ شَعرَها بِالماءِ، وَكُنتُ قَدْ نَسيتُ بَلَّ شَعرِ الدُّميَةِ، وَلرُبَّما لِهٰذا السَّببِ لَمْ أَنْجَحْ في قَصِّ شَـعرِها. أَمّا الآنَ فَالشَّعرُ

مَوجودٌ وَالمِقَصُ مَوجودٌ وَالمـاءُ مَوجودٌ وَالحَلّاقَةُ مَوجودةٌ... وَلِمَ لا أَنْجَحُ؟!

بَلَّلْتُ شَعرَها وَقسَّـمْتُهُ إلى ثَلاثَةِ أَقسامٍ. سَأَقُصُّ شَـعرَها طَبَقاتٍ. فَرَزْتُ الشَّـعْرَ المَوجودَ في أَعلى الرَّأسِ أَوَّلًا، ثُمَّ الشَّعْرَ المَوجودَ تَحْتَهُ، وَأَخيرًا الشَّعرَ المَوجودَ في الأَسفلِ. ثُمَّ قَصَصْتُه.

إِنْ كُنْتُمْ تُريدونَ الحَقيقَةَ فَـإِنَّ المَنْظَرَ كانَ يَدْعو إلى الاشْـمِئْزاز. لٰكِنْ هُناكَ قاعِدةٌ ذَهَبِيَّةٌ في التِّجارةِ هِيَ: «لا تَذُمَّ خِدمَتَكَ وَلا بِضاعَتَكَ أَمامَ الزَّبون».

قُلْتُ لَها:

«لَقَدْ أَصْبَحْتِ **رائِعـةَ** الجَمالِ يا مايـا، إِنَّ هٰذا الشَّعرَ يَليقُ بِكِ».

لٰكِنَّها لَمْ تُصَدِّقْنـي، وَانْفَجَـرَتْ بِالبُكاءِ عِندَما نَظَـرَتْ في المِـرْآة. كانَـتْ تَبْكي وَتَقـولُ: «**كيفَ سَأُوضِحُ الأَمرَ لِأُمِّي الآنَ؟**»

أوف... يا إِلٰهي! ما الَّذي نُعانيهِ مِنَ الأُمَّهاتِ؟

لَقَدْ أَصْبَحَ شَعرُها بَشِعًا، وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ لا تُفَكِّرُ

كَيفَ سَتَخْرُجُ غَدًا أَمامَ صَديقاتِها، كَانتْ تُفَكِّرُ فَقَطْ في الَّذي سَتَقولُهُ لِأُمِّها...

ابْتَعَــدْتُ عَنْ مايا. سَــتَبْكي قليلًا... **سَــتَبْكي وَتَبْكي ثُمَّ تَسْكُتُ**. يا إِلَهي! لَقَدْ أَصْبَحْتُ أُشْبِهُ أُمِّي! إِنَّها تَقولُ الكَلامَ ذاتَــه عِندَما أَبْكــي! إِذا أَرادَ أَبي الِاقْتِرابَ مِنِّي وَتَهْدِئَتي تَمْنَعُهُ: «لا تُدلِّلْها، سَــتَبْكي وَتَبْكي ثُمَّ تَسْكُتُ».

تَرَكْتُ مايا أَيْضًا تَبْكي لِأَنَّها سَتَسْكُتُ بِلا شَكّ. ومَا دَخْلي أَنا؟ هُناكَ الكَثيرُ مِنَ الأَعمالِ تَنْتَظِرُني...

رَكِبْــتُ دَرّاجَتي الهوائِيَّــةَ وَذَهَبْتُ إِلَــى البَعيدِ البَعيد. كُلَّما ابْتَعَدْتُ كُلَّما كانَ أَفضَلَ. **سِرْتُ وَسِرْتُ وَسِرْتُ**، حَتّى تَوَقَّفْتُ عِنْدَ حُقولِ الذُّرَةِ الَّتي تَمْلِكُها جَدَّتي. كانَتْ هُناكَ مِضَخَّةٌ، سَحَبْتُ القَليلَ مِنَ الماءِ وَشَــرِبْتُ. كانَ مُقابِلي تَمامًا شَــجَرَةُ كُمَّثْرى كَبيرَة. الحَقْلُ لَيسَ حَقلَنا وَإِنَّما حَقْلُ العَمِّ وَليدٍ. لَنْ يَغْضَبَ مِنِّي العَمُّ وليدٌ إِنْ قَطَفْتُ حَبَّةَ كُمَّثْرى. هُوَ لَمْ يَغْضَبْ عِنْدَما قَصَصْتُ صَحيفَتَهُ، فَهَلْ سَــيَغْضَبُ إِذا قَطَفْتُ الكُمَّثْرى؟ لا... طَبْعًا.

أَكَلْتُ حَبَّةَ الكُمَّثْرى فَكانَ مَذاقُها شَهِيًّا... أَكَلْتُ واحِدَةً أُخْرى. ثُمَّ جَلَسْتُ تَحْتَ الشَّجَرةِ وَبَدَأْتُ بِالتَّفْكير. كُنْتُ قَدْ قَرَأْتُ، بَيْنَما كُنْتُ أُقَلِّبُ كُتُبَ خالي، أَنَّ **نيوتُنَ** اكْتَشَفَ جاذِبِيَّةَ الأَرْضِ بَيْنَما كانَ جالِسًا تَحْتَ شَجَرَةِ التُّفاحِ وَسَقَطَتْ تُفاحَةٌ عَلى رَأْسِه. أَمِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَسْقُطَ شَيْءٌ عَلى رَأْسي، وَأَنا جالِسَةٌ تَحْتَ شَجَرةِ الكُمَّثْرى هٰذِهِ، وَأَكْتَشِفُ شَيْئًا جَديدًا وَأَقُولُ **وَجَدْتُها**؟ لَقَدِ اكْتَشَفْتُ اكْتِشافَ حَياتي. الآنَ أَصْبَحَتْ أُموري كامِلةً. يُمْكِنُ أَنْ أَضَعَ أَساسَ مِهْنَتي الجَديدَة.

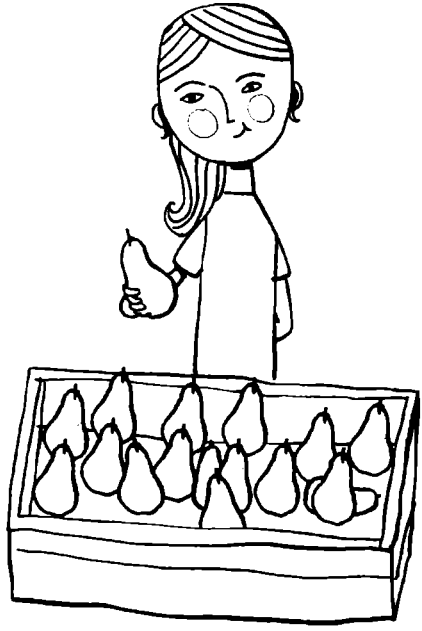

تَسَلَّقْتُ الشَّجَرَةَ وَبَدَأْتُ بِجَمْعِ حَبّاتِ **الكُمَّثْرى**. جَمَعْتُ الكَثيرَ مِنْها، فَقدِ ابْتَسَمَ الحَظُّ في وَجْهي. وَكُنْتُ رَأَيْتُ كيسًا كَبيرًا عِنْدَ المِضَخَّةِ، فَأَخَذْتُ الكيسَ وَمَلَأْتُهُ بِالكُمَّثْرى. رُحْتُ أَجُرُّ الكيسَ جَرًّا، وَكُنتُ قَدْ تَرَكْتُ دَرّاجَتي عِنْدَ حَقْلِ الذُّرَة. لا يُمْكِنُني أَنْ أَحْمِلَ الكيسَ وَالدَّرّاجَةَ مَعًا. كانَ اليومُ يومَ الجُمُعَة. وَفي يَومِ الجُمُعَةِ يَعُمُّ النَّشاطُ القَريَة. وَأَكْثَرُ مَكانٍ حَرَكَةً وَنَشاطًا هُوَ أَمامَ المَسْجِد. لا يُمْكِنُني تَفْويتُ هٰذِهِ الفُرْصَة. حَمَلْتُ الكيسَ حَتّى البَيتِ. وَلَقَدْ تَعِبَتْ ذِراعايَ مِنْ ثِقَلِه لٰكِنَّني نَجَحْتُ. أَخَذْتُ سَلَّةً كَبيرةً مِنْ حَديقَةِ المَنْزِلِ وَوَضَعْتُ الكُمَّثْرى فيها، وَأَخَذْتُ بَعْضَ الأَكْياسِ مِنَ الدُّكّانِ أَيْضًا.

لَوْ أَنَّ جَدِّي عَلِمَ أَنَّني أَخَذْتُ الأَكْياسَ لانْتَفَضَ غَضَبًا. وَكُنْتُ ذَكَرْتُ سابِقًا أَهَمِّيَّةَ الأَكياسِ لِجَدِّي.

ذَهَبْتُ بِالسَّلَّةِ وَالأَكياسِ إِلى بابِ المَسْجِدِ. وَكُنتُ أَخَذْتُ كُرسِيًّا مَعي.

يا سَلاااام! إِنَّني جاهِزَةٌ لِأَبيع.

«لَدَيْنا كُمَّثْـــرررررررررى، مِثْلُ العَسَـــلِ، مِثْلُ السُّكَّرِ، كُمَّثْرررررررى».

كانَ الأَخُ جَـــوادٌ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ مِنَ المَسْـــجِدِ، تَناوَلَ وَاحِدَةً وَسَأَلَ: «هَلِ الكُمَّثْرى لَذيذَةٌ؟»

«لَذيذَةٌ طَبْعًـــا، أَلا تَرانـــي أَصْـــرُخُ لِأَبيعَها مُنذُ ساعَةٍ».

أَخَذَ الحَبَّةَ وَقَضَمَها لِيَتَذَوَّقَها. لا يُمْكِنُ دونَ أَنْ يَتَذَوَّقَها.

«أَلَمْ تُعْجِبْكَ؟»

«لا... أَنا لا أُحِبُّ الكُمَّثْرى».

صَرَخْتُ:

«لِماذا قَضَمْتَها إِذًا إِنْ كُنتَ لا تُحِبُّها؟؟».

فيما بَعْدُ خَـــرَجَ العَمُّ نَجاتي، وَالخـــالُ قَدْري، وَالأَخُ أَحْمَدُ، وَالأَخُ مُحَمَّدٌ، وَصِهْري رَجَبُ، وَالخالُ حَسَـــنٌ... خَرَجَ الجَميعُ مِنَ المَسْجِدِ عَلى التَّوالي. تَذَوَّقوها وَلَمْ يَشْتَرِ أَيُّ شَخصٍ مِنْهُم.

كانَتْ كَمِّيَّةُ الكُمَّثْرى تَقِــلُّ تِباعًا. وَأَخيرًا خَرَجَ جَدّايَ. خَرَجَ الثُّنائِيُّ الخَطيــرُ جَدِّي البَقّالُ وَجَدِّي القَهْوَجي. تَقَدَّما نَحْوي:

جَدِّي البَقّالُ:

«خيرًا إِنْ شاءَ اللهُ».

«أَبيعُ الكُمَّثْرى، هَلْ أَزِنُ لَكَ كيلو مِنْها؟»

لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ ميزانٌ، إِلّا أَنَّنــي كُنتُ في مَكانٍ قَريبٍ مِنَ الدُّكّانِ، وَكُنتُ سَأَزِنُها هُناكَ.

غيرَ أَنَّ جَدِّي سَأَلَني سُؤالًا غَيرَ مُتَوَقَّع.

«مِنْ أَيْنَ أَحْضَرْتِ الكُمَّثْرى؟»

كُنتُ مُضطَــرَّةً إِلى قَوْلِ الصِّــدْقِ. أَخْبَرْتُهُ أَنَّني قَطَفْتُها مِنْ حَقْلِ العَمِّ وَليد.

«دونَ عِلْمِهِ؟»

أَجَبْتُهُ وَأَنا أُتَمْتِمُ:

«نَعَمْ، بدونِ عِلْمِهِ. هٰذِهِ لَيْسَــتْ مُشْــكِلَةً. لَنْ يَغْضَبَ العَمُّ وليد».

بَدَأَ جَدِّي من جَديد:

«لِمٰـاذا أَنْـتِ هٰكذا يـا ابْنَتـي؟ مَنْ تُشْـبِهينَ بِتَصَرُّفاتِكِ؟ هَلْ أَنْتِ عَديمَةُ التَّربِيَة...»

أَكْمَلَ جَدِّي القَهْوجي الكلامَ عَنْه:

«لَقَدْ سَئِمْنا مِنْكِ... سَئِمْنا فِعْلًا».

تَجَمَّدْتُ في مَكاني.

كانَتْ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ فقطْ تُصْدرُ صَدًى في رَأْسي:

«**سَئِمْنا...**»

أَجْهَشْتُ بِالبكاءِ. كُنتُ أَبْكي غَضبًا. رَكَلْتُ سَلَّةَ الكُمَّثْرى:

«أَنا أَيْضًا سَئِمْتُ، سَئِمْتُ مِنْ نَفْسي».

ثُمَّ رَمَيْتُ الأَكْياسَ الَّتي أَخَذْتُها مِنَ الدُّكّانِ إِلى جَدِّي:

«خُذْ أَكْياسَكَ وَارْبُطْها في عُنُقِك».

ذَهَبْتُ إِلى البَيْتِ وَأَنا أَبْكي. كانَتْ أُمِّي وَجَدَّتي أَمامَ البابِ:

سَأَلَتْني جَدَّتي: «ماذا فَعَلْتِ بِمِقَصِّي؟»

أَنا أَبْكي وَهِيَ تَسأَلُ ماذا فَعَلْتِ بِمِقَصِّي!

أَمّا أُمِّي فَقالَتْ:

«سأُعاقِبُكِ عَلى ما فَعلْتِهِ بِشَعرِ الدُّمية».

كُنْتُ أَبْكي. سَئِمْتُ مِنْ نَفْسي.

مَنْ أُشْبِهُ بِتَصرُّفاتي؟

حَقًّا... لِماذا أَنا هٰكَذا؟

دَخَلْتُ غُرْفَتي وَأَقْفَلْتُ البابَ. لَمْ يَطْرُقْ أَحَدٌ البابَ حَتّى المَساء. هٰذا يَعْني أَنَّهُمْ لا يُبالونَ بي أَصْلًا. نادوني عِدَّةَ مَرّاتٍ عَلى العَشاء.

لَمْ أَخْرُجْ. لَقَدْ وَصَلَ خَبَرُ الكُمَّثْرى إِلى أَبي وَأُمّي. إِنْ خَرَجْتُ سَيَغْضَبانِ عَليَّ أَيْضًا.

بَكَيْتُ وَبَكَيْتُ وَبَكَيْتُ. زَحَفْتُ تَحْتَ السَّريرِ وَبَكَيْتُ. وَجَدْتُ دَفْتَري تَحْتَ السَّرير. كُنْتُ قَدْ خَبَّأْتُهُ هُناكَ كَيْ لا يَراهُ أَحَدٌ وَنَسيتُهُ. حَمَلْتُهُ وَكَتَبْتُ المادَّةَ العاشِرَةَ وَالأَخيرَةَ:

المادَّةُ العاشِرَةُ:

رُبَّما كانوا مُحِقِّينَ. هُمْ كِبارٌ وَبالِغونَ، أَمّا أَنا فَصَغيرَة.
يَعْتَقِدونَ أَنَّني لا أَعْرِفُ شَيْئًا... وَلا أَحْزَنُ لِأَيِّ شَيْءٍ...
كُلُّ ما يَهُمُّني هُوَ الشَّغَبُ وَالمُشاكَسَة.
سَأُريهِمْ يَوْمًا أَنَّهُمْ مُخْطِئونَ. لِهٰذا عَلَيَّ أَنْ أَدْرُسَ...
سَأَدْرُسُ وَأُصْبِحُ الأُولى عَلى الصَّفِّ بَلْ عَلى المَدْرَسَة.
سَأَلْتَحِقُ بِالجامِعَةِ... أَلا يَقولونَ لي دائِمًا:
مَنْ تُشْبِهينَ بِتَصَرُّفاتِكِ؟..
في ذٰلِكَ اليَومِ سَيَصْطَفّونَ أَمامي لِيَقولوا أَنْتِ تُشْبِهينَني،
أَنْتِ نُسْخَةٌ عَنِّي، تُشْبِهينَني كَثيرًا...
مَنْ قالَ لي اليَومَ سَئِمْنا مِنْكِ سَيَبْكي غَدًا أَمامي...
سَتَرَوْنَ جَميعًا...

وَالآنَ وَداعًا يا دَفْتَري...

لا يُمْكِنُني أَنْ أُضَيِّعَ وَقْتي بِهٰذِهِ التَّوافِهِ، أَمامي الكَثيرُ مِنَ الأَعْمالِ، سَأَكْبُرُ وَأُصْبِحُ ناضِجَةً...

وَضَعْتُ دَفْتَري في مَكانِهِ تَحْتَ السَّريرِ وَخَرَجْتُ مِنَ الغُرْفَة. جَلَسْتُ إِلى المائِدَةِ بِكُلِّ هُدوءٍ وَأَدَب...

كَما يَنْتَظِرُ البالِغونَ جَميعًا مِنّا نَحْنُ الأَطْفال...

بَعْدَ سَنَواتٍ

رَغْمَ أَنَّ عَمَلي فـي الـدُّكّانِ كانَ مُتَقَطِّعًا إِلّا أَنَّهُ **اسْتَمَرَّ عِشْرينَ سَنةً كامِلَةً**. قُمْتُ بِالعَمَلِ لَدى جَدِّي طَوالَ عِشْـرينَ سَـنَة. وَفي هٰذِهِ المُدَّةِ تَغَيَّرَتْ أَشْياءُ كَثيرَةٌ في الدُّكّانِ، وَالقَريَةِ، وَفيَّ، وَحَتّى في الحَياة.

أَصْبَحَ جَدِّي هَرِمًا لا يَسْـتَطيعُ قِـراءَةَ الصَّحيفَة دونَ نَظّارَةٍ، وَلا يَسْتَطيعُ اسْتِخدامَ الميزان.

كَثيرٌ مِنَ المُنْتَجاتِ الَّتي كانَتْ مَوجودَةً آنَذاكَ لَمْ تَعُدْ مَوجودَة. لَمْ تَعُدْ هُناكَ بِطاقاتُ اتِّصـالٍ لِأَنَّ الجَميـعَ صـارَ لَدَيْهِمْ جَوّال. لَـمْ يَعُدْ هُناكَ شَـخْصٌ يَلْبَسُ جَوارِبَ بَيْضاء... لَيْسَ هُناكَ مُثَلَّجـاتٌ بِالقِمْعِ... لَمْ يَعُدْ هُناكَ مَنْ يُعانِدُ في طَلَبِهِ لِماءٍ كلورِ عاكِف.

تُوفِّيَتْ شُـكْرِيَّةُ اللّامِعَةُ، وَلُطْفِيَّةُ الَّتي تَتَأَلَّمُ مِنْ قَفا رَأْسِـها، وَكَذٰلِكَ مَديحَةُ المُصابَـةُ بِالروماتِزْمِ. تُوفِّيَـتْ جَدَّتي المُغرَمَـةُ بِالْحَلاوَة. عَمِّـي إِبْراهيمُ المُقَرَّبُ تُوفِّيَ أَيْضًا. وَكَذا العَمُّ وَهْبي الَّذي دُفِنَ في حَديقَتِهِ. أَذْهَبُ بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ إِلى قَبْرِهِ وأَشْرَبُ المِياهَ الغازِيَّةَ بِطَعْمِ البُرْتُقال. سَـلَّمَ جَدِّي القَهْوَجي المَقْهى لِغَيْرِهِ، وَالآنَ أَشْتاقُ إِلى شايِ الفاكِهَةِ الَّذي لَمْ يَكُنْ يُعْجِبُني...

جاءَ رَجُـلٌ وَاكْتَشَـفَ الصّـودا بِطَعْـمِ الكَرَزِ الحامِضِ... لَقَدْ أَخْبَرْتُكُم بِهٰـذا... يُباعُ كَثيرًا وَأَنا أَشْتَريهِ.

المُكَسَّـراتُ تُباعُ فـي أَغْلِفَتِها. **لَقَـدْ قُلْتُ** هٰذا أَيْضًا... ظَهَرَ جُنونُ المُنتَجـاتِ المَحلِّيَّةِ في مُعْظَمِ مَراكِزِ التَّسَوُّق... وَلَقَدْ قُلْتُ هٰذا أَيْضًا...

تُنَظَّمُ حَفَلاتُ أَعيادِ الميلادِ في كُلِّ مَكانٍ... لَوْ أَنَّهُمْ اسْـتَمَعوا إِلى كَلامـي حينَها لَكُنْـا مِنْ أَثْرى الأَثْرِيـاءِ اليَـومَ... وَلَكُنْـا أَضَفْنا طابِقًـا آخَرَ إِلى الدُّكّان.

لِحُسْنِ الحَظِّ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعوا إِلَيَّ... لِحُسْنِ الحَظِّ أَنَّنا لَمْ نَجْعَلْ لِلدُّكّانِ طابِقًا آخَرَ وَإِلّا لَما تَحَمَّلَ جَدِّي ذٰلِك...

اتَّصَلَ بي في الشَّهْرِ الماضي، وَبِمُجَرَّدِ سَماعِ صَوْتي قالَ لي:

«إِنَّني أُغْلِقُ الدُّكّانَ».

أَمْطَرْتُ عَلَيْهِ الأَسْئِلَة:

«كَيْفَ؟ لِماذا؟ مَتى؟ ماذا يَحْدُثُ؟ هَلْ أَنْتَ بِخيْرٍ؟

في الماضي هُوَ مَنْ كانَ يَسأَلُ.

لَقَدْ تَعِبَ، فَمُنْذُ 35 عامًا وَهُوَ يَعْمَلُ في الدُّكّان.

«سَأَتَقاعَدُ، لَنْ أَسْتَيْقِظَ في الصَّباحِ الباكِرِ، وَلَنْ أَتْرُكَ بابَ الدُّكّانِ مَفْتوحًا حتّى وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنَ اللَّيْل. كَفى، لَقَدْ تَعِبْتُ، تَعِبْتُ كَثيرًا».

قُلْتُ لَه:

«تَقَبَّلِ الأَمْرَ! إِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ إِدارَةَ الدُّكّانِ بِدوني».

ضَحِكَ وقالَ:

«أَتَقَبَّلُ ذٰلِكَ، لَقَدْ ذَهَبْتِ وَتَرَكْتِنِي وَحيدًا مَعَ هٰؤلاءِ الزَّبائِنِ الحَمْقى».

أَنا أَعيشُ الآنَ في مَدينَةٍ أُخْرى. طَبَّقْتُ في حَياتي مادَّتي الأَخيرَةَ الَّتي كَتَبْتُها في دَفْتَري. دَرَسْتُ، اجْتَهَدْتُ كثيرًا. لَمْ أَكُنِ الأُولى في المَدْرسَةِ لٰكِنِّي الْتَحَقْتُ بِالجامِعَة. أَصْبَحْتُ كاتِبةً. انْدَهَشَ الجَميعُ مِنْ ذٰلِك.

إِنَّ مَنْ كانَ يَقولُ لي سابِقًا: «**مَنْ تُشْبِهينَ بِتَصرُّفاتِكِ**» يَقولُ لي اليَوْمَ: «**أَنْتِ نُسخَةٌ عَنِّي**».

وَأَقولُ في داخِلي: نَعَمْ... نَعَمْ... نُسْخَةٌ عَنْكَ.

هَلْ تَظُنّونَ أَنَّني نَسيتُهُم؟ **أَنا لا أَنْساهُم...**

الأَطْفالُ لا يَنْسَوْنَ عَلى الإِطْلاقِ، لا يَنْسَوْنَ حَتّى وَلَوْ كَبِروا...

«**قُلوبُ الأَطْفالِ تُسامِحُ... لٰكِنَّها لا تَنْسى أَبَدًا...**».

مكتبة
t.me/t_pdf

إنها مستَثمِرة...تُعطي الخل للزبون الذي طلب روح الخلّ قائلة:
«إليك الخل وستأتيك روحه لاحقًا»....
إنها بطلة...تبيع المنتجات بالمجان للفقراء،
وتضعها في حساب الأغنياء...
إنها متوقّدة الذكاء...تخلط المشروبات في الدّكان
لتقدّم المشروب المثالي للزبائن...
إنها مُحِبّة للخير... تَجمع المأكولات مِن أيدي أصدقائها
لِمساعدة الأطفال الأفارقة...
إنها عامِلة لدى دكان... تزرع المصائب في كل خطوة تخطوها.. مُسليّة..
ذات أفكار حاذقة.. ابتكارية رائعة...
تقدمت في الحياة التجارية بسرعة فائقة، إلا أنها اصطدمت
بعالَم البالِغين في كل مرة...لم يبق شيء إلا وأصابها بسببهم... وجهزت
لك دليلًا مرشدًا رائعًا من خلال تجاربها...
المواضيع الحساسة التي يجب على الصِّغار الانتباه إليها أثناء تواصلهم
معَ الكِبار، ذُكرت في هذا الكتاب في عشر مواد...
اقرأها وتمعّن بها...
سأعطيك سرًا...
البالغون...
في كل مكان...

© Şermin Yaşhar
© 2020 TazeKitap - Istanbul - Turkey

© النسخة العربية: شركة دار مكتبة المعـــارف ـ ناشرون
الطبعة الأولى 2020م ـ شركة دار مكتبة المعارف ـ ناشرون
بيـروت ـ لبنـان، ص.ب:11/1761 تلفاكس: 653857/2 ـ 01
E-mail: al_maaref@hotmail.com / www.daralmaaref.com
Dar Al Maaref Bookshop Co. Publishers dar_al_maaref_
DAR AL MAAREF Publishers Simply, not just a book

Books Factory For Publishing & Distribution
Tel.: +971 50 582 5874
E-mail: booksfactoryfpd@gmail.com
booksfactoryuae
ISBN 978-9953-69-860-1

t.me/t_pdf